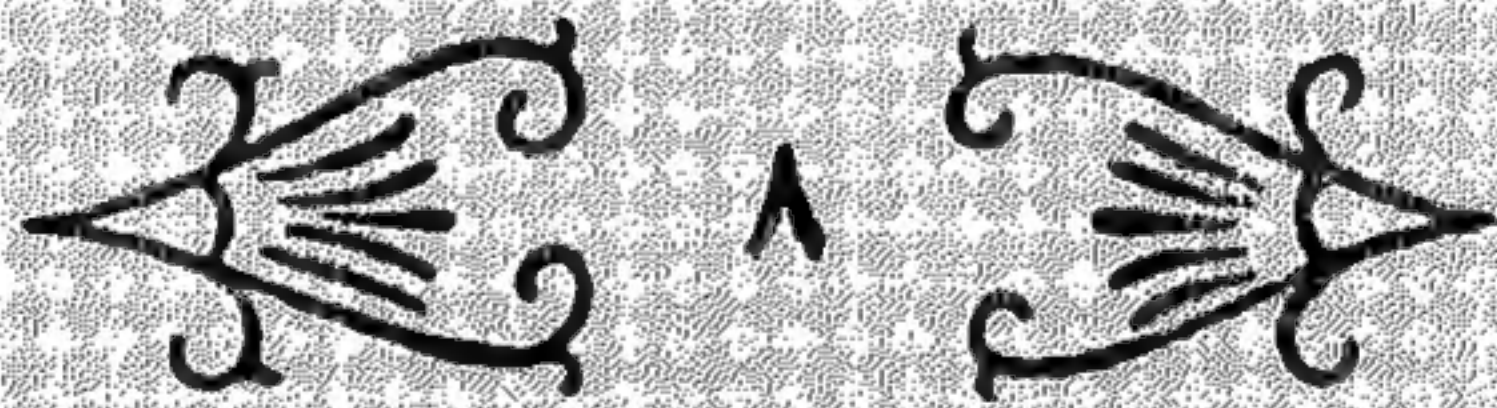


بمختار من المنعم خفاجي

قصيدة الفراق الكبير



التجارات
AL-NAJAH
AL-Najaf al-Ashraf - Iraq - C.A. Kashoury



مكتبة
BOOKSHOP
النجف الاشرف - العراق - نجف - النجف - الكشوري

اهداءات ٢٩٩٢

مكتبة

ا.د محمد الحميد بطوي

القاضي بمحكمة العدل الدولية

مجمع تراث المنعم خياجي

مفسر القرآن الكريم

أحدث التفاسير ، وأجمعها للفكرة الإسلامية ،
ولفهم العصر الحاضر لكتاب الله

(٨)

الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح - قتيون : ٨٥٢ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ○ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ○
مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ○ إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ○ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ○
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ○

تقدير

اللهم إنا نستعينك ، ونستهديك ، ونستغفرك ، وتوب إليك ؛ ونعود بك من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، بك الحول والطول ، ومنك العون والهداية ، لك الحمد والثناء ، وإليك الدعاء والنداء ، وأنت على كل شيء قدير . . .

وبعد . . . فهذا هو الجزء الثامن من هذا التفسير الجديد لكتاب الله ، الذى يخرج فى ظلمات العصر المادى ، وبين سحب الضلالات الكشيفة المحيطة بالناس من كل جانب ؛ وخلال دعوات يتفخ فيها الشيطان ، ليصل دويها إلى كل أذن ، وليردد نداءها كل لسان ، وليؤمن بها كل عقل وقلب . . . وهى دعوات جاحدة مارقة ما أنزل الله بها من سلطان ، يدعو بعضها إلى الإباحية والوجودية والمادية ، وينادى بعضها الآخر بالإلحاد فى دين الله ، والكفر بشرائع السماء ، والخروج على رسالات الأنبياء ، وينادى بعض هؤلاء الدعاة ، فينكرون وجود الله ، ويشككون فى القيم الإنسانية العليا ، ويحاربون الإيمان بالدين وبالتوأميس الإلهية العظيمة ، ويفتخرون بما يدعون إليه ، فى الوقت الذى صمت فيه لسان الحق ، وسكت فيه دعاة الخير والهدى ، ونام الحراس على ترائنا الروحى ، وعلى التعاليم السماوية الهادية المنقذة للبشر والحياة. فى وسط هذه التيارات المتدافعة المضطربة المتناقضة ، يخرج هذا التفسير صوت هداية للناس ، ولسان حق يدعو إلى ما يدعو الإسلام وكتابه الكريم. وتفسير تعاليم السماء ، المنزلة على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم فى الكتاب الحكيم ، وتقريب أصولها ، وشرح أهدافها ، وتوضيح مراميها ، وتقريب معانيها ؛ كل ذلك جهد مبذول ، أقدمه بين يدي هذا التفسير ، داعياً الله عز وجل أن يهدى به الناس إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، وما توفيقى إلا بالله ؟

تمهيد

(١)

كان المسلمون منذ بدأوا حياتهم الحافلة ، بعد أن انبثق نور الإسلام وبزغ على العرب فجر عهد جديد ، في كفاح ونضال وجهاد مستمر : حاربوا طغيان الأفراد والجماعات والشعوب فظفروا وظفروا مؤزرا ، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ، واكتسحوا الدول والأقطار ناشرين لهداية الله ومؤيدين بروحه وأمنه ، حتى انتشر الإسلام في كل مكان ، وعم ضوءه الآفاق . وكان هذا النصر العظيم معجزة كبرى بهرت الناس ، وحيرت المفكرين ، لأنه نصر خارق ، شمل جميع الميادين : الحرية والسياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والفكرية . ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، والله عافية الأمور ، فشملت الدولة الإسلامية أكثر أمم العالم المعروف آنذاك ، وكانت العواصم الإسلامية هي محور السياسة العامة ، ومحط أنظار الناس ؛ والنظم الاقتصادية التي شرعها الإسلام كانت هي النظم السائدة بين جميع هذه الشعوب ، والثقافة الإسلامية كانت هي المنهل العذب الذي تنفوس إليه العقول والعيون ، ويستمد منه الناس ثقافتهم وعلومهم وقنونهم وآدابهم ، والنظام الاجتماعي الذي وضعه الإسلام وكفل به التضامن الاجتماعي بين الأفراد والجماعات والطبقات ، وجعل الغنى والفقير والكبير والصغير والأمير والعامل إخوة متحابين في الله ، هذا النظام الرائع هو الذي كانت تحلم بأن تحيا في ظلاله امبراطوريات كسرى وقبصر وشارلمان ، والذي ارتمت في أحضانه كثير من البلاد والأمم ، وكذلك مناهج التفكير العامة وألوان الحضارة المشرقة عند المسلمين كانتا هما السائدتين في البلاد الخاضعة لنفوذ الإسلام . فوق أنهما من الآمال العزيزة التي كان يحلم بها وبالعيش في ظلها الملوك والأمراء والعلماء

والعامة في جميع الأقطار . هذا التقدم العظيم والروح الوثاب ، والنهضة الجبارة كان منشؤها الدين نفسه . وشريعة الإسلام بما اشتملت عليه من آداب ونظم وأخلاق ومثل وعادات ونواميس وأهداف . . . فبادئ الإسلام كانت هي السبب الأول في نشره وارتداء الأمم في أحضانه .

(٢)

لقد حارب الإسلام الضعف بجميع صوره وألوانه .. حاربه في الفرد . فدعا إلى أن يكون المسلم قويا عزيزا كريما كما يقول الرسول الكريم : « المؤمن القوى خير وأحب عند الله من المؤمن الضعيف ، ، ويقول : « اليد العليا خير من اليد السفلى ، أى المعطى خير من السائل ، ودعا إلى العمل والجهاد في سبيل العيش : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ، وقدم حرمة الأموال والأعراض : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله ، .. وحاربه في المجتمع ، ليقضى على الرذائل والشور ، وعاقب عليها عقاباً صارماً ، وأمر بشتى الفضائل الاجتماعية ، التى تكسب المجتمع قوة وأمناً وطهراً وخيراً ، وشرع قاعدة اجتماعية مثلى ، تصور لك آداب الإسلام وأصول دعوته ، وتبين لك إلى أى مدى كان التضامن الاجتماعى يسود الطبقات والجماعات فى ظلال الإسلام ، وهى كما يقول الرسول الكريم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وكما جاء فى الأثر : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به ، وهذا نظام اجتماعى أساسه حب مصلحة الغير ، والمحافظة على حقوق الناس وتعود الإيثار والبر والخير والرحمة والتعاون ، ومقت الإثرة ، وبهذا وثق الصلات بين الأغنياء والفقراء ، كما قضى على العصابات ، ونشر الإنصاف والعدالة والحق والمساواة بين الناس جميعاً ، ودعا إلى رأى العام الذى ربي على أصول دعوة الإسلام إلى أن يكون قويا جريئاً ، لا يخشى فى الله لومة لائم ، بل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويقف فى وجه الظلم والطغيان . وحارب الضعيف فى الأمة ، فجعل راعيها هو القوام على حقوقها ، والأمين على مصالحها ، والذائد الحامى الذمار عن أحسابها

وشرفها وكرامتها ، والحاكم العادل الذي ينشر الأمن ، ويبعث الرحمة ، ويسوى بين الناس ، ويعطى كل ذي حق حقه . ودعا الناس - مع دعوته إلى تكوين الأخوة الإسلامية القوية - إلى إخوة إنسانية عامة شاملة ، لا فرق بين الأمم والعناصر والعقائد والمذاهب ، « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، وهذا كله هو السبب في مجد المسلمين الأولين وسيادتهم ، إذ آمنوا بهذه المبادئ ونهجوا على طريقها في حياتهم وآدابهم وسلوكهم ، وهو السبب في انتشار الإسلام بسرعة خارقة للعادة في جميع الأقطار والأمصار .. »

(٣)

وقد بدأ ميلاد الحضارة الإسلامية بعد ميلاد الإسلام بقليل، وذلك حينما استقر الرسول وصحبه في المدينة ، وأخذ الاستقرار الروحي والأدبي والفكري والاجتماعي ينتشر في جزيرة العرب ، وانتفع أهلها بتوجيههم - بفضل الإسلام - إلى الحق والخير . ثم جاء الخلفاء وملوك المسلمين الأوائل ، فتعهدوا هذا الغرس حتى نما وازدهر وأثمر . وتعددت مراكز الحضارة الإسلامية في العالم الإسلامي . وهذا هو التاريخ شاهن صدق على مدى ما بلغت دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وسواها من مدنية . ولقد تألفت أضواء الحضارة الإسلامية في شتى أرجاء العالم المعروف آنذاك ، وانتقلت من الشرق إلى الغرب عن طريق صقلية والأندلس ، وباختلاط الأوربيين والشرقيين في الحروب الصليبية وسواها . وإذا كان لكل حضارة مبادئ وأهداف ، تقوم عليها ولأجلها ، فإن الحضارة الإسلامية تقوم على مبادئ غالبة ، لم يصل إليها العقل البشري من قبل ، ولم يستطع العالم في القرن العشرين أن يجاريها أو يتخذ مما يماثلها دستورا له في الحياة . وهي مبادئ الإسلام ، وقبس من نور الله ، وتراث من حكمته ، والإنسان خليفة استخلفه الله على الأرض ، وعليه لذلك أن يتجه بروحه وقلبه إلى الله وحده لا شريك له ، يعبده ويطيعه . ويعمل بشرائعه ، ويوقن أنه معه في كل مكان وحين ، يعلم السر وما هو الخفي ، « قل إن صلاتي

ونفسى ومحياى وعماتى لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . . ولا شك فى أن ذلك يكسب الإنسان صفاء فى العقيدة ، ونورا فى الصدر ، وطهرا فى القلب ، واعتزازا بالنفس والعمل الكريم ، ورضاء بأحكام الله وقضائه ، له مقاليد السموات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . إنه بكل شىء عليم ، ، وينظر الإسلام إلى المجتمع - بجميع عناصره وطبقاته - على أنه أسرة واحدة متعاونة تعاوننا وثيقا فى الحياة ، يعطف الغنى على الفقير ، ويحنو الكبير على الصغير ويدفع كل بالتى هى أحسن ، وهل أبلغ فى التعبير عن هذا التعاون المطلق والأخوة الكاملة من قول الله عز وجل : « إنما المؤمنون إخوة ، وقول الرسول الكريم « مثل المؤمنین فى توادهم وتراحمهم كبمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحسنى والسهر ، . والراعى يقيم العدل ويزن بالقسطاس ، ويسوى بين الناس ، ويستشير فى أحكامه أولى العتق والتفكير ، وينشر الأمن والسلام بين الرعية ، لا يقهر له قرار حتى يأخذ كل ذى حق حقه ، ويقضى لكل ذى حاجة حاجته ، ويرد عن كل مظلوم ما لحقه من ظلم وطفیان . والعالم كله بشعوبه وعناصره وأديانه مجتمع واحد ، يكفل له الإسلام الأمن والسلام ، فى ظلال التعاون والمحبة والإخاء والتبادل الفكرى والعقلى والروحى والمادى ، ويجب أن يعيش الناس أمة واحدة كما خلقهم الله ؛ كان الناس أمة واحدة فاختلّفوا ، يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، . هذا فوق ما كفله الإسلام من شتى عناصر التقدم والحضارة الأدبية والروحية والمادية ، اللازمة لتقدم الجماعات ، ورفق الأمم والشعوب ، مما قضى على الهمجية والوحشية فى عصور لم تعرف النور ولا الحضارة من قبل . والأهداف الأولى لهذه المبادئ كلها فى نظر الإسلام ، هى نشر أفكار الحق والعدالة والحرية والمساواة والإخاء والشورى والتعاون والخير والمحبة والرحمة والسلام . ليعيش الناس جميعاً فى ظلال وحدة مجتمعة فى الأفكار والأهداف والمبادئ والغايات ، فى ظلال عالم موحد تسوده

الطمأنينة والأمن والسلم ، وفي حضارة مشتركة غايتها الإخاء بين الروح
والمادة والعقل والجسم، والواجب والحق والإيثار والإثرة .

(٣)

وفي مطلع هذا الجزء - الثامن - من كتاب الله الحكيم ، تقف متأملين
متعجبين : لعظمة إيجاز القرآن الكريم ودفاعه عن عقيدة التوحيد، وعن دين
الصفاء والسلام والإسلام ، ولجلالة حجته في إبطال الشرك وفي الرد على
المشركين ... إن الإسلام دين التوحيد والسلام ، وهو رسالة الله إلى البشرية
جميعاً ، وهذا القرآن ما هو إلا كتاب الرسالة ، ومعجزة الرسول ، وهو
تأييد إلهي لمحمد عليه السلام ولسالته .. وهنا في هذا التفسير تتابع استجلاء
حقائق القرآن الكريم وأصوله في تقرير التوحيد ، وفي الدفاع عن
دين الله ، وفي محاجة الشرك والمشركين .. ومن أصدق من الله حديثنا ،
وما توفيقى إلا بالله .

تفسير آيات الجزء الثامن

من كتاب الله الكريم

(١)

تمة سورة الأنعام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير آيات الربع الاول.

١١١ - وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ .

١١٢ - وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ .

١١٣ - وَلِتَصْنَعِيَ إِلَيْهِ أَفْتِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَآيْرُضُوهُمُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ .

هذه الآيات الثلاث هي مطلع الربع الثامن الذي يشمل بعضا من سورة الأنعام وبعضا آخر من سورة الأعراف ، وسورة الأنعام كما سبق أن ذكرنا من السور المكية الطوال ، وهي في حاجة المشركين ، وفي إبطال الشرك ، وفي الرد على اقتراحات مشركي مكة وغيرهم ، وفي تقرير عقيدة التوحيد وإثباتها ، وهي سورة كلها دفاع عن الرسالة والرسول .

والآيات الثلاث هذه هي رد على اقتراحات المشركين وإبطالها ، وتفنيدهم الواهية ، وأستلهم المتداعية ، قالوا : لو أنزل عليه ملك بالرسالة فشهدناه وهو في صورته الملكية عيانا ، ورأيناه يبلغ الرسالة ، فقال الله عز وجل فيما سبق ، « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ، وقال عز وجل : ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى - وجمعنا لهم

الناس وغير الناس جميعا ، كي يعرفوا صدق الرسول وصواب الرسالة ، وليؤمنوا بالإسلام والقرآن ، ما كانوا ليؤمنوا ، ولكن أكثر هؤلاء الناس جاهلون يجهلون الحق ويعادونه ومن جهل شيئا عاداه وعانده ؛ والآية الثانية معناها أن الله عز وجل جعل لكل نبي أعداء من شياطين الإنس والجن ، يوسوس بعضهم لبعض ، ويوحى بعضهم إلى بعض ، ويموه بعضهم لبعض زخرف القول غرورا وباطلا وكذبا ، ولو شاء الله ما فعلوا ذلك .. فليتركم الرسول واقتراءاتهم .. والآية الثالثة معناها أنه كما يوسوس بعض أعداء الرسول لبعض ويوحى بعضهم لبعض الأكاذيب من الكلام غرورا وباطلا ، فكذلك يفعلون تميل إلى أكاذيبهم واختلاقهم قلوب الكافرين والمترددين . ويزدادوا رضاء وسرورا بهذه الأكاذيب ، وليختلقوا ما يخلقونه من الأباطيل والأوهام والكلام المموه في إبطال الرسالة .. يقول الله عز وجل في هذه الآيات الكريمة ..

« ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى ، كما اقترحوه ، وحشرنا ، أى جمعنا ، عليهم كل شيء قبلا ، قرىء أى بكسر القاف وفتح الباء أى معاينة ، أى فشهدوا بصدقك ، وقرىء بضم القاف والباء جمع قبيل أى فوجا فوجا ، ما كانوا ليؤمنوا ، لما سبق في علم الله ، إلا أن يشاء الله ، أى لكن إن شاء الله إيمانهم فيؤمنون ، لا يؤمنون في حال من الأحوال إلا في مشيئة الله تعالى إيمانهم ، ولكن أكثرهم يجهلون ، أى أنهم لو أوتوا بكل آية لم يؤمنوا فيقسمون بالله جهد إيمانهم على ما لا يشعرون ، ولذلك أسند الجهل إلى أكثرهم لأن بعضهم معاند ، مع أن مطلق الجهل يعمهم فيشمل المعاند ، أو لكن أكثر المسلمين يجهلون أنهم لا يؤمنون فيتمنون نزول الآية طمعا ، وكذلك ، أى ومثل ما جعلنا لك أعداء من كفار الإنس والجن « جعلنا لكل نبي ، أى بمن كان قبلك ، عدوا شياطين ، أى مرده وهو بدل من عدو ، الإنس والجن ، وفي هذا دليل على أن عداوة الكفرة للأنبياء بفعل الله تعالى وخلقته ، يوحى ، أى يوسوس ، بعضهم ، أى الشياطين من النوعين ، إلى بعض زخرف القول ،

أى ما رموه من الباطل « غرورا ، أى لأجل أن يغروهم بذلك » ولو شاء ربك ، إيمانهم « ما فعلوه ، أى هذا الذى أنبأتك به من عداوتهم وما تفرع عليها » قدرهم ، أى اترك الكفرة على أى حالة اتفقت « وما يفترون ، من الكفر وغيره ، مما زين لهم ؛ وهذا قبل الأمر بالقتال » ولتصغى ، عطف على (غرورا) إن جعل علة ، أى ولتميل ميلا قويا ، إليه ، أى الزخرف الباطل « أفئدة ، أى قلوب » الذين لا يؤمنون بالآخرة ، أى ليس فى طبيعتهم الإيمان بها لأنها غيب وهم لبلاذتهم واقفون مع وهمهم ، ولذلك استولت عليهم الدنيا التى هى من أصل الغرور ، أو المعنى : وليكون ذلك جعلنا لكل نبي عدوا « وليرضوه ، أى الزخرف الباطل لأنفسهم » وليقتربوا ، أى يكتسبوا « ما هم يقتربون ، من الآثام فيعاقبوا عليها ، ونزل لما قال مشركو قريش للنبي صلى الله عليه وسلم : اجعل بيننا وبينك حكما من آجار اليهود وإن شئت من أساقفة النصارى ليخبرنا بما فى كتابهم من أمرك .

١١٤ - أَفْتَرِ اللَّهُ أَبْتغَى حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ اتَّيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ .

١١٥ - وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

١١٦ - وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ .

١١٧ - إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

هذه الآيات الأربع إنكار على المشركين ، وإبطال لشركهم ، ورد عليهم .

ومعنى الآية الأولى : ليتهم جعلوا الله حكماً بينك وبينهم ليشهد لك بالرسالة وبالصدق ، ويشهد لهم بالكذب والباطل ، والله عز وجل قد شهد لك في القرآن ، وأكد رسالتك ، وأبطل كذبهم ، ولماذا هم بعد ذلك شاكون مترددون حائرون ؟ أيتغنون حكماً غير الله ، أيريدون شاهداً آخر بعد أن أنزل الله عليك القرآن مفصلاً ؟ وهؤلاء هم أهل الكتاب يعلمون أن ما أنزل إليك حق من عند الله ، ويعلمون صدقك وأنت رسول من عند الله ، فلا تبال أيها الرسول بكذب المشركين ولا تتردد وتشك في موقفك الصادق وموقفهم المخزي المشين .

والآية الثانية تؤكد أن الرسالة ماضية في طريقها ، وأن كلمات الله ووعده الحق بنصر محمد والمسلمين حق لا ريب ولا تبديل فيه والله يسمع ويعلم .. والآية الثالثة معناها أن أكثر الناس يعادون الرسالة ويضلون عن سبيل الله ، وأنه لا يصح أن يطيعهم الرسول ولا أحد من المسلمين ، لأنهم لا يتبعون إلا الأوهام والباطيل وهم لا يعلمون شيئاً إلا على الوهم والظن والباطيل .. والآية الرابعة فيها تسلية للرسول وفيها تفويض الأمر إلى الله ، وأنه هو يعلم الضالين ويعلم المهتدين .. وأن أمر هؤلاء إلى الله ... يقول الله عز وجل في هذه الآيات الأربع الكريمة : « أفغير الله أبتغي حكماً ، وقد نزلت هذه الآية لما قال مشركو قريش للنبي : اجعل بيننا حكماً من أحبار اليهود ومن شئت من أساقفة النصارى ليخبرنا عنك بما في كتبهم من أمرك » أفغير الله ، أى قل لهم يا محمد أفغير الله « أبتغي ، أى أطلب » حكماً ، أى قاضياً بيني وبينكم » وهو الذى أنزل إليكم الكتاب ، أى القرآن المعجز ، وهو هذا القرآن الذى هو تبيان لكل شيء « مفصلاً ، أى مبيناً فيه الحق من الباطل » والذين آتيناهم الكتاب ، أى المعهود إنزاله من التوراة والإنجيل والزبور « يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، أى بالصدق ، وعندهم به من البشائر فى كتبهم ما لا يحصى ، أو المعنى : إنهم يعلمون أن القرآن منزل من الله بالحق لتقرير الأحكام ، وبيان كل شيء ، وتفصيل وجوه التشريعات ، وإنما وصف جميعهم بالعلم لأن أكثرهم

يعلمون ومن لم يعلم فهو متمكن من معرفة ذلك بأدنى تأمل ، وقيل : المراد
مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه « فلا تكونن ، يا محمد » من
المترين ، أى الشاكين فى أن علماء الكتاب يعلمون أن هذا القرآن حق وأنه
منزل من عند الله ، وقيل : فلا تكونن فى شك بما قصصنا فىكون من باب
التحريض ، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط ، وقيل : الخطاب وإن كان
فى الظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم إلا أن المراد به غيره ، أى فلا تكونن
أيها الإنسان السامع لهذا القرآن فى شك أنه منزل من عند الله لما فيه من
الإعجاز الذى لا يقدر على مثله إلا الله تبارك وتعالى « وتمت كلمات ربك ،
أى بلغت الغاية أخباره وأحكامه ومواعيده ، صدقا ، فى الأخبار والمواعيد
لا يقدر أحد أن يبدى فى شىء منها طائفا وعدلا ، أى فى القضاء والأحكام
« لا مبدل لكلماته ، بنقض أو خلف ، بل كل ما أخبرت به فهو كائن لا محالة
رضى من رضى وسخط من سخط ؛ وقيل : المراد بالكلمات القرآن لا مبدل
له لا يزيد فيه المتغيرون ولا ينقصون ، وهو السميع ، لكل ما يقال « العليم ،
بكل ما يفعل » وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، أى
دينه وأكثر أهل الأرض كانوا على الضلالة ، وقيل : الأرض المراد بها مكة
وذلك أن المشركين جادلوا النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فى أكل الميتة ،
قالوا للمسلمين : إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله فكيف تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون
ما قتل ربكم فنزلت ، وقيل : لا تطعمهم فى اعتقاداتهم الفاسدة فإنك إن تطعمهم
يضلوك عن سبيل الله أى يضلوك عن طريق الحق ومنهج الصدق ، ثم علل ذلك
بقوله « إن ، أى لأنهم ما « يتبعون ، فى مجادلتهم لك « إلا الظن ، وهو ظنهم
أن آباءهم كانوا على الحق « وإن ، أى ما « هم إلا يخرصون ، أى يكذبون
على الله عز وجل فيما ينسبون إليه ، كاتخاذ الولد وجعل عبادة الأوثان وصلة
إليه وتحليل الميتة وتحريم البحائر ونحو ذلك « إن ربك هو ، أى لا غيره
« أعلم ، أى عالم « من يضل عن سبيله وهو ، أى لا غيره « أعلم ، أى عالم
« بالمهتدين ، فيجازى كلامهم بما يستحقه .

١١٨ - فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ
مُؤْمِنِينَ .

١١٩ - وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ وَقَدَ
فَصَلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ
وَإِنْ كَثِيرًا لِيُضِلُّوا بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبُّكَ هُوَ
أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ .

١٢٠ - وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ
سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

١٢١ - وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ
الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدُوا لَكُمْ وَإِنْ
أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ .

هذه الآيات الأربع فيها بيان لما يحل للإنسان أكله من الذبائح ، وهي
الذبائح التي ذكر اسم الله عليها عند ذبحها ، وفيها تحريم لأكل ما لم يذكر اسم
الله عليه ، وقد تضمنت تحذيرا شديدا من مخالفة ما أمر الله به ..

والمناسبة بين هذه الآيات وما قبلها أن الآيات السابقة فيها نهى عن اتباع
الذين يضلون عن سبيل الله ، فيحرفون الحلال ويحلون الحرام ، وما هنا
نهى عن متابعة هؤلاء المضلين في أمر الذبائح .. وقوله تعالى : « فكلوا مما ذكر
اسم الله عليه » ، والمعنى : كلوا مما ذكر اسم الله تعالى على ذبحه ولا تأكلوا مما
ذكر عليه اسم غيره أو مات حتف أنفه . إن كنتم بآياته مؤمنين ، أى إن
كنتم محققين بالإيمان فكلوا مما ذكر اسم الله عليه فإن الإيمان يقتضى استباحة
ما أحله الله تعالى واجتناب ما حرمه ، وما لكم ، أى فأى غرض لكم فى أن

لا تأكلوا بما ذكر اسم الله عليه ، من الذبائح ، وقد فصل ، أى بين ، لكم ما حرم عليكم ، بما ذكر فى آية حرمت عليكم الميتة ... ، تفصيلا واضح البيان ظاهر البرهان ، إلا ما اضطررتم إليه ، أى بما حرم عليكم فإنه أيضا حلال حال الضرورة ، وإن كثيرا ، من الذين يجادلونكم فى أكل الميتة ويحتجون عليكم فى ذلك بقولهم : كيف تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل ربكم ، ليضلون بأهوائهم ، أى بما تهوى أنفسهم من تحليل الميتة وغيرها ، وقرأ عاصم بضم الياء والباقون بفتحها ، بغير علم ، يعتمدونه فى ذلك ، وقيل : المراد بذلك عمرو ابن لحي لأنه أول من بحر البحائر وسب السوائب وأباح الميتة وغير دين إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، إن ربك هو أعلم بالمعتدين ، أى الذين تجاوزوا الحق إلى الباطل والحرام إلى الحلال ، وذرؤا ، أى اتركوا ، ظاهر الإثم وباطنه ، أى ما أعلنتم به وما أسررتم من الذنوب كلها ، وقيل : المراد بظاهر الإثم أفعال الجوارح وباطنه أفعال القلوب ، فيدخل فيه الحسد والكبر والعجب وإرادة الشر للمسلمين ونحو ذلك ، ، إن الذين يكسبون الإثم ، فى الدنيا بارتكاب المعاصى ، سيجزون ، فى الآخرة ، بما كانوا يفترون ، أى يكسبون . وظاهر هذا النص يدل على عقاب المذنب ، ومذهب أهل السنة أنه إذا لم يتب فهو وفق مشيئة الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه بفضله ، أما إذا تاب من الذنب توبة صحيحة فلا عقاب عليه ، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ولا تأكلوا بما لم يذكر اسم الله عليه ، قال ابن عباس : الآية فى تحريم الميتة وما فى معناها من المنخقة وغيرها ، وقال عطاء : الآية فى تحريم الذبائح التى كانوا يذبحونها على اسم الأصنام . واختلف العلماء فى ذبيحة المسلم إذا لم يذكر اسم الله تعالى : فذهب قوم إلى تحريمها سواء تركت التسمية عمدا أم نسيانا ، وهو قول ابن سيرين والشعبي ، واحتجوا بظاهر الآية ؛ وذهب قوم إلى حلها مطلقا ، يروى ذلك عن ابن عباس ، وهو قول الشافعى وأحمد ؛ وذهب قوم إلى أنه إن ترك التسمية عمدا لم تحل أو ناسيا حلت وهو مذهب مالك ، ومن قال بالإباحة مطلقا ، قال : المراد من الآية الميتات وما ذكر عليه غير اسم

الله ، بدليل قوله تعالى « وإنه لفسق » ، أى ما ذكر عليه اسم غير الله كما قال تعالى فى آخر السورة « قل لا أجد فىما أوحى إلى محرماً ، إلى قوله « أو فسقا أهل لغير الله به » ، والضمير فى « إنه » يرجع إلى « ما » ، ويجوز أن يكون للأكل الذى دل عليه لا تأكلوا ، واحتجوا أيضاً فى إباحتها بما روى البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : قالوا يا رسول الله : إن هنا أفواما حديث عهدم بـشرك يا توتنا بلحم فلا ندرى أيدكرون اسم الله عليه أم لا ؟ قال : اذكروا أتم اسم الله وكلوا ، فلو كانت التسمية شرطاً للإباحة لكان الشك فى وجودها مانعاً من أكلها كالشك فى أصل الذبح ، وإن الشياطين ليوحون ، أى يوسوسون ، إلى أولياتهم ، من الكفار ، ليجادلوكم ، فى تحليل الميتة بقولهم يأكلون ما قتلتم أتم وجوارحكم وتدعون ما قتله الله ، وهذا يؤيد التأويل بالميتة ، وإن أطمعتموهم ، أى باستحلال ما حرم ، وإنكم لمشركون ، أى مثلهم فى الشرك ، قال الزجاج : فيه دليل على أن كل من أحل شيئاً مما حرم الله أو حرم شيئاً مما أحل الله فهو مشرك .

١٢٢ - أَوْ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأُحْيِيْنَهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

١٢٣ - وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ .

١٢٤ - وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يُجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ .

- ١٢٥ - فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجُسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
١٢٦. - وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ .

هذه الآيات الخمس في تمجيد رسالة الإسلام وجلالها وأثرها في بعث العرب وإنقاذهم وهدايتهم ، وفي التنديد بالمعارضين للإسلام ولمحمد عليه السلام وبالمشركين وبالخاقدين عليه وعلى رسالته ؛ وفيها إنذار لهؤلاء وهؤلاء ممن وقفوا في سبيل دعوة الإسلام حجر عثرة ، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون . وفيها كذلك بيان لتوفيقه لمن شرح صدورهم بالإسلام ، وغضبه على من عاندوا محمداً ودعوته . والإسلام صراط مستقيم ، وسبيل واضح لا ضلال فيه ولا حيرة ، وهو دين تقبله العقول ، وتدعو إليه الفطرة الإنسانية ، وهو دين الله القويم ، وصراطه المستقيم ، وكفى به ديناً وبالقرآن كتاباً منزلاً من السماء . . . يقول الله تعالى : « أو من كان ميتاً ، أى بالكفر ، فأحييناه ، أى بالإيمان ، وإنما جعل الكفر موتاً لأنه جعل الإيمان حياة ، لأن الحى صاحب بصر يهتدى به إلى رشده ، ولما كان الإيمان يهتدى إلى الفوز العظيم والحياة الأبدية ، شبهه الله عز وجل بالحياة ، وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس ، أى يتبصر به الحق من غيره وهو الإيمان ، وقال قتادة : هو كتاب الله القرآن فهو آيات من الله مع المؤمن بها يعمل وبها يأخذ ، وبها ينتهى « كمن مثله ، أى كمن هو « في الظلمات ، جمع ظلمة والمراد بها الشدة أو الحيرة أو نفس الظلام ، ليس بخارج منها ، وهو الكافر ، أى ليس مثله ، وقد نزلت هذه الآية في حمزة بن عبدالمطلب رضى الله تعالى عنه وأبى جهل بن هشام ، وذلك أن أباه جهل رعى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقرث

فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من صيده ويده قوس ، وحمزة لم يؤمن بعد فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس ، وهو يقول : يا أبا يعلى أما ترى ما جابه ؟ سفه عقولنا وسفه آلهتنا وخالف آباءنا ؟ فقال حمزة : ومن أسفه منكم ؟ تعبدون الحجارة من دون الله ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، وقيل : في عمر بن الخطاب أو عمار بن ياسر وأبي جهل ، كذلك ، أى كازين للمؤمنين إيمانهم ، زين للكافرين ما كانوا يعملون ، أى من الكفر والمعاصي ، قال أهل السنة : المزين هو الله تعالى ويدل عليه قوله تعالى « زينا لهم أعمالهم » ، وقالت المعتزلة : المزين هو الشيطان ورد بالآية المذكورة ، وكذلك ، أى كما جعلنا فساق مكة أكبرها جعلنا في كل قرية أكبر مجرميها ، أى عظماءها ، وأكبر جمع أكبر جمع كأفضل وأفاضل ؛ وذلك سنة الله تعالى أنه جعل في كل قرية أتباع الرسل ضعفاءهم كما قال في قصة نوح « أتؤمن لك وانبعك الأردلون » ؟ وجعل فساقهم أكبرهم ، ليذكروا فيها ، بالصد عن الإيمان وذلك أنهم جلسوا على طريق مكة أربع نفر ليصرفوا الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم يقولون لكل من يقدم : إياكم وهذا الرجل فإنه كاهن ساحر كذاب ، فكان هذا مكرهم ، وما يمكرون إلا بأنفسهم ، لأن وباله يحيق بهم ، وما يشعرون ، أى وما لهم نوع شعور بذلك ، وإذا جاءتهم ، أى أهل مكة ، آية ، على صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، قالوا لن تؤمن ، به حتى تؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، أى من النبوة ، وذلك أن الوليد بن المغيرة قال للنبي صلى الله عليه وسلم : لو كانت النبوة حقا لكنت أولى بها منك لأنى أكبر منك سنا وأكثر منك مالا ، فنزلت ؛ وقال مقاتل : نزلت في أبي جهل حين قال : زاحمنا بنى عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسى رهان قالوا : منا نبي يوحى إليه والله لا نرضى إلا أن يأتينا بوحى كما يأتيه ، وقوله تعالى « الله أعلم حيث يجعل رسالاته » استئناف للرد عليهم ، بأن النبوة ليست بالنسب والمال ، وإنما هي بفضائل نفسانية يخص الله بها من يشاء من عباده فيجتنى لرسالاته من علم أنه يصلح ، أى يعلم الموضع الصالح لوضعها فيه فيضعها ،

وهؤلاء ليسوا أهلها ، سيصيب الذين أجرموا ، بقولهم ذلك « صغار ، أى ذل وهوان » عند الله ، يوم القيامة ، وقيل تقديره : من عند الله « وعذاب ، أى مع الصغار » شديد ، أى فى الدنيا بالقتل والأسر فى الآخرة بالنار « بما ، أى بسبب ما كانوا يعمرون ، من صدم الناس عن الإيمان وطلبهم مالا يستحقونه » فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، بأن يقذف فى قلبه نورا يضيئه ويهديه إلى الحق ويقبله ، ولما نزلت هذه الآية سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر فقال : نور يقذفه الله فى قلب المؤمن فيشرح له قلبه وينفسح ؛ قيل . فهل لذلك أمانة ؟ قال : نعم الإجابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت « ومن يرد ، أى الله ، أن يضله يجعل صدره ضيقا ، أى عن قبول الإيمان حتى لا يقبله ولا يدخل فيه « حرجا ، بكسر الراء أى شديد الضيق وقرىء بالفتح ووصفا للصدر ، وفى الآية دليل على أن جميع الأشياء بمشيئة الله وإرادته حتى إيمان المؤمن وكفر الكافر « كأنما يصعد فى السماء ، أى يشق عليه الإيمان كما يشق عليه الصعود إلى السماء ، شبه ضيق صدر الكافرين بالإسلام بمن يزاول مالا يقدر عليه « كذلك ، أى مثل ما جعل الله الرجس على من أراد ضلاله من أهل هذا الزمان » يجعل الله الرجس ، أى العذاب والشيطان أى يسلطه « على الذين لا يؤمنون ، وقال الزجاج : الرجس فى الدنيا اللعنة وفى الآخرة العذاب » وهذا ، أى الدين الذى أنت عليه يا محمد « صراط ، أى طريق » ربك مستقيما ، لا عوج فيه « قد فصلنا ، أى بيننا » الآيات لقوم يذكرون ، أى يتعظون فيعلمون أن القادر على كل شيء هو الله عز وجل وأن كل ما يحدث من خير أو شر فهو بقضائه وخلقه وأنه تعالى عالم بأحوال العباد ، حكيم عادل فيما يفعل بهم وخصوا بالذكر لأنهم المتشفعون .

وإلى هنا ينتهى الربع الأول من الجزء الثامن من القرآن الكريم ، وقد احتوى هذا الربع على الأصول الجليلة الآتية :

١ - إن مشركي مكة يقاومون دعوة الإسلام دون سبب معقول. إلا استجابة لنداء الشر والعصية والكبرياء .. ومهما أجيوا إليه من مطالب واقتراحات فلن يؤمنوا ، ولو نزل عليهم ملك من السماء يحمل في يده رسالة من الله عز وجل بصحة رسالة محمد عليه السلام وصدقه ؛ وكذلك لو نطقت الموتي ، فحدثهم بصدق محمد الرسول ، أو اجتمع إليهم من كل شيء جماعات كثيرة تحذهم بأن الإسلام دين الله الحق ، وأن محمدا خاتم الرسل والنبين ، وأن القرآن نزل من الله .. إن هؤلاء المشركين هم أعداء الرسالة ، ولكل رسول خصومه من الإنس والجن ، يزين بعضهم لبعض زخرف القول باطلا وكذبا وغرورا وأساطيرا وأوهاما ملفقة ، انتراء على الرسول والرسالة وعلى الله عز وجل ، بما ينفثونه من سمومهم ودعواتهم الكاذبة ضد الإسلام ومحمد عليه السلام ، ليستميلوا به إليهم قلوب الجماهير وعامة الناس حتى ؛ لا يؤمنوا بدين ، ولا يصدقوا رسولا ؛ ولو كانوا يريدون المخاصمة الشريفة ، ويتبعون حكم الله على صحة رسالة محمد عليه السلام وصدقه لا كتفوا بشهادة الله عز وجل له بالصدق والحق وبأنه منزل من عند الله عز وجل .. وهذا الحكم وتلك الشهادة نطق بهما القرآن الكريم .. كما أن أهل الكتاب يعرفون صدق الرسالة والرسول .

٢ - إن الإسلام مؤيد دائما بنصر الله ، وقد تمت آياته ، وتم وعد الله له بالفوز والنصر دائما أبدا ، ولا مبدل لكلمات الله وهو السميع العليم .. كما انتهى وتم وعد الله لرسوله العظيم بإهلاك هؤلاء المشركين والقضاء عليهم وعلى ما كانوا يعتقدون ..

٣ - الجماهير وعامة الناس وأكثر من في الأرض دائما تسير وراء الضلال وتؤمن به وتعتقد فيه ، والرسول يجب أن يخالفهم ويقاومهم لأنهم لا يتبعون إلا الظنون والأوهام ، والله عليم بأباطيلهم وأكاذيبهم ، وهو أعلم بالمهتدين .

٤ - الذبائح كل ما ذكر اسم الله عليه منها فهو حلال ، وأكله جائز ، أما ما لم يذكر اسم الله عليه فلا يحل أكله ، ولا يجوز تناوله ، مهما قال المشركون والجاهلون .

٥ - لا يستوى من اهتدى بهدى الله ، وآمن بدينه ، واستضاء بنوره ، ومن ظل على الشرك والباطل وقاوم دعوة الإسلام وجحدها ، فهؤلاء المشركون سيظلون في الظلمات ليسوا بخارجين منها ، وكذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون .

٦ - وفي كل أمة لا بد من وجود هذه الطبقة المترفة الكبيرة المؤمنة بمبادئ الطغيان والوحشية والنهب وأكل أموال الناس بالباطل ، وهذه الطبقة في كل أمة هي التي تقاوم دائماً دعوات الحق ، وتصعد عن سبيل الله ودينه ، وتدعو إلى الكفر والشرك والإثم ؛ وهؤلاء مهما فعلوا ومكروا ، فإنما يمكرون على أنفسهم وما يشعرون .. بل إن هؤلاء قد ملأ الحقد قلوبهم ، حتى زعم بعضهم أنه كان أولى من الرسول والرسالة ، وأنه لا يؤمن بشيء حتى يوحى إليه مثل ما أوحى للرسول ، ونسى أن الله عز وجل يعلم أين يضع رسالته ، وسيصيبهم صغار من عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون .. وإن الذين وفقهم الله وشرح صدرهم للإسلام هم الذين يؤمنون ، أما هؤلاء المشركون فصدرهم ضيقة حرجة ، بما ملأهم من الغرور والكبرياء ، حتى كأنهم يطلبون الصعود في السماء ، ومثل هؤلاء لا يؤمنون بدين ، ولا يتبعون رسولا ..

٧ - الإسلام هو صراط الله المستقيم ، وهو دينه القويم ، والقرآن الكريم قد فصل الله عز وجل فيه الآيات لمن يريد أن يتذكر وأن يتعظ وأن يؤمن بالحق ويدعو إليه ، والله على كل شيء حسيب .

الربع الثاني

١٢٧ - لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ فِيهَا يَمْلِكُونَ .

١٢٨ - وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيمًا يَمْعَشَرُ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِّنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِّنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

١٢٩ - وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

١٣٠ - يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ .

١٣١ - ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ .

١٣٢ - وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ .

١٣٣ - وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ .

١٣٤ - إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ .

١٣٥ - قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الظَّالِمُونَ .

هذه الآيات التسع الكريمة يتبدى بها الربع الثاني من هذا الجزء من القرآن الكريم . . وفيها يذكر الله عز وجل في الآية الأولى أن المؤمنين والذين يتذكرون ويتعظون بآيات الله لهم دارالسلام عند الله ، والله عز وجل وليهم في الدنيا والآخرة بسبب أعمالهم الصالحة ، وعقيدتهم الطيبة ، أما الآية الثانية فتتمثل حوار الناس والشياطين في الآخرة أمام الله عز وجل عند الحساب ، يقول الله عز وجل لهؤلاء الشياطين : قد استكثرتم من الإنس وأضلتموهم حتى ضلوا عن سواء السبيل ، ويقول أتباعهم من البشر ندما : قد انتهى الأمر وجاء المصير وحل العذاب ، ويقول لهم الله عز وجل : النار مثواكم جميعاً خالدين فيها إلا ما شاء الله . . وفي الآية الثالثة يقرر الله عز وجل أن هؤلاء الضالين والمضلين كان بعضهم أولياء بعض في الضلال والبهتان والشرك العظيم . وفي الآية الرابعة يوضح الله عز وجل هؤلاء وهؤلاء جميعاً من الإنس والجن لعدم إيمانهم برسالات السماء ، وشهدوا على أنفسهم أمام الله بالكفر والشرك والإثم العظيم . وفي الآية الخامسة يقرر الله عز وجل أنه لا يهلك أمة ولا أحداً بظلم ، ولا يمس شعباً من الشعوب بالعذاب إلا بعد أن يعث إليه رسولا . وفي الآية السادسة يذكر الله عز وجل أن هؤلاء المشركين لكل منهم منزلة في الكفر ودرجته في الشرك ، ولهم بسبب ذلك منزلتهم من عذاب الله في الآخرة . . وفي الآية السابعة تهديد من الله عز وجل لمشركي مكة بأنه قادر على أن يذهبهم ويهلكهم ويستخلف من بعدهم ما يشاء . وفي الآية الثامنة يقرر الله عز وجل أن وعيد الله ووعدته حق وصدق ، وأن الله لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء . وفي الآية التاسعة يذكر الله عز وجل أنه سيعترك كل

إنسان يعمل ما يشاء وكما يريد ، فأمام كل أحد عذاب الله وأمامه انتقامه الشديد . . .

قوله تعالى « لهم » أى للمتذكرين « دار السلام » هى الجنة وأضافها لنفسه فى قول جميع المفسرين ، - فإن السلام كما قال الحسن هو الله تعالى - تشريفا لها ، أو أن المعنى : تحيتهم فيها سلام ، أو أراد بها دار السلامة « عند ربهم » أى ذخيرة لهم عنده لا يعلم كتبها غيره « وهو وليهم » أى المتكفل بتولى أمورهم ولا يكلمهم إلى أحد سواه « بما » أى بسبب ما « كانوا يعملون » من الأعمال الصالحة التى كانوا يتقربون بها إليه فى الدنيا . . . « ويوم » أى اذكر يا محمد يوم « نحشرهم » أى الخلق « جميعا » أى لا نترك منهم أحدا « يا معشر الجن » فيه حذف تقديره : ويقال لهم يا معشر الجن ، والمعشر الجماعة ؛ والمراد من الجن الشياطين « قد استكثرتم من الإنس » أى من إضلالهم وإغوائهم حتى صار أكثرهم أتباعكم « وقال أولياؤهم » أى الذين أطاعوهم « من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض » أى انتفع الإنس بتزيين الجن لهم الشهوات ، كما انتفع الجن بطاعة الإنس لهم « وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا » أى إن ذلك الاستمتاع كان إلى أجل معين ووقت محدود ثم ذهب وبقيت الحسرة والندامة ، قال الحسن : الأجل الموت ، وقيل : هو وقت البعث للحساب فى القيامة « قال ، الله تعالى على لسان الملائكة لهؤلاء الذين استمتع بعضهم ببعض من الجن والإنس : « النار مثواكم » أى ماواكم « خالدين فيها » أى إلى ما لا آخر له من الزمن ، فالجزاء من جنس العمل « إلا ما شاء الله » أى من الأوقات التى يخفف فيها العذاب عنهم ، وقيل : إلا ما شاء الله قبل الدخول ، قدر مدة بعثهم ووقوفهم للحساب . وقال ابن عباس : الاستثناء يرجع إلى قوم سبق علم الله أنهم يسلمون فيخرجون من النار ، قال البغوى : (ما) بمعنى (من) على هذا التأويل « إن ربك حكيم » فى صنعه « عليم » يعواقب أمور خلقه وما هم صائرون إليه « وكذلك » أى كما متعنا عصاة الإنس والجن بعضهم ببعض « نولى » من الولاية « بعض الظالمين بعضا » أى على بعض ، روى عن ابن عباس فى تفسيرها هو أن الله

تعالى إذا أراد بقوم خيرا ولى أمرهم خيرا وإذا أراد بقوم شرا ولى أمرهم شرارهم ، بما ، أى بسبب ما كانوا يكسبون ، من الكفر والمعاصي ، يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ، أى من مجموعكم وهم الإنس ، إذ الرسل منهم خاصة ، ولكن لما جمع الجن والإنس فى الخطاب صح ذلك ، ونظيره قوله تعالى ، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، ، فإن ذلك يخرج من الملح دون العذب أو أن رسل الجن نذرهم الذين يسمعون كلام الرسول فيبلغون قومهم كما قال تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن ، الآية ، وتعلق بظاهر الآية قوم فقالوا : بحث إلى كل من الثقلين رسل من جنسهم وهو الصحيح فى رأى ، يقصون عليكم آياتى ، أى يخبرون بما أوحى إليهم من آياتى الدالة على توحيدى وتصديق رسلى ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، أى ويحذرونكم لقاء عذاب الله فى يومكم هذا يوم القيامة » قالوا شهدنا على أنفسنا ، أى اعترفنا بأن الرسل قد أتتهم وبلغتهم رسالات ربهم وأنذروهم لقاء يومهم هذا وأنهم كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بهم ، وذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر ، قال الله تعالى ، وغرتهم الحياة الدنيا ، أى إنما كان ذلك بسبب أنهم غرتهم الحياة الدنيا ومالوا إليها ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ، أى فى الدنيا وقد أقروا على أنفسهم بالكفر فى هذه الآية وجحدوا فى آية أخرى وهى قولهم ، والله ربنا ما كنا مشركين ، لتفاوت الأحوال والمواطن فى ذلك اليوم المتناول ، فيقرون فى بعضها ويحجدون فى بعض آخر ، وكرر شهادتهم على أنفسهم لأن الأولى حكاية لقولهم : كيف يقولون وكيف يعترفون والثانية ذم لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم ، فإنهم أقبلوا على الدنيا ولذاتها وأعرضوا عن الآخرة حتى كان عاقبة أمرهم أن أقروا بالشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام تحذيرا للسامعين عن مثل أحوالهم ، ذلك ، أى إرسال الرسل ، أن ، لأجل أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم ، أى بسبب ظلم ارتكبوها ، وأهلها غافلون ، أى لم تصلهم رسالة رسول يبين لهم ، ولكل ، أى من العاملين بطاعة أو معصية الله ، درجات ، أى جزاء ، بما عملوا ، أى من خير وشر ، إن كان خيرا

خَيْرٌ وَإِنْ كَانَ شِرًّا فَشِرًّا ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ دَرَجَاتٌ لَتَفَاضِلِهَا فِي الْإِنْتِخَافِ كَتَفَاضِلِ
الدَّرَجِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ، أَي عَنْ شَيْءٍ يَعْمَلُهُ أَحَدٌ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ
بَلْ هُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَبِمَا يَسْتَحِقُّهُ الْعَامِلُ مِنْ ثَوَابٍ أَوْ عِقَابٍ ، وَرَبُّكَ
الْغَنِيُّ ، أَي الْغَنِيُّ الْمَطْلُوقُ ، الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ عَابِدٍ وَعِبَادَتِهِ فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ فَكُلُّ عَامِلٍ
إِنَّمَا يَعْمَلُ لِنَفْعِ نَفْسِهِ أَوْ ضَرِّهَا ، ذُو الرَّحْمَةِ ، أَي الْمَتَجَاوِزُ عَنْ خَلْقِهِ ، فَمِنْ
رَحْمَتِهِ إِرْسَالُ الرِّسَالِ وَتَأْخِيرُ الْعَذَابِ عَنِ الْمَذْنُوبِينَ لَعَلَّهُمْ يَتُوبُونَ وَيَرْجِعُونَ
« إِنْ يَشَاءُ يَذْهَبْكُمْ ، يَا أَهْلَ مَكَّةَ بِالْإِهْلَاكِ ، فِيهِ وَعَيْدٌ وَتَهْدِيدٌ لَهُمْ ، وَيَسْتَخْلِفُ
مَنْ بَعْدَكُمْ ، أَي بَعْدَ إِهْلَاكِكُمْ « مَا يَشَاءُ ، أَي خَلْقًا غَيْرَكُمْ أَمْثَلُ وَأَطْوَعُ مِنْكُمْ « كَمَا
أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ ، أَي نَسْلِ « قَوْمٍ آخِرِينَ ، أَذْهَبَهُمْ لَمْ يَكُونُوا عَلَى مِثْلِ صِفَتِكُمْ
مِنَ الشُّرْكِ وَالضَّلَالِ . وَلَكِنَّهُ أَبْقَاكُمْ رَحْمَةً لَكُمْ ، إِنَّمَا تَوَعَّدُونَ ، مِنْ مَجِيءِ السَّاعَةِ
وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْحِشْرِ لِلْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ « لَأَتَّ ، لَا مَحَالَةَ ، وَمَا أَنْتُمْ
بِمُعْجِزِينَ ، أَي فَاتِمِينَ عَذَابَنَا « قُلْ ، يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ « يَا قَوْمِ
اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ، أَي حَالَتِكُمْ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا « إِنِّي عَامِلٌ ، عَلَى حَالِي الَّتِي أَنَا
عَلَيْهَا ، وَالْمَعْنَى : اثْبَتُوا عَلَى كُفْرِكُمْ وَعَدَاوَتِكُمْ لِي فَإِنِّي ثَابِتٌ عَلَى الْإِسْلَامِ وَعَلَى
مَصَابِرَتِكُمْ ، وَالتَّهْدِيدُ بِصِيغَةِ الْأَمْرِ مِبَالِغَةٌ فِي الْوَعِيدِ « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ، غَدَا
فِي الْقِيَامَةِ ، مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، أَي الْعَاقِبَةُ الْمَحْمُودَةُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ
أَنْحَنُ أَمْ أَنْتُمْ « إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ ، أَي يَسْعُدُ ، الظَّالِمُونَ ، الْكَافِرُونَ .

١٢٦ - وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا
هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ
فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .

١٢٧ - وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ
شُرَكَاءَهُمْ لِيُرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ .

١٣٨ - وَقَالُوا هَذِهِ الْأَنْعَامُ وَحَرِّثُ حِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ
بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ
اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءَ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

١٣٩ - وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ
عَلَىٰ آزْرَجِنَا وَإِنْ يَكُن مِثَّةً مِنْهُمْ شُرَكَاءَ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفِهِمْ
إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

١٤٠ - قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا
مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا
مُهْتَدِينَ .

خمس آيات كريمة أخرى في الرد على المشركين ، وإبطال عقائدهم وعاداتهم
وشرائعهم . . . ففي الآية الأولى تنديد بما صنعوه من جعلهم لآلهتهم نصيبا مما
خلق الله من الحرث والأنعام ، وبيتهم الله عز وجل بهم بعد ذلك في جورهم
في حكومتهم وفي قسمتهم . . . وفي الآية الثانية يندد الله عز وجل بالمشركين
كذلك فيما كانوا يصنعون من قتل أولادهم ، وواد بناتهم ، مخافة الفقر
والإملاق ، وفي الآية الثالثة والرابعة كذلك تنديد بما صنعوه في الحرث
والأنعام افتراء على الله وشركائه . وفي الآية الخامسة بيان لخسرانهم وضلالتهم
البعيد في قتل أولادهم ، وفي بعض أحوالهم الأخرى . . . فالآيات الخمس كلها
هي في السخرية بالمشركين ، والتنديد بصنيعهم وإبطال كثير من عاداتهم
وتعاليدهم وشرائعهم الكاذبة المختلفة ، التي ضلوا بها وأضلوا عن سواء السبيل .
يقول الله عز وجل في هذه الآيات الخمس الكريمة . . . وجعلوا ، أي كفار

مكة ، الله ، بما ذرأ ، أى خلق ، من الحرث ، أى الزرع ، والأنعام نصيبا فقالوا
هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، وذلك أن المشركين كانوا يجعلون لله من
حرثهم وأنعامهم وثمارهم وسائر أموالهم نصيبا وللأوثان نصيبا ، فما جعلوه
لله صرفوه إلى الضيفان والمساكين وما جعلوه للأصنام أنفقوه على الأصنام
وخدمها ، فإن سقط شيء من نصيب الأوثان فيما جعلوه لله ردوه إلى الأوثان ،
وقالوا : إنها محتاجة ، وكان إذا هلك أو انتقص شيء مما جعلوه لله لم يبالوا به
وإذا هلك شيء مما جعلوه للأصنام وضعوا بدله مما جعلوه لله ، فذلك هو معنى
قوله تعالى ، فما كان لشركائهم ، أى ما جعلوه لها من الحرث والأنعام ، فلا
يصل إلى الله ، أى إلى جهته فلا يعطونه المساكين ولا ينفقونه على الضيفان
، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، وفي قوله تعالى : ، بما ذرأ ، تنبيه على
فرط جهالتهم فإنهم أشركوا الخالق في خلقه جهادا لا يقدر على شيء ثم
رجحوه عليه بأن جعلوا الزاكي له ، وفي قوله تعالى ، بزعمهم ، تنبيه على أن
ذلك مما اخترعوه ولم يأمرهم الله تعالى به ، ساء ، أى بش ، ما يحكمون ،
أى حكمهم هذا ، وكذلك ، أى ومثل ما زين لجميع المشركين تضييع أموالهم
والكفر بربهم شركاؤهم ، زين لكثير من المشركين قتل أولادهم ، خشية
الإملاق ، شركاؤهم ، من الجن أو من السدنة أى الخدمة ، ليردوهم ، أى
ليهلكوهم بذلك القتل الذى أمرهم به والإرداء فى اللغة الإهلاك ، وقال
ابن عباس : ليردوهم فى النار ، وليلبسوا ، أى وليخلطوا ، عليهم دينهم ، قال
ابن عباس : ليدخلوا عليهم الشك فى دينهم وكانوا على دين إبراهيم وإسماعيل
عليهما السلام فوضعوا لهم هذه الأصنام وزينوها لهم ، ولو شاء الله ، عصمة
هؤلاء من ذلك القبيح الذى زين لهم ، ما فعلوه ، لجميع الأشياء بمشيئته وإرادته
، فذرهم ، أى اتركهم يا محمد ، وما يفترون ، أى وما يخلقون من الكذب
على الله فإن الله لهم بالمرصاد ، وفى ذلك تهديد لهم ، وقالوا ، أى المشركون سفها
وجهلا ، هذه ، إشارة إلى جزء من أموالهم عينوها لألهتهم ، أنعام وحرث
حجر ، أى حرام محجور عليها لا يصل أحد إليها ، لا يطعمها ، أى لا يأكل

منها ، إلا من نشاء ، أى من خدمة الأوثان والرجال دون النساء ، بزعمهم ،
أى لا حجة لهم فيه ، وأنعام حرمت ظهورها ، فلا يركبونها كالبحائر
والسواحب والحوامى ، وأنعام لا يذكر اسم الله عليها ، أى عند ذبحها ،
وإما كانوا يذكرون عليها اسم الأصنام ، وقيل : لا يحجون عليها ولا يركبونها
افعل خير ، لأن العادة لما جرت بذكر الله على الخير ذم هؤلاء على ترك فعل
الخير ونسبوا ما فعلوه إلى الله تعالى ، افتراء عليه ، أى اختلاقا وكذبا أنه
أمرهم بها ، سيجزيهم ، أى بوعده صادق لا خلف فيه ، بما ، أى بسبب
ما ، كانوا يفترون وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام ، وهى البحائر والسواحب
، خالصة لذكورنا ، أى خاصة بهم دون الإناث كما قال تعالى ، ومحرم على
أزواجنا ، أى النساء ، وحذف الهاء من (محرم) إما حملا على اللفظ أو تخفيفا ،
لأن المراد بخالصة المبالغة ، وإن يكن ، أى ما فى بطونها ، ميتة فهم فيه شركاء ،
أى الذكور والإناث فيه سواء ، أى إن ما ولد منها حيا فهو للذكور دون الإناث
وما ولد منها ميتا أكله الذكور والإناث جميعا ، سيجزيهم ، الله ، وصفهم ،
أى سيكافئهم على وصفهم بالكذب على الله بالتحليل والتحريم ، إنه ، أى الله
، حكيم ، فى صنعه ، عليم ، بخلقهم ، قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها ، أى
جهلا ، بغير علم ، نزلت فى ربيعة ومضر وبعض العرب من غيرهم كانوا
يدفنون البنات أحياء مخافة السبي والفقر ، وكان بنو كنانة لا يفعلون ذلك ،
وكان هؤلاء الوائدين قد نسوا أن الله هو رازق أولادهم لا هم ، لأن الجهل
كان غالبا عليهم قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا سموا جاهليين ،
وسبب هذا الخسران أن الولد نعمة عظيمة ، أنعم الله تعالى بها على الوالد ، فاذا
تسبب فى ضياع هذه النعمة وإبطالها فقد استوجب الدم وخسر فى الدنيا
والآخرة : أما خسارته فى الدنيا فقد سعى فى نقص عدده وإزالة ما أنعم الله
تعالى به عليه ، وأما خسارته فى الآخرة فقد استوجب بذلك العذاب العظيم
، وحرموا ما رزقهم الله ، وتفضل به عليهم رحمة لهم من تلك الأنعام
والغلات بغير شرع ولا تقع بوجه من الوجوه فى موضعها ، افتراء ، أى كذبا

وتعمدا للكذب والبهتان ، على الله ، والجرأة على الله والكذب عليه من أعظم الذنوب والكبائر ، ولهذا قال تعالى ، قد ضلوا ، أى فى فعلهم ، وبعثوا عن الحق والرشاد ، وما كانوا مهتدين ، إلى طريق الحق والصواب فى فعلهم ، روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة فى سورة الأنعام ، قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها ، إلى قوله ، وما كانوا مهتدين ، ، وروى عن مهدي بن ميمون أنه قال : سمعت رجلا من الجاهلية يقول : كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجرا أحسن منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، وإذا لم نجد حجرا جمعنا حفنة من تراب ثم جئنا بالشاة فخلبنا عليه ثم طفنا به فإذا جاء شهر رجب فكنا متصل الأسنة فلا ندع ربحا فيه حديدة ولا سهما فيه حديدة إلا نزعناه فألقيناه فى شهر رجب .

وهذه هى نهاية الربع الثانى من هذا الجزء الكريم . . وقد تضمن هذا الربع أصولا جلية فلنخصها فيما يلى :

١ - للمؤمنين والذين يتذكرون الله وشريعته دار السلام عند الله فى الآخرة ، وهو وإيهم وناصرهم ، وهم المشمولون برعايته دائما بسبب ما عملوا من خير ، وما قدموا من صالحات .

٢ - إن جميع البشر الضالين منهم وغير الضالين سيقفون أمام الله للحساب ، فللمهتدين الخير والثواب كما سبق ، وللضالين العذاب والعقاب وسوء المصير ، سواء منهم شياطين الإنس الذين ضلوا عن سواء السبيل أم شياطين الجن الذين أضلوا ، واستكثروا من الأتباع ، ووسوسوا للغاوين فازدادوا غيا ، وللحائرين فوقعوا فى الضلال .. والله عز وجل قد قدم لهم سبب الهداية فكان بانصرافهم عنه سبب عذاب ، بعث لهم الرسل ، وأنزل عليهم الآيات ، وأنذرهم لقاء يوم الآخرة .. ومع ذلك فقد غرتهم الحياة الدنيا ، واستهوتهم الشياطين ، وضلوا عن السبيل المستقيم ، فهلكوا وباءوا بالإثم والذنب

والبهتان العظيم ؛ والله عز وجل لا يعاقب الأمم والشعوب إلا وهي تستحق هذا العقاب ، ولا يرميها بالمحن والأحداث وسوء المنقلب إلا وقد بدلت من آيات الله ، وانصرفت عن تعاليم السماء ، وغوت وباءت بسوء المنقلب ، إنه لا يعاقبها ظالماً لها ، ولا في غفلة من أهلها ، ولكن يعاقبها حين تقع في الذنوب ، وتصير على الأخطاء ، وكذلك هو لا يرفع الأمم ويعزها إلا حين تتوب إلى الله ، وتفهم الحياة فمما صحيحاً ، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال .

٣ - تهديد للمشركين من أهل مكة خاصة ومن العرب وغيرهم عامة ؛ تهديدهم بما وقفوا في سبيل دعوة الإسلام ، وبما أسرفوا على أنفسهم ، وبما قاموا من تعاليم السماء ، فلو شاء الله لأذهب هؤلاء المشركين واستخلف غيرهم قوماً آخرين صالحين ، فقدرته التي أوجدت هؤلاء المشركين ومكنت لهم ، وجعلتهم أمة جاءت بعد أمم كثيرة ؛ هي التي تقدر على إهلاكهم ، وعلى أن يحيى بعدهم غيرهم ممن يصلحون للاستخلاف في الأرض . وتهديد لهم بأنهم لا بد أن ينالهم وعد الله ووعديه ، لأنهم لا يعجزون الله في الأرض ولا في السماء ، والذين سوف تكون لهم عاقبة الدار هم الصالحون الأخيار ، وإن يفلح الظالمون أبداً .

٤ - التنديد بالمشركين فيما افتروه على الله وفيما زعموه من أوهام وأكاذيب ، وفيما اتخذوه من نسك ومشاعر وعادات ، وجعلهم لشركائهم نصيباً مما خلق الله ، ووآدم أولادهم وبناتهم مخافة الفقر والعار ، وهذا هو الضلال العظيم ، والبهتان الكبير . إن هذا الربع والربع الذي سبق مثل من أمثلة دفاع القرآن الكريم في هذه السورة عن عقيدة التوحيد ، ومن أمثلة نقض القرآن لعقيدة الشرك ، وإبطال مزاعم المشركين وترهاتهم وأوهامهم وأباطيلهم . لإثبات أن الإسلام دين الحق والخير وشريعة السماء المنزلة على

(٣ - تفسير القرآن لخواجی ٨)

محمد صلى الله عليه وسلم ، والإسلام هو دين الإنسانية ، وشريعة الإخاء والتوحيد والعدل والحرية ، وهو النور الوهاج الذى لا تقاومه ظلمات الشرك ، والمنازة الشياء التى لا يصل إليها باطل المشركين ، وهو الدين الذى شهد له الله والملائكة فى السماء ، وشهد له المنصفون والعقلاء من الناس فى الأرض ؛ وهو الدين الذى تتلاشى أمامه أكاذيب الأديان الأخرى وأوهامها وترهاتها وخرافاتها وبدعها ، وقد وقف علماء أوروبا وفلاسفتها ومفكروها أمام الإسلام وعظمة القرآن صاغرين أذلاء . كما وقف أمامهما مفكرو الشرق من غير المسلمين معجبين مشدوهين كذلك ؛ يقول كابن ييلر فى خطاب جامع ألقاه بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٨٨٧ ما نصه : « إن الإسلام قد سبق النصرانية بمراحل شاسعة ، فإن النصرانية فى بعض الجهات أخذت فى التقهقر إلى الوراء أمام الدين الإسلامى ، فى حين أن الوسائل التى تستعملها لتنصير الأمم الإسلامية يفشل أمرها ، والشباك التى تنصبها لهم تنقطع حبالها . والدين الإسلامى يمتد الآن من مراكش إلى يافا ، ومن زنجبار إلى الصين ، ويخطو فى داخل إفريقيا خطوات كبيرة ، وتعتقه أمم كثيرة . وقد خطا بنفسه وثبت قدمه فى إفريقيا وآسيا ، وهو من غير شك ينشر الإخاء والمساواة . »

وقال اللورد ستانلى وقد سئل : لم أسلمت وقد كنت مغرقاً فى نصرانيتك ؟ : « أو أعطى الفضل أهله ، أو أجدد الله وعلمه . أنا مسلم ، رأيت أثر الإسلام وقدرته فى نفسى حق قدره . وهو عندى عزيز ، لأنى رأيت الفرق بينه وبين الأديان المنسوخة ، ولأنى رضيت به بعد بحث وإجهد ، فلا أقبل به بديلاً . أنا مسلم ، أهزأ بكل ما يحيط بى من مظاهر المدنية ، فصحيحها الحق من كتاب الله وقرآنه ، وباطلها المذاع لا يلبث أن تبرهن الأيام على بطلانه . . . » وقال توماس كارليل : « ما كاد الإسلام يظهر حتى احترقت فيه وثنيات العرب ، وجدليات النصرانية ، وكل ما لم يكن بحق ، كأنه حطب جاف أكلته نار الإسلام فذهب والنار لم تذهب . . . ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحيا به منها أمة خاملة ، وأرضا هامدة ، لا يسمع لها صوت ولا تحس

فيها حركة ، منذ بدء العالم ، فأرسل الله لهم نبياً بكلمة من لدنه ، ورسالة من قبله ، فإذا الخنول شهرة ، والغموض قد استحال نباهة ، والضعفة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقاً.. وسع نوره الانحاء ، وعم ضوؤه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب ، والمشرق بالمغرب . وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث ، حتى صار لدولة العرب رجل في الهند ، ورجل في الأندلس ، وشرقت دولة الإسلام حقبا عديدة ، ودهورا مديدة ، بنور الفضل والنبيل ، والمروءة والبأس والنجدة ، وروثق الحق والهدى على نصف المعمورة .

وقال اللورد هدى : « إن في انجلترا ألوفا من الأفراد المثقفين ، وهم مسلمون في قلوبهم ، وإن لم يعلنوا ذلك جهاراً ، وقد شرحت لكثير منهم ماهية الإسلام فكانوا يجيبونني : إذا كان هذا هو دينك فإنا إذن مسلمون لأن هذا ما نعتقده وما نسكر فيه ، ويقول فارس الخورى : « إن محمداً أعظم عظماء العالم ، ولم يجد الدهر بعد بمثله ، والدين الذي جاء به أولى الأديان وأتمها وأكملها . وإن محمداً أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة عليية واجتماعية وتشريعية ، ولم يستطع علماء القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل الرسالة والشريعة التي دعا الناس إليها باسم الله ، وبأنها متفقة مع العلم ، مطابقة لأرقى النظم والحقائق العلية . إن محمداً عليه الصلاة والسلام ، أعظم عظماء الأرض كافة ، فلقد استطاع توحيد العرب بعد شتاتهم ، وأنشأ منهم أمة موحدة فتحت العالم المعروف يومئذ ، وجاء لها بأعظم ديانة عينت للناس حقوقهم وواجباتهم وأصول تعاملهم على أسس تعد من أرقى دساتير العالم وأكملها ، . . إلى غير ذلك ، من آراء المفكرين ، في الغرب والشرق ، مما تركنا الإشارة إليه وما سييجيء بعضه ، وهي كلها شهادات ناطقة ، بجلال الإسلام ، وعظمة مبادئه ، وسمو أهدافه ، واعترافه بحقوق الإنسان ، وبحرمات الشعوب ، وإنقاذه للإنسانية من براثن الجهل والخوف والاضطراب والظلام .. وقد حل جول لا يوم حالة العالم قبل ظهور الإسلام ، في القرن السادس ، ووصف النور الذي انبعث من الصحراء فقال : كان جو العالم الأرضي متلبداً بسبب الاضطرابات

الوحشية في كل جهة ، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير . وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم ضيحة في إصلاح نيران الحروب والمعارك ، ولم يكن يدفع الناس شيء إلا الغنيمة وسلب الأمان والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحرب وفقراء الحراثين وبسطاء المتسولين . ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق في بعض صوامع الكهنة ، وبعض الجرائم الفلسفية التي كانت بعزل عن أعاصير تلك المشاغب ، وانتقلت من روح أخرى بواسطة بعض أصحاب الجسارة من رسل الترقى في المستقبل ، لكانت البربرية أسرع في خطرها مقودة بغطرسة زعماء الهيبة ، واستحالت إلى وحشية محضة . مع هذا كله كان هناك ركن من أركان الأرض لم يصبه لفحة من هذه الحركة ، ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم ، بل بسبب موقعهم الجغرافي البعيد عن مضطرب الأمم التي كان يقال إنها متمدنة : ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التي ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة في أوروبا إلا عن بعد ، وما كان يصلها ذلك اللفظ إلا في غاية الضعف والضوالة ، وكانت تجمل وجود الهند والصين ، فإن علاقاتها مع آسيا لم تكن تتعدى حدود بلاد الفرس ، ولم تعرف لديها الفرس إلا بواسطة أخبار الانتصارات أو الهزائم التي كان من ورائها رد بعض الوديان العربية القريبة من الفرس إلى تبعية امبراطور القسطنطينية تبعية إسمية ؛ أو رفع نير تلك التبعية الإسمية عنها . على أن ذلك الوادي الأخير كان يهيم بلاد العرب جداً ، لأن أبناءها كانوا يذهبون إليه للتجارة ، وكان لها فيه أبناء استعمروا الشاطئ الغربي من نهر الفرات ، وصعدوا رويداً رويداً إلى بحر قزوين . وما يشبه المسابير الدينية أنها بقيت منفصلة عن القطر المصري ، الذي أغار على جنوبه العرب الرعاة ، ولم يتجلبوا عنه تماماً إلا بعد أن انجلي عنه بعض إخوانه المتأخرين ، وهم الإسرائيليون تحت قيادة موسى عليه السلام ، حينما استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم . أما المملكة الوحيدة التي كان بينها

وبين العرب صلة أو علاقة ، فهي بلاد الحبشة ، أما الجهة الشمالية من أفريقيا التي أغاروا عليها مرتين ، والتي كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجنيين وبين يونان القسطنطينية والفتناليين ، فكانوا لا يحملون بوجودها - ويقول كوسان دوبر سوكال في كتاب تاريخ العرب : « إن المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسيين ، أما المتبدون منهم فكانوا في الحقيقة أحرارا لا سلطة عليهم ، وكان عرب سوريا دائنين للرومان . أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة وهم ملوك بني حمير سيادة وقتية ، فكانت تعتبر أنها تحت سيادة ملوك الفرس ، ولكنها في الحقيقة كانت متمتعة بالاستقلال التام الذي لا غبار عليه . » ثم قال لا بوم : « ولم يكن العرب أحسن استعدادا من غيرهم لقبول أي دين من الأديان ، . يقول دوزي في مؤلفه تاريخ عرب أسبانيا : « كان يوجد على عهد محمد في بلاد العرب ثلاث ديانات : الموسوية . والعيسوية . والوثنية ، فكان اليهود من بين أتباع هذه الأديان أشد الناس تمسكا بدينهم وأكثرهم حقدا على مخالفين ملتهم ، نعم ينذر أن تصادف اضطهادات دينية في تاريخ العرب الأقدمين ، ولكن ما وجد فنسب إلى اليهود وحدهم . أما النصرانية فلم يكن لها أتباع كثيرون ، وكان المتذهبون بها لا يعرفونها إلا معرفة سطحية ، وكانت هذه الديانات تحتوي على كثير من الخوارق والأسرار ، حيث يعز أن تسود على شعب حسي كثير الاستهزاء . »

« أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الأعظم من الأمة ، والذين كان لكل قبيلة بل أسرة منهم آلهة خاصة ، والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ويعتبرون تلك الآلهة شفعا لديهم ، فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم ، وكانت طبائع العرب وأخلاقهم لا تدل الناظر إليها إلا على أنهم شعب لم يكادوا يجوزون العقبة الأولى من عقبات الاجتماع ، لو لم تكن الأسرة عندهم بل القبيلة أيضا تهتم اهتماما عظيما بحفظ سلسلة نسبها ، ولو لم يكن - وهو أمر أغرب من سابقة - إدراكهم للقوانين ونسبة لغتهم من جهة أخرى داعيا إلى

الالتفات بنوع أخص . . وشتان بين هذا وبين ما بلغوه من حضارة وشأو
في الإسلام وبعد ظهور الإسلام .

الربع الثالث

١٤١ - وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ
وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ
مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ
وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

١٤٢ - وَمِنَ الْآنَعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُوا مِنْهَا رِزْقَكُمْ اللَّهُ وَلَا
تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

١٤٣ - ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ قُلْ
الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أُمُّ الْأَثْنَيْنِ أَمَا اسْتَمَلْتُمْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ
الْأَثْنَيْنِ نَبَوِّنِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

١٤٤ - وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ
أُمُّ الْأَثْنَيْنِ أَمَا اسْتَمَلْتُمْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَثْنَيْنِ أَمْ
أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن
أَقْرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ اللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

١٤٥ - قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ
إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خنزيرٍ فَإِنَّهُ

رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أَهْلًا لِنَفِيرٍ إِنَّ اللَّهَ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ
وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

١٤٦ - وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالنَّعَمِ
حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا
أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ
وَإِنَّا لَصَادِقُونَ .

١٤٧ - فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ
عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ .

هذه الآيات السبع هي مفتاح الربع الثالث من هذا الجزء الكريم ، وهي في التدليل على وجود الله بذكر مظاهر قدرته في الأرض ، ونعمته على الناس ، وفي تسفيه عقول المشركين ، وتكذيبهم في افتراءاتهم على الله ، وفي نفي ما زعموه من تحليل وتحريم مما نسبوه إلى الله عز وجل ، والله عز وجل منه برى ، ومنهم براء ، وفي تهديد المشركين وإنذارهم بالعذاب الشديد والبأس الأليم .. يقول الله عز وجل في هذه الآيات السبع الكريمة . . . وهو الذي أنشأ ، أي خلق ، جنات ، أي بساتين ، معروشات ، أي مبسوطات على الأرض كالبطيخ والخيار والطماطم وغيره ، وغير معروشات ، بأن ارتفعت على ساق كالنخل وشجر الرمان ؛ وقال الضحاك : كلاهما في شجر الكرم خاصة ، لأن منه ما يعرش بأن يبقى على وجه الأرض منبسطاً ، ومنه ما لم يعرش بأن يرتفع على ساق ، وقيل : المعروشات ما عرشه الناس في البساتين واهتموا به فعرشوه من كرم وغيره وغير المعروشات هو ما أنبته الله تعالى في البراري والجبال من كرم أو شجر ، و ، أنشأ ، النخل والزرع مختلفاً أكله ، أي ثمره وحبه في الهيئة والطعم ، فمنها الخلو والحامض والجيد والردى ،

والضمير في (أكله) للزرع ، والباقي محمول بالقياس عليه ، أو للنخل والزرع داخل في حكمه لكونه معطوفا عليه ، أو للجميع على تقدير كل ذلك أو كل واحد منها ، والزيتون والرمان متشابهان ، أي في المذاق ، وغير متشابه ، أي في الطعم وقيل : متشابهين في المنظر مختلفين في الطعم ، ولما ذكر الله تعالى ما أنعم به على عباده من خلق هذه الجنات المحتوية على أنواع الثمار ذكر ما هو المقصود الأصلي وهو الانتفاع بها ، فقال تعالى : «كلوا من ثمره ، أي ثمر كل واحد من ذلك ، إذا أثمر ، أي حين استوائه ونضجه وظهور خصائص طعمه ، وهذا أمر إباحة ، وآتوا حقه يوم حصاده ، الأمر هنا للرجوب ، والآية مدنية ، والحق هو الزكاة المفروضة والأمر بإتيانها يوم الحصاد لبعث اهتمام المسلم بأداء هذا الحق حتى لا يؤخره عن أول وقت يمكن فيه أن يؤدي هذا الحق ، وقيل : الآية مكية والزكاة إنما فرضت بالمدينة ، فالحق هو ما كان يتصدق به على المساكين يوم الحصاد ، وكان ذلك واجبا حتى نسخته تشريع الزكاة ، ولا تسرفوا ، أي بإعطائه كله فلا يبقى لعيالكم شيء ، روى أن ثابت بن قيس صرم خمسمائة نخلة وقسم ثمرها كله في يوم واحد ولم يترك لأهله شيئا فنزلت ، إنه لا يجب المسرفين ، أي المتجاوزين ما حد لهم ، وفي ذلك وعيد وزجر عن الإسراف في كل شيء ، قال مجاهد : الإسراف ما قصرت به عن حق الله تعالى ، وقال : لو كان أبو قبيس ذهبا لرجل أنفقه في طاعته لم يكن مسرفا ولو أنفق درهما أو مدا في معصيته كان مسرفا . «ومن الأنعام ، عطف على جنات أي وأنشأ من الأنعام ، حمولة ، أي صالحة للحمل عليها كالإبل الكبار والبغال ، وفرشا ، أي لا تصلح للحمل كالإبل الصغار والغنم ، سميت فرشا لأنها كالفرش للأرض لدنوها منها ، وقيل : الفرش ما ينسج من وبرها وصوفها وشعرها ، كلوا مما رزقكم الله ، أي بما أحله لكم من هذه الأنعام والحراث ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، أي طرقه في التحليل والتحريم من عند أنفسكم كما فعل أهل الجاهلية ، إنه ، أي الشيطان ، لكم عدو مبين ، أي بين العداوة ، ثمانية أزواج ، أي أصناف بدل من حمولة وفرشا ، والزواج

لغة الفرد إذا كان معه آخر من جنسه لا ينفك عنه فيطلق لفظ الزوج على الواحد كما يطلق على الإثنين فيقال للذكر زوج وللأنثى زوج ، من الضأن ، زوجين اثنين أى ذكر وأنثى والضأن ذوات الصوف من الغنم ، ومن المعز ، زوجين ، اثنين ، أى ذكر وأنثى ، والمعز هى ذوات الشعر من الغنم ، قل ، يا محمد لمن حرم ذكور الأنعام مرة وإناتها أخرى وأولادها كيف ما كانت ذكورا وإناثا أو مختلطة تارة ونسبوا ذلك لله ، الذكركين ، من الضأن والمعز ، حرم ، الله عليكم ، أم الأثنين ، منهما ، أما ، أى أم حرم ما ، اشتملت ، أى انضمت ، عليه أرحام الأثنين ، ذكرا كان أو أنثى ، نبشوقى ، أى أخبرونى ، بعلم ، عن كيفية ذلك بأمر معلوم من جهة الله تعالى على تحريم ما حرمتهم ، إن كنتم صادقين ، فى دعواكم ، والاستفهام الإنكار ، والمعنى : من أين جاء التحريم فإن كان من قبل الذكورة فجميع الذكور حرام ، وإن كان من قبل الأنوثة فجميع الإناث حرام ، أو من قبل اشتغال الرحم فالزوجان حرام ، فمن أين جاء لكم هذا التخصيص ، ومن الإبل اثنين ، ذكرا وأنثى ، ومن البقر اثنين ، كذلك ، قل ، يا محمد لهؤلاء الذين اختلفوا جهلا وسفها ، الذكركين حرم ، الله عليكما ، أم الإثنين ، منهما ، أما ، أى أم حرام ما ، اشتملت ، أى انضمت ، عليه أرحام الأثنين ، ذكرا كان أو أنثى ، أم كنتم ، أى بل أكنتم ، شهداء ، أى حاضرين ، إذ وصاكم الله بهذا ، أى حين وصاكم بهذا التحريم إذ أنتم لا تؤمنون بنبي فلا طريق لكم إلى معرفة أمثال ذلك إلا بالمشاهدة والسماع ، فكيف تثبتون هذه الأحكام وتنسبونها إلى الله تعالى ، ولما احتج عليهم بهذه الحجة وبين أنه لا سند لهم فى ذلك قال تعالى ، فمن ، أى لا أحد ، أظلم ممن افترى ، أى تعمد ، على الله كذبا ، كعمرو بن لحي فإنه أول من بخر البحائر وسبب السوائب وغير دين إبراهيم عليه السلام ، ويدخل فى هذا الوعيد كل من كان على طريقته أو ابتداء شيئا لم يأمر الله به ولا رسوله ، ونسب ذلك إلى الله تعالى لأن اللفظ عام فلا وجه للتخصيص ، فكل من أدخل فى دين الله ما ليس منه فهو داخل فى هذا الوعيد ، ليضل الناس بغير علم ، إن الله لا يهدى القوم

الظالمين، أى لا يرشد ولا يوفق من كذب عليه وأضاف إليه مالم يشرع لعباده ..
ولما بين سبحانه وتعالى فساد طريقة أهل الجاهلية وما كانوا عليه من التحريم
والتحليل من عند أنفسهم واتباع أهوائهم فيما أحلوه وحرموه من المطعومات،
أتبعه بالبيان الصحيح فى ذلك ، وبين أن التحريم والتحليل لا يكون إلا بوحي
سماوى ورسالة نبوية فقال تعالى « قل ، يا محمد ، لا أجد فيما أوحى إلى محرما ،
أى طعاما محرما بما حرمتوه ، على طاعم ، أى طاعم كان من ذكر أو أنثى
، يطعمه ، أى يتناوله أكلا أو شربا أو دواء أو غير ذلك ، إلا أن يكون ، أى
ذلك الطعام ، ميتة ، وهى كل ما زالت حياته بغير ذكاة شرعية ، أو دما مسفوحا ،
أى مصوبا كالدم فى العرق لا كالكبدة والطحال ، أو لحم خنزير فإنه ، أى
الخنزير ، رجس ، أى نجس والضمير فى (فإنه) يعود على المضاف إليه . وفى الآية
دلالة على نجاسة الخنزير وهو حى ، فلهمة وكذا سائر أجزائه بطريق الأولى
، أو فسقا أهل لغير الله به ، أى ذبح على اسم غيره ، وظاهر الآية أن المحرمات
محصورة فى هذه الأربعة وأنه لا يحرم شىء من سائر المطعومات والحيوانات
غيرها ، وهى الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما ذبح على غير اسم الله
تعالى ؛ ويروى ذلك عن ابن عباس وعائشة وسعيد بن جبير رضى الله تعالى
عنهم لأنه ثبت أنه لا طريق إلى معرفة المحرمات إلا بوحي ، وثبت أن الله
تعالى نص فى هذه الآية على هذه الأربعة الأشياء ، وقال تعالى فى سورة البقرة
« إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، وإنما تقيد القصر
فصارت هذه الآية المدنية مطابقة للآية المسكية فى الحكم .. ولكن الذى ذهب
إليه جمهور العلماء أن التحريم لا يختص بهذه فقط بل المحرم ما كان بنص كتاب
أو سنة ، وقد وردت السنة بتحريم أشياء غير ذلك منها تحريم الجمر الأهلية
وكل ذى ناب من السباع أو مخلب من الطيور ، وورد النهى عن أكل الهر ..
ولما حرم الله تعالى هذه الأشياء أباح أكلها عند الاضطرار بقوله تعالى « فمن
أضطر ، أى حصل له جوع خشى منه التلف ، غير باغ ، أى غير مضطر
، ولا عاد ، أى ولا متجاوز قدر الضرورة ، فإن ربك غفور ، لا يؤاخذ

بالأكل ، رحيم ، به حيث أباح له ذلك ، وعلى الذين هادوا ، أى اليهود علم على قوم موسى عليه السلام ، وسموا به اشتقاقاً من هادوا أى مالوا إما عن عبادة العجل وإما عن دين موسى عليه السلام ، أو من هاد إذا رجع من خير إلى شر أو من شر إلى خير لكثرة انتقالمهم من مذاهبهم ، وقيل : لأنهم يهودون أى يتحركون عند قراءة التوراة ، وقيل معرب من يهوذا بن يعقوب ثم نسب إليه قبيل يهودى ثم حذفت الياء فى الجمع قبيل يهود ، حرمانا ، أى بسبب ظلمهم حرمانا عليهم ، كل ذى ظفر ، أى ما هو كالأصبع للدابة والطير ، وكان بعض ذوات الظفر حلالاً لهم فلما ظلموا حرم عليهم ، فعم التحريم كل ذى ظفر بدليل قوله تعالى ، فبظلم من الذين هادوا حرمانا عليهم طيبات أحلت لهم ، ومن البقر والغنم حرمانا عليهم شحومهما ، المراد شحم الجوف ، إلا ما حملت ظهورهما ، أى إلا ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما ، أو الحوايا ، أى ما حملته الحوايا وهى الأمعاء التى هى متعاطفة ملوية جمع حورية ، وما اختلط ، أى من الشحوم ، بعظم ، مثل شحم العجز فإن ذلك لا يحرم عليهم ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال عام الفتح وهو بمكة : إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام ، فقيل : يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها تطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس ؟ فقال : لا هو حرام أى بيعها ، قال صلى الله عليه وسلم عند ذلك : قاتل الله اليهود ، إن الله تعالى لما حرم عليهم شحومها أجملوه أى أذابوه ثم باعوه واكلوا منه ، ذلك ، أى التحريم العظيم وهو تحريم الطيبات ، جزيناهم بغيهم ، أى بسبب مجاوزتهم الحدود ، وإنا لصادقون ، أى فى الإخبار عما حرمانا عليهم وعن بغيهم ، فإن كذبوك ، أى اليهود يا محمد فيما أخبرناك به عنهم فقل لهم ، ربكم ذو رحمة واسعة ، أى بتأخير العذاب عنكم فلم يعاجلكم العقوبة فى ذلك تلطفاً بدعائهم إلى الإيمان ، ولا يرد بأسه ، أى عقابه ، عن القوم المجرمين ، إذا جاء وقت ، وقيل : ذو رحمة واسعة للطيبين وذو بأس شديد للجرمين .

- ١٤٨ - سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا
ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ
فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ
١٤٩ - قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمِينَ .
١٥٠ - قُلْ هَلْ مِنْكُمْ شَيْدَاءُ كُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ
شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ
يَعْدُونَ .

في هذه الآيات الثلاث تمكّم بالمشركين ورد عليهم ، وتسجيل لاقترايمهم ،
ونقض لما زعموه من التحليل والتحرير افتراء على الله . وفيها من الحجّة
البالغة ، والإقناع المصيب ، والمنطق الصائب ، ما فيها ، والله الحجّة البالغة . .
يقول الله تعالى في هذه الآيات الثلاث الكريمة التي هي ختام الربع الثالث
من هذا الجزء الكريم : سيقول الذين أشركوا ، إخبار عن مستقبل ، ووقوع
هذا الخبر يدل على إعجاز القرآن وصدقته ، ولما لزمتمهم الحجّة وتيقنوا بطلان
ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحرير ما لم يحرمه الله قالوا : لو شاء الله
ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ، أرادوا أن يجعلوا قولهم ، لو شاء
الله ما أشركنا ، حجة لهم على إقامتهم على الشرك ، وقالوا : إن الله قادر على أن
يحول بيننا وبين ما نحن فيه حتى لا نفعله فلولا أنه رضى ما نحن فيه وأراده
منا وأمرنا به لحال بيننا وبين ذلك ، فقال الله تعالى : تكذبا لهم ، كذلك
كذب الذين من قبلهم ، من كفار الأمم الخالية ومشركيها ، حتى ذاقوا بأسنا ،
أى عذابنا ، ويستدل أهل القدر بهذه الآية يقولون إنهم لما قالوا : لو شاء

الله ما أشركنا ، كذبهم الله ورد عليهم فقال : « كذلك كذب الذين من قبلهم .
وأجاب أهل السنة بأن التكذيب ليس في قوله ، لو شاء الله ما أشركنا ، بل
ذلك القول صدق ولكن في قولهم : إن الله أمرنا بها ورضى ما نحن عليه كما
أخبر تعالى عنهم في سورة الأعراف ، وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها
آباءنا والله أمرنا بها ، فالرد عليهم في هذا كما قال تعالى : « قل إن الله لا يأمر
بالفحشاء » ، والدليل على أن التكذيب ورد في قولهم ، والله أمرنا بها ،
لا في قولهم ، لو شاء الله ما أشركنا ، هو قوله تعالى : « كذب الذين من قبلهم ،
بالتشديد ، ولو كان كذلك ، خبراً من الله عن كذبهم في قوله ، لو شاء الله
ما أشركنا ، لقال « كذب الذين من قبلهم ، بالتخفيف ، وكان قد نسبهم إلى الكذب
لا إلى التكذيب ، وقال الحسين بن الفضل : لو ذكروا هذه المقالة تعظيماً وإجلالاً
لله تعالى ومعرفة منهم لما عابهم بذلك ، لأن الله تعالى قال : « ولو شاء الله ما أشركوا ،
وقال تعالى : « وما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله » ، والمؤمنون يقولون ذلك ،
ولكن المشركين قالوا ذلك تكديباً وتحريضاً وجدلاً من غير معرفة بالله
وبما يقولون ، ونظيره قوله تعالى : « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم » ، قال
الله تعالى : « ما لهم بذلك من علم إن هم إلا بخرصون ، وقد علم من ذلك أن
أمر الله تعالى هو غير مشيئته وإرادته ، فالله تعالى يريد لجميع الكائنات غير
أمر بجميع ما يريد ، وعلى العبد أن يتبع أمره ، وليس له أن يتعلق بمشيئته ،
فإن مشيئته لا تكون عذراً لأحد » قل ، يا محمد طهؤلاء المشركين القائلين ما ذكر
« هل عندكم ، أي أيها الجملة ، من علم ، أي من أمر معلوم يصح الاحتجاج
به على ما زعمتم من تحريم ما حرمته وأن الله راض بشرككم » فتخرجوه لنا ،
أي فتظهروه لنا وتبينوه لنا كما بينا لكم خطاكم » إن ، أي ما ، تتبعون ،
في ذلك » إلا الظن ، أي فيما أتم عليه ولا علم عندكم » وإن أتم إلا تخرصون ،
أي وما أتم في ذلك كله إلا تكذبون وتقولون على الله الباطل » قل ، لهم
حين عجزوا عن إظهار الحجة ، فله الحجة البالغة ، أي التامة على خلقه بإنزال
الكتب وإرسال الرسل ، قال الربيع بن أنس : لا حجة لأحد عصى الله

وأشرك به على الله ولكن الله الخجة البالغة على عباده ، فلو شاء ، الله هدايتكم
« لهداكم أجمعين ، ولسكنه لم يشأ ذلك بل شاء هداية بعض ، وضلالة بعض
آخر ، فوقع ذلك على الوجه الذي شاء لا يسأل عما يفعل » قل ، لهم « هلم ،
أى احضروا » شهداءكم الذين يشهدون ، لكم « إن الله حرم هذا ، أى ما تقدم
من تحريمهم الأشياء على أنفسهم ودعواهم إن الله أمرهم به ؛ و(هلم) اسم فعل
لا ينصرف يستوى فيه الواحد والإثنان والجمع والمذكر والمؤنث عند
الحجازيين ، وعند بني تميم فعل يؤنث ويثنى ويجمع « فإن شهدوا ، أى فإن
تعمدوا الشهادة كذبا » فلا تشهد معهم ، أى فاتركهم ولا تسلم لهم فإنهم على
ضلال وليست شهادتهم مستندة إلا على الهوى ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا
بآياتنا ، ووضع المظهر موضع المضمرة فقال : أهواء الذين كذبوا بآياتنا ،
ولم يقل « أهواءهم » للدلالة على أن الذى يكذب بالآيات إنما تتبع الهوى
لا غير وأن متبع الحجة لا يكون إلا مصدقا بها « و ، لا تتبع أهواء » الذين
لا يؤمنون بالآخرة ، التى هى دار الجزاء « وهم بربهم يعدلون ، أى يشركون
فيجعلون له عديلا .

• • •

وإلى هنا ينتهى الربع الثالث من هذا الجزء الكريم ، وقد تضمن من
الأصول والآراء ما يلى :

١ - التنويه بقدره الله العظيمة فى خلق النبات والفواكه ، والأمر بأداء
حقوق الله والفقراء فى الثمار والأنعام .

٢ - الرد على افتراءات المشركين فيما زعموه من التحليل والتحرير فى
الأنعام ، من الغنم والإبل والبقر .

٣ - تقرير المحرمات من الذبائح وهى الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير .

٤ - بيان ما حرم على اليهود ، وهو كل ذى ظفر ، وشحوم البقر والغنم
إلا ما استثنى ، والرد على افتراءاتهم فى هذا السبيل .

٥ - حجاج المشركين الذين يزعمون كاذبين أنهم هم وآباؤهم إنما أشركوا
بمشيئة الله ، وإنما حرموا ما حرموا بمشيئة الله ، والرد عليهم في ذلك بقوة ،
وبتدفق حجة ، وروعة منطق ، وأجل بيان .
إن هذا الربع هو مثل ما سبقه في حجاج الشرك ، والرد على المشركين ،
وفي تقرير عقيدة التوحيد .

١٥١ - قُلْ تَمَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي كُفْرًا بِآبَائِكُمْ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِه
شَيْئًا وَبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ
نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ
ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

١٥٢ - وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ
أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلَّفُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
وَبِعَهْدِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

١٥٣ - وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ
فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ .

هذه الآيات الثلاث من جوامع آيات القرآن الكريم ، ومن دلائل إعجازه
وهي في حكمة وبروعتها وبلاغتها في الذروة من آيات الإعجاز . . وهي كذلك
صريحة واضحة للإسلام في تعاليمه ومبادئه ومناهجه ، وفي أصوله وأفكاره ،

وفي خططه ونظامه .. إنها هي أصدق ما يقرؤه الإيمان في التعبير عن الإسلام وفي رسم صورة واضحة له ..

وهذه الآيات مع ما فيها من رد على المشركين في افتراءاتهم ، فيها كذلك بيان للحرمة على المسلم : من الشرك ، وقتل الأولاد ، وقربان الفواحش ، وقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق ، وقربان مال اليتيم ، وفيها كذلك بيان للأصول العامة لأوامر الإسلام : من الإحسان إلى الوالدين ، ومن الوفاء بالكيل والميزان بالقسط ، ومن وجوب العدل بين الناس ولو كان المتحاكم إليك ذا قرابة قريبة إليك ، ومن الوفاء بالعهد .. وهذه النواهي والأوامر هي أصول الإسلام وتعاليمه ومبادئه وحكمته ، وهي خلاصته وزبدته ، وهي كلها ترشد إلى اهتمام الإسلام بالمجتمع ، وتنظيمه له ، وأن شئون المجتمع ورعايتها هي في مقدمة ما يعنى به القرآن الكريم .. ويوضح الله عز وجل في الآية الثالثة أهمية هذه التعاليم ، فيؤكد أنها هي صراط الله المستقيم ، ودينه الواضح ، ويأمر باتباع هذا المنهج السليم ، والطريق القويم ؛ ويحذر من السير في غير هذا السبيل ، حتى لا تصد المسلمين عن دين الله ، ولا تتفرق بهم عن طريقه الحق القويم .. ويؤكد الله عز وجل أن هذه التعاليم هي وصية الله إلى المسلمين ، وأن اتباعه يورث التقوى ، ويكسب صفاء القلب وقوة العقيدة ، وفي ذلك ما غيه من الخير والفلاح للمسلمين في دنياهم وآخرتهم .. يقول الله عز وجل في هذه الآيات الثلاث الجامعة ، قل ، أي للمشركين « تعالوا ، أي أقبوا على » ، أتلى ، أي اقرأ « ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً ، وذلك أنهم سألوا وقالوا : ماذا حرم الله ؟ فأمر الله تعالى نبيه أن يبين لهم ذلك ، وقوله تعالى « حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به » ، يرد عليه أن المحرم هو الشرك لا ترك الشرك ، والجواب أن معناه حرم عليكم أن لا تشركوا و (لا) زائدة كقوله تعالى « ما منعك أن لا تسجد ، أي ما منعك أن تسجد ؟ وقيل : الكلام قد تم عند قوله « حرم ربكم » ، ثم قال تعالى : عليكم أن لا تشركوا به شيئاً على وجه الإغراء ، وقال الزجاج : يجوز أن يكون هذا محمولا على المعنى ،

أى أتى عليكم تحريم الشرك ، وجائز أن يكون على معنى أوصيكم أن لا تشركوا
« وبالوالدين إحسانا ، أى فأحسنوا بهم إحسانا ، وقد جاء الإحسان هنا وطلبه
في موضع النهي عن الإساءة إليهما للمبالغة ، وللدلالة على أن ترك الإساءة في
شأنهما غير كاف بخلاف غيرهما « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، أى من أجل
فقر تخافونه ، والمراد بالقتل وأد البنات وهن أحياء ، وكان بعض العرب
يفعل ذلك في الجاهلية فنهاهم الله تعالى عن ذلك وحرمة عليهم « نحن نرزقكم
وإياهم ، أى أن دعواكم مخافة الفقر مردودة عليكم ، لأن الله هو المتكفل
بالرزق لكم ولأولادكم واتم لا تستطيعون ان تفعلوا شيئا ، وفي هذا احتجاج
عليهم لأن الله تعالى إذ تكفل برزق الوالد والولد وجب على الوالد القيام
بحق الولد وتربيته والاتكال في أمر الرزق على الله ، ولا تقربوا الفواحش ،
أى سائر المعاصي « ما ظهر منها وما بطن ، أى علانيتها وسرها ؛ وقيل : المراد
الزنا علانيته وسره ، وكان أهل الجاهلية يستبجحون الزنا في العلانية ولا يرون
به بأساً في السر فحرم الله عز وجل الزنا في السر « ولا تقتلوا النفس التي حرم
الله ، عليكم قتلها « إلا بالحق ، وهى التي أبيح قتلها بسبب ردة أو قصاص أو
زنا بعد إحسان وهو الذى يوجب الرجم أو نحو ذلك ، قال النبي صلى الله
عليه وسلم : لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله
إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة
« ذلكم ، إشارة إلى ما ذكر مفصلاً « وصاكم به ، أى أمركم به وأوجه عليكم
« لعلمكم تعقلون ، أى تتدبرون ما فى هذه التكاليف من الفوائد والمنافع فإن
كمال العقل هو التدبر « ولا تقربوا مال اليتيم ، أى بأى نوع من أنواع أخذه
والعمل فيه وقربانه « إلا بالتي ، أى بالخصلة التي « هى أحسن ، بماله كحفظه
وتنميته وشميره « حتى يبلغ أشده ، أى ويستمر العمل فى مال اليتيم بالتي هى
أحسن حتى يبلغ سن الرشد وهو سن نضج عقله عادة ، وهو البلوغ بالسن
أو الاحتلام وهو سن الثمانى عشر « وأرءوا ، أى آتوا ، الكيل والميزان
بالقسط ، أى العدل من غير تقريط ولا إفراط ، لا تكلف نفساً إلا وسعها ،

أى طاقتها فى إيفاء الكيل والميزان إذ لم يكلف المعطى أكثر مما وجب عليه ولم يكلف صاحب الحق الرضا بأقل من حقه حتى لا تضيق نفسه عليه بل أمر كل واحد منهما بما يسعه بما لا حرج عليه فيه ، وذكره عقب الأمر بمعناه أن إيفاء الحق عسر فعليكم بما فى وسعكم وما وراء الوسع معفو عنه ، وإذا قلتم ، أى فى حكم أو شهادة أو غير ذلك ، فاعدلوا ، فيه بالصدق ، ولو كان ، المقول له أو عليه ، ذا قربى ، أى من ذوى القربى ، وبعهد الله أوفوا ، أى ما عهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع وطاعة الله والتزام دينه ، ذلكم ، أى الذى ذكر فى هذه الآيات ، وصاكم ، بالعمل ، به لعلكم تذكرون ، أى تتعظون فتأخذون بما أمرتكم به ، وإن هذا ، الذى وصيتكم به ، صراطى مستقيماً ، والإشارة فيه إلى ما ذكر فى السورة فإنها بأسرها فى إثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة ، فاتبعوه ، أى بغاية جهدكم لأنه الجامع للعباد على الحق الذى فيه كل خير ، ولا تتبعوا السبل ، أى الطرق المخالفة لدين الإسلام ، فتفرق ، فيه حذف إحدى التامين أى فتميل ، بكم ، أى هذه الطرق المضلة ، عن سبيله ، أى طريقه التى ارتضاها لعباده وبه أوصى ، ذلكم ، أى الأمر المذكور ، وصاكم به لعلكم تتقون ، الضلال والتفرق عن الحق .

١٥٤ - ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّمَن لَّمْ يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ .

١٥٥ - وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لِمَلِكِكُمْ تَرْحَمُونَ .

١٥٦ - أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ .

١٥٦ - أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا نُنزِلُ عَلَيْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ
فَقَدْ جَاءَكُمْ يُدِينُكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً فَمَن أَظْلَمُ
مِمَّن كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنُعْزِزُ الَّذِينَ
يَصْدِفُونَ عَن آيَاتِنَا سُوًءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ .
١٥٧ - هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا الْآفَ تَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ
أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ
لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ
فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ أَنْتُمْ تُنظَرُونَ وَإِنَّا مُنْتَظِرُونَ .

هذه الآيات الخمس في تقرير النبوات : نبوة موسى ورسالته ، ثم نبوة
محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته . وفيها تمجيد للعرب إذ نزلت فيهم رسالة
سماوية كما نزلت من قبل على طائفتين من أهل الكتاب هما اليهود والصاري ،
وفيها قطع لغدر المشركين واحتجاجاتهم الباطلة ، وحتى لا يحتجوا بأنه لم
تنزل عليهم رسالة من السماء كما نزلت على الأمم من قبل .. وفي هذه الآيات
تويده بالقرآن الكريم ، وتعظيم له وبيان لسمو منزلته في الهداية والإرشاد ؛
ولوجوب التزامه والعمل به واتباعه ، وقد وصفه الله عز وجل أولاً بأنه
مبارك ، ثم وصفه ثانياً بأنه هدى ورحمة .. وأوجب اتباعه أولاً ، وحرّم
من صدف عن آياته ثانياً ، وحذر من الإعراض عنه ، ومن أن يظلم إنسان
نفسه بترك ما أمر الله في هذا الكتاب الحكيم أو بإتيان ما نهى عنه .. وفي
الآية الخامسة تهديد ووعيد ، تهديد بالعذاب الشديد للمشركين والضالين
والمضلين والصادين عن سبيل الله وعن دينه القويم .

قوله تعالى « ثم آتينا موسى الكتاب ، أى التوراة ، وثم للترتيب وإتياء
موسى الكتاب كان من قبل مجيء القرآن لا بعده ، والجواب عن ذلك أن

هـ ثم ، لترتيب الإخبار أى ثم أخبركم أنا آتينا موسى الكتاب فجاءت هـ ثم ، لترتيب الخبر لا لتأخير النزول ، تماما ، أى لم ينقص الكتاب عما يصلحهم شيئا «على» الوجه ، الذى أحسن ، أى أتى بالإحسان فأثبت الحسن وجمعه ، بما بين من الشرع ، وبما حمى طوائف أهل الأرض به من الإهلاك العام وقد روى أن الله تعالى لم يهلك قوما هلاكا عاما بعد نزول التوراة ؛ وقيل : تماما على المحسنين من قوم موسى فيكون الذى بمعنى (من) أى على من أحسن من قومه وكان فيهم محسن ومسيء ؛ وقيل : الذى أحسن هو موسى أى تماما للنعمة عليه لإحسانه بالعبادة والذى بمعنى (ما) أى ما أحسن ، وتفصيلا ، عطف على تماما أى وبيانا ، لكل شيء ، أى يحتاج إليه فى الدين «وهى» ، أى فيه هدى من الضلالة «ورحمة» ، أى إنزاله عليهم رحمة لهم ، لعلمهم ، أى بنى إسرائيل «بلقاء ربهم» ، أى بالبعث والجزاء «يؤمنون» ، أى ليكون حالهم بعد إنزال الكتاب وبعدهما يرون من حسن شرائعه وشفامة كلامه وجلالة أمره حال من يرجو أن يحدد الإيمان فى كل وقت بقاء ربه ، وليذكروا ما أنعم الله عليهم من إخراجهم من مصر من العبودية والرق «وهذا» ، أى القرآن الكريم «كتاب» أى عظيم «أنزلناه» ، إليكم بلسانكم حجة عليكم «مبارك» ، أى كثير الخير والنفع والبركة «فاتبعوه» ، أى اتبعوا ما فيه من الأوامر والنواهي والأحكام «واتقوا» الكفر «لعلكم ترحمون» ، أى بانباعه وهو العمل بما فيه ؛ ثم بين تعالى المراد من إنزاله فقال : «أن» ، أى كراهته أن «تقولوا إنما أنزل الكتاب» ، أى التوراة والإنجيل «على طائفتين من قبلنا» ، أى اليهود والنصارى «وإن كنا» أى قد كنا أو وإنه كنا «عن دراستهم» ، أى تعلمهم وقراءتهم لكتابهم «لغافلين» أى لا نعرف حقيقتها ولا هى بلساننا «أو تقولوا» أى أيها العرب : لم نكن عن دراستهم غافلين بل كنا عالمين بها ولكنه لا يجب اتباع الكتاب إلا على المكتوب إليه فلم تتبعه «لو أنا» ، أهلنا لما أهلوا له حتى «أنزل علينا الكتاب» ، أى جنس الكتاب «لسكنا أهدى منهم» ، أى لما لنا من الاستعداد بوفور العقل ووحدة الأذهان واستقامة الأفكار واعتدال الفطرة والإذعان للحق ، فقد جاءكم بينة.

من ربكم ، أى القرآن إذ فيه بيان وجهة واضحة تعرفونها على لسان رجل منكم تعرفون أنه أولاكم بذلك ، وهدى ، من الضلالة لمن تدبره ، ورحمة ، أى وهو رحمة ونعمة أنعم بها عليكم فتأملوا فيه واعملوا به ، فن ، أى لا أحد ، أظلم ممن كذب بآيات الله وصدق ، أى أعرض ، عنها ، فضل وأضل ، سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا ، ولا يثوبون ، سوء العذاب ، أى شدته ، بما كانوا يصدفون ، أى بسبب إعراضهم ، هل ينظرون ، أى ما ينظر هؤلاء المكذبون ، إلا ان تأتيهم الملائكة ، أى لقبض أرواحهم أو بالعذاب ، أو يأتى ربك ، أى أمره بالعذاب ، أو يأتى بعض آيات ، أى علامات ، ربك ، الدالة على الساعة كطلوع الشمس من مغربها ، وعن حذيفة والبراء بن عازب : كنا نتذاكر الساعة إذ طلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما تتذكرون؟ قلنا نتذاكر الساعة ، فقال : إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات : الدخان ، ودابة الأرض ، وخسفاً بالشرق ، وخسفاً بالمغرب ، وخسفاً بجزيرة العرب ، والدجال ، وطلوع الشمس من مغربها ، وبأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى ، وناراً تخرج من عدن ، يوم يأتى بعض آيات ربك ، وهو طلوع الشمس من مغربها كما فى حديث الصحيحين « لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، صفة لنفس » أو ، نفساً لم تكن « كسبت فى إيمانها خيراً ، أى طاعة إذ لا ينفعها توبتها ، قال صلى الله عليه وسلم : يد الله بسيطان لمسىء الليل ليتوب بالنهار ولمسىء النهار ليتوب بالليل حتى تطلع الشمس من مغربها ، وقال صلى الله عليه وسلم : من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه ، وقال صلى الله عليه وسلم : ثلاث إذا خرجن فلا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل : الدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من المغرب . . . قل انتظروا ، بعض هذه الأشياء « إنا منتظرون ، ذلك ، ولنا الفوز وعليكم الويل .

١٥٩ — إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا
أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ .

١٦٠ - مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ
فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

هاتان الآيتان الكرمتان فيهما إنذار شديد لأهل الكتاب والمشركين
والصادين عن دين الله وفيهما تهديد ووعد لهم ، وفيهما تقرير للجزاء وأنه من
جنس العمل : إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . . وقوله تعالى : « إن الذين
فرقوا دينهم ، أي بددوه فأمنوا ببعض وكفروا ببعض وافترقوا فيه .
قال صلى الله عليه وسلم : افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها
في الهاوية إلا واحدة ، وافتترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة كلها
في الهاوية إلا واحدة ، وتفرقت أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها
في الهاوية إلا واحدة . رواه أبو داود والترمذي والحاكم وصححا . .
وفي بعض الروايات : قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي
، ولو كانوا شيعة ، أي فرقا مختلفة ، وهم اليهود والنصارى في قول مجاهد
وقادة : كأهل الكتاب فإنهم ابتدعوا في دينهم بدعا أوصلتهم إلى تكفير
بعضهم بعضاً فأمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض ، وكالجوس الذين فرقوا
دينهم باعتقاد أن الآلهة اثنان : النور والظلمة ، وعبدوا الأصنام والنجوم .
وجعلوا لكل نجم قسماً يتوسل به في زعمهم إليه ، وقيل : هم أهل البدع والشبهات
من هذه الأمة ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لعائشة : يا عائشة إن الذين
فرقوا دينهم وكانوا شيعة هم أهل البدع وأصحاب الأهواء من هذه الأمة ، وعن
بعض الصحابة قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح فوعظنا
موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله
كأنها موعظة مودع فأوصنا ، قال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة
وإن كان عبداً حبشياً ، فإن من يعش منكم فسيري اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي
وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات
الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، وروى : إن أحسن الحديث

كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها
« است منهم في شيء ، أي من السؤال عنهم فلا تتعرض لهم ، إنما أمرهم إلى
الله ، أي يتولى جزاءهم . ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ، فيجازيهم به وهذا
منسوخ بآية السيف ، من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، أي عشر حسنات
أمثالها فضلا من الله تعالى ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزي إلا مثلها ، أي مثل
السيئة التي افتراها ، وهم لا يظلمون ، أي بنقص الثواب وزيادة العقاب ،
وما ذكر في أضعاف الحسنات هو أقل ما عد من الأضعاف . فقد قال صلى الله
عليه وسلم : إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر
أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وكل سيئة يعملها تكتب بمثلها حتى يلقى الله عز
وجل . من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد من جاء بالسيئة فله سيئة مثلها ،
ومن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة
لا يشارك في شيتها لقيته بمثلها مغفرة ، وقال صلى الله عليه وسلم : يقول الله تبارك
وتعالى : إن أراد عبيدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها
فاكتبوها له سيئة ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة ، وإن أراد أن يعمل حسنة
فلم يعملها فاكتبوها له حسنة وإن عملها فاكتبوها بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ،
وقال ابن عمر رضي الله تعالى عنهما : الآية في غير الصدقات من الحسنات ،
فأما الصدقات فإنها تضاعف سبعمائة ضعف .

١٦١ - قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مَّةً
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

١٦٢ - قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

١٦٣ - لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ .

١٦٤ - قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ ابْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ

كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى

رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

١٦٥ - وَهُوَ الَّذِي جَمَعَكُمْ خَلْقًا مِنَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ
بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ
الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

هذه الآيات الخمس فيها خطاب للرسول الأكرم محمد صلوات الله عليه ،
وفيهما تمجيد لدعوة الإسلام ومبادئه ، وفيها بيان لصراط الله المستقيم ودينه
الحكيم ، ودفاع عنه ، وفيها تقرير للحساب والعقاب . . يقول الله عز وجل
في هذه الآيات : قوله تعالى : « قل ، يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك ، إنني
هداني ربي إلى صراط مستقيم ، بالوحي والإرشاد إلى ما نصب من الحجج
والبراهين ، دينا ، المعنى وهداني صراطاً ، كقوله تعالى : « ويهديك صراطاً
مستقيماً ، وهو نفس الدين ، فالدين بدل من الصراط على المحل ، قياً ، أى
مستقيماً ، ملة إبراهيم ، عطف بيان من دينا ، إذ الملة بالكسر الدين وإن فرق
بينهما بأن الملة لا تضاف إلا إلى النبي الذي تسند إليه والدين لا يختص إضافته
بذلك وحنيفاً ، أى ما تلا من الضلالة إلى الاستقامة ، والعرب تسمى كل من حج
أو اختن حنيفاً ، تنبيهاً على أنه دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وما كان ،
إبراهيم عليه السلام ، من المشركين ، رد على كفار قريش لأنهم يزعمون
أنهم على دين إبراهيم ، فأخبر الله تعالى أن إبراهيم لم يكن من المشركين ، قل ،
يا محمد ، إن صلاتي ونسكي ، أى عبادتي من حج وغيره ، ومحياي ومماتي ، أى
وما أنا عليه في حياتي وأموت عليه من الإيمان والطاعة أو طاعات الحياة
والخيرات المضافة إلى المات كالوصية والتدبير ، أو الحياة والمات أنفسهما
« لله رب العالمين لا شريك له ، في ذلك ، وبذلك ، أى وبهذا التوحيد ، أمرت
وأنا أول المسلمين ، أى من هذه الأمة لأن إسلام كل نبي مقدم على إسلام
أمته ، قل ، يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك ، « غير الله أبغى ، أى أطلب
درباً ، أى لها فأشركه في عبادتي ، وهذا جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم

والهمزة للإنكار « وهو رب كل شيء ، فكل من دونه عبد وهو المعبود ، ليس في الوجود من له الربوبية غيره كما قال : « قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ، ولا تكسب كل نفس ، ذنباً إلا عليها ، أي إثم الجاني عليه لا على غيره » ولا تزر ، أي ولا تحمل نفس « وازرة ، أي آثمة » وزر ، نفس « أخرى ، جواب عن قولهم : اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم » ثم إلى ربكم مرجعكم ، يوم القيامة « فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ، في الدنيا يتبين الرشد من الغي والحق من الباطل » وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ، جمع خليفة لأن محمداً صلى الله عليه وسلم خانم النبيين ، وقد تخلفت بأمتة سائر الأمم ، أو يخلف بعضهم بعضاً فيها ، أو هم خلفاء الله تعالى في أرضه يملكونها ويتصرفون فيها « ورفع بعضكم فوق بعض درجات ، أي في الشرف والرزق » ليلوكم ، أي لينتخبركم ، فيما آتاكم ، أي أعطاكم ليظهر المطيع منكم والعاصى « إن ربك سريع العقاب ، لمن عصاه لأن ما هو آت قريب ، أو لأنه يسرع إذا أراد » وإنه لغفور ، أي للمؤمنين « رحيم ، بهم ، وقد وصف تعالى العقاب ولم يصفه إلى نفسه ، ووصف ذاته تعالى بالمغفرة وضم إليه الوصف بالرحمة ، وأتى ببناء المبالغة واللام المؤكدة تنبيهاً على أنه تعالى غفور بالذات وأنه كثير الرحمة مبالغ فيها قليل العقوبة .

وبهذه الآيات الجامعات التي خاطب بها الله عز وجل رسوله العظيم ، والتي تدل على أخلاق النبي الكريم وعقيدته التي تمسك بها وعمل بها ، والتي يجوز من أجلها أن يتحدث عن نفسه بأنه هداه الله جل جلاله إلى صراط مستقيم ، وأن صلواته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين . . . هذه الآيات الكريمات من أجمع الآيات في الدلالة على قوة العقيدة وصلابتها ، وعلى المنهج الذي يجب أن يكون عليه المسلم في دينه وخلقه ، وهي ترشد إلى أن الله عز وجل قد هدى رسوله والمؤمنين به كذلك إلى صراط مستقيم ودين قويم ، دين الحنيفية البيضاء ، دين إبراهيم وإسماعيل ، وما كان إبراهيم من المشركين حتى يحتاج المشركون بأنهم على دينه ، بل كان من أول الموحدين ، وكان نبي

التوحيد ، و خليل الله و صفيه ، و كان المثل الأعلى في قوة الإيمان بالله . . .
و كذلك كان محمد صلوات الله ، و كان المؤمنون بشريعته ، و المتمسكون بهدأيته ،
صلاتهم و نسكهم ، و محياهم و مماتهم ، لله رب العالمين ، لا شريك له . . . و بذلك
أمره الله عز و جل في كتابه الحكيم ، و قرآنه الكريم ، و كان صلى الله عليه
و سلم المثل الأعلى للبشر في قوة العقيدة و قوة الإيمان بالله ، و كان المسلم الأول
الذي آمن بالشريعة المنزلة عليه قبل أن يرث بها أحد في الأرض ، أو أنه
كان أول من أسلم نفسه لله ، و أخلص وجهه لذاته الكريمة ، و تمثل الله عز
و جل في كل شيء ، و في كل صغيرة و كبيرة . إن الرسول صلوات الله لم يشرك
بالله ، و لم يحي حياة المشركين ، و لم يمل إلى عقيدتهم و لهوهم و باطلهم من صغره ،
و كيف يشرك بالله ، أو يبغي ربا سواه . و هو رب كل شيء . . . و هو محاسب
كغيره على كل شيء ، و لن يحمل ذنوبه غير نفسه . و إلى ربه رجعا ، و إلى
مولاه مصيره ، و كذلك البشرية ، مرجعهم إلى الله ، فيحاسبهم على ما قدموا
من عمل ، و يذبهم بما كانوا يختلفون فيه من أمر العقائد . و الله تعالى هو الذي
جعل المسلمين خلائف في الأرض أي ملوكا و ولاة ، أو خلفاء للأمم السابقة ،
أو أنهم ورثوا الأرض و ورثوا حكم الدنيا ، و رفع بعضهم فوق بعض
درجات في المال و الجاه و الحسب و النسب و في العقيدة و الخلق و العمل ، ليختبرهم
و يبلوهم فيما أعطاه إياه ، و هذا الابتلاء و الامتحان سوف يفوز فيه الصادقون
المؤمنون ، فانه عز و جل بهم غفور رحيم ، و سوف يفشل فيه العاصون
الطالحون ، فهو لهم سريع العقاب ، شديد العذاب ، و ما الله عز و جل بغافل
عما يعملون ، و من هذه الآيات الشريفة نعلم منزلة محمد صلوات الله و سلامه
عليه عند ربه ، و نعلم مدى صدقه و بلائه ، و مدى قوة عقيدته و إيمانه و إخلاصه
لله ، و ثباته على دينه و على شريعة الإسلام التي كان أول المؤمنين بها صلوات
الله و سلامه عليه ، و على آله و أصحابه و ذريته أجمعين . . . و لا عجب أن يكون
الرسول محمد صلوات الله عليه مذكورا دائما من الله عز و جل بالخير ، موصوفا
بالإيمان و الإخلاص ، مشار إليه في عقيدته و في كل جوانب حياته و أخلاقه

وصفاته وعتيدته بالبنان ، مقدا عند الله والملائكة والناس أجمعين ، مؤتما به
فى عمله وقوله ، وفى كل شىء ىصدر منه ، مفضلاً على البشر جميعاً فى صفاته
وشخصيته وأخلاقه وأعماله .

وحقاً لقد كان محمد صلوات الله عليه أعظم شخصية ظهرت فى العالم كله
خلال مختلف عصور التاريخ ، كان مثلاً أعلى للإنسانية فى حياتها الطويلة .
وكان ملاذاً للثل العليا ، وللقيم الروحية فى الحياة ، وحسابك به من رسول
غير مجرى الحياة ، وإنسان بدل سير التاريخ ، وبشر جميع صنوف الكمال ،
رقائد ضرب أروع الأمثال ، ومعلم للبشرية : بد لها بالظلام نوراً ، وبالجهل
علماً ، وبالوثنية والشرك إيماناً وتوحيداً ، وبالوحشية مدنية وحضارة
وعمراناً . كان فى طفولته ويطمه مثال النبى والجمال والكمال ، وفى شبابه مثال
الأمانة والعفة والخلق الرفيع ، وفى رجولته كان أرفع شخصية فى مكة ، وكان
الحكم بين القبائل حين اختلفت على من يضع الحجر الأسود فى مكانه يوم
أن جددت قريش البيت العتيق ، ثم نزل عليه الوحى من السماء ، وأضاف
إلى هذه الكالات الانهائية كمالاً آخر مستمداً من الله وعنايته . وسخرت به
قريش وناوأوه وعذبوه ، وشردوا أنصاره وفتنوه ، ومحمد صاهد صمود
الجيال لا تلين له قناة ، ولا يفترط فى أمانته . . إن من شأن الإنسان أن يجامل
ريدارى وينافق ، حين يشتد الظلم ، وأن يسكت عن عقيدته أحياناً حين يساط
عليه العذاب ، ومع ذلك فإن محمداً لم يلبس ولم يمين ولم يسكت ولم يجامل وقال
أعمه : ىر الله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن
أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه . . ثم هاجر بدينه وهاجر من بلاد
قومه ، وصار الزعيم الروحى الأكبر لكل من آمن برسالته ، كما صار الحاكم
الأكبر للدينة ، فضرب أروع الأمثال فى السياسة والشورى والديمقراطية
وحب العدالة والإيمان بالحق والحرية والإخاء والمساواة . وقاد محمد المسلمين
ليدافع عن العقيدة الإسلامية جيوش المشركين ، فكان أعظم قائد فى الحرب ،
كما كان أعظم قائد فى السلام ، ومعاملته للأسرى وللقبائل المهزومة وللبلاد

المفتوحة دستور عظيم من التسامح والإنسانية ، وهو الذي قال لخصومه من قريش بعد فتح مكة : اذهبوا فأنتم الطلقاء . ثم استقرت الدعوة الإسلامية في الحجاز ، فبعث بكتبه ورسله إلى الملوك والأمراء في كل مكان حتى إلى كسرى وقيصر ؟ نعم وأيم الله ، أرسل إلى كسرى وقيصر يدعوهما إلى الإسلام ، وهما القادران على أن يدكبا جزيرة العرب كلها بمن فيها وما فيها دكا بالجيوش والسلاح ومن عجب أن تنبغ شخصية محمد اليتيم في طفولته في وقت مبكر جداً وغير مألوف ، أليس ذلك معجزة لرسول الله حتى وهو في المهد صبي ، وكذلك من شأن الشاب أن يعيش كما يعيش الناس في بيئته ، وأن يفكر فيما يفكرون فيه ؛ ولكن محمداً خالف ذلك كله فأضرب عما فيه قومه وأخذ يبحث عن الحق والنور . ومن شأن أبناء الأسر الكبيرة أن ينشأوا على اللهو والترف ، أو على الفجور والطغيان ، ولكن محمداً لم يكن كذلك بأية حال في شبابه . معجزات في معجزات في حياة الرسول الأكرم ، وشخصية يا لها من شخصية ، اهتزت لها الجبال . وهتفت باسمها الأجيال ، ولا يزال التاريخ يذكرها بالإعجاب والتقدير والإجلال . فسلام عليك يا محمد في الخالدين ، وسلام على أمتك في العالمين ، والمجد لدينك كلما أضاء النيران ، وتعاقب الجديدان . وأنت حقا آخر المرسلين ، وخاتم النبيين . إن رحمة الله التي وسعت كل شيء هي التي أرادت أن تهدي هذا العالم الضال ، فاختارت محمداً العربي اليتيم الفقير الناشئ في جوف الصحراء ليسكون الرسول الملتهم . والنبي المرجى ، وليرد البشرية إلى السلام والطمأنينة والإيمان ، وليدعوها إلى الحرية والإخاء والمساواة . . صلى الله وسلم عليك يا رسول الله ومحرر الإنسانية ، ومنقذ الشعوب ، ومخطم الاستعمار ، ومن اهتزت لذكره الطغاة وهتفت باسمه الحياة ، وعنت لاسمه وجوه العظاء ، وآمنت برسالته الأمم . صلى الله وسلم عليك يا محمد بن عبد الله في جلالك وجمالك ، وتواضعك وحملك ، وعظمتك وعزة نفسك وثباتك في الشدائد وصبرك على المحن ، وتحديدك للتاريخ وللناس في سبيل رسالة الله وشريعته العظمى ، الإسلام . .

صلى الله وسلم عليك في مولدك ونشأتك وفي طفولتك وشبابك ، وفي تلقيك
للوحي في حراء ، وتبليغه لقومك وأهلك ، وفي هجرتك وغزواتك ، ويوم
صعدت روحك إلى الرفيق الأعلى بعد أن أدبت الرسالة ، وبلغت الأمانة .
ونشرت الوحي ، وأذعت كلمة الله على الأفواه ، وحطمت الأصنام من بيت
الله العتيق ، ومن كل مكان في جزيرة العرب . صلى الله وسلم عليك يا ابن
عبد الله ، فلقد أنشأت أساس حضارة مهذبة ، وأقت دعائم مدنية رفيعة ،
وسارت باسم الله وباسمك الجيوش الإسلامية تنشر النور وتبلغ الشريعة
وتهمز الظلم وتحطم الطغيان وتنشر العلم والثقافة في كل مكان . صلى الله وسلم
عليك يا نبي العرب يا من حطمت الفروق الظالمة بين الإنسان والإنسان ،
وحاربت العصبية والطائفية ، ومحوت سيادة العناصر والألوان والأجناس ،
وأكدت أنه لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى
والعمل الصالح . صلى الله وسلم عليك يا رسول الحرية والسلام يا من اعترت
بك وبشريعتك كل الطوائف والأفراد ، فخررت المرأة والعامل والخادم
والصانع والرقيق من ذل الاستبداد والاستعباد ، وجعلت الشعوب تشعر
بمعنوياتها ، والرعاة يعتزون بحريتهم وقامت شريعتك مقام السيف في تأديب
الطغاة وتقليم أظافر الرجعية والجمود والإقطاع والتعصب . صلى الله عليك وسيد
يا نبي الرحمة ويا من أتى عليه الله جل جلاله وفي وجهه ، ونزل الفرقان
ناظماً برسالاته . وأكد الوحي ختمه للرسالات والنبوات في الأرض ،
وارتعبت اليهودية المحرفة وسواها من الشرائع المبدلة كلما ذكر اسمك أو
ذكرت رسالتك وشريعتك . صلى الله وسلم عليك يا خير الخلق ويا هادي
الإنسانية ومرشد الناس . ومهذب الجماعات وصديق المظلوم ، ويا من انتصرت
على الشرك الوثنية والظلم والضلال والظلام ، بتأييد الله ونصره وعونه
ورعايته ، ولا زالت الشعوب الإسلامية ينهها تأييد الله وعونه ورعايته
مهما تآلب عليها المستعمرون ، ودبر لها المكائد المتآمرين ، ومهما حاول
الغرب المسيحي القضاء على شريعتك ورسالتك وعلى معنويات أتباعك وحملة

رسالتك ، والنصر بيد الله يهبه لمن يشاء من عباده المؤمنين . صلى الله وسلم عليك ، والعزة لله ولشريعته ، والنصر والأيد لكلمة الحق ودعوة الحرية ورسالة العزة والكرامة والإخاء والمساواة : للإسلام الكريم ولشعوبه المسكافة في الحياة . وعند ما نرى هرقل قائد الدولة الرومانية الشرقية يتحدث عن الرسول والرسالة ، نرى العجب العجيب ، والأمر الغريب . فقد أرسل إلى هرقل قائد الدولة الرومانية الشرقية كتاباً مع دحية الكلبي فعظم الرسول ورد رداً جميلاً ، وأرسل هرقل قائد الروم إلى أبي سفيان بن حرب زعيم قريش في ركب كانوا تجاراً في الشام في المدة التي ماد فيها محمد صلى الله عليه وسلم أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوا إليه بيت المقدس فدعاهم لمجلسه وحوله عظام الروم ثم دعا ترجمانه فقال : أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يدعى انه نبي ؟ قال أبو سفيان : أنا أقربهم نسبا . فقال أدنوه مني وقربوا أصحابه فجعلوهم عند ظهره ثم قال لترجمانه : قل لهم : إني سائل هذا - يعني أبا سفيان - عن هذا الرجل - يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ، فإن كذبتني فكذبوه . قال أبو سفيان : فوالله لو لا الحياء من أن يوثروا على الكذب فأعاب به لأنه قبيح ولو على عدو لكذبت عليه . ثم سأله أسئلة كانت غاية ما يطمح إليه سائل يريد أن يسبر غور الحقيقة ويجلو صفحتها ، وابتدأ يرد عليه برأيه فقال للترجمان : قل له - يعني أبا سفيان - : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها . وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا فقلت : لو كان أحد قال هذا القول لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله . وسألتك هل كان من آباءه من ملك ؟ فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان من آباءه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه . وسألتك هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله . وسألتك أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل . وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألتك أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

فذكرت أن لا . وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشته القلوب . وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر . وسألتك هل قاتلتموه وقتلكم؟ فزعمت أن قد فعل ، وأن حربكم وحربه تكون دولا يدال عليكم المرة وتداولن عليه الأخرى ، وكذلك الرسل تبلى ثم تكون لهم العاقبة . وسألتك بماذا يأمركم؟ فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبينهاكم عما كان يعبد آباؤكم ويأمركم بالصلاة والزكاة والصدق والصدقة والعفاف والصلة والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وهذه صفة النبي . ولقد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أكن أظن أنه منكم وإن يك ما قلت حقاً فيوشك أن يملك موضع قدمي هاتين ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ؛ ثم دعا هرقل بكتاب النبي صلى الله عليه وسلم فإذا فيه :
بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الإريسيين^(١) ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . قال أبو سفيان : فلما قال هرقل ما قال ، وفرغ من قراءة الكتاب ، كثر عنده الصخب . وارتفعت الأصوات ، وأخرجنا ، فقلت لأصحابي حين أخرجنا : لقد أمر^(٢) أمر ابن أبي كبشة^(٣) إنه يخافه ملك بني الأصفر^(٤) . ثم سار هرقل إلى حمص وأذن لعطاء الروم في دسكرة له ، ثم أمر بأبوابها فأغلقت ، ثم أطلع عليهم وقال : يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم فتبايعوا لهذا النبي ؟ فخاصوا حصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد أغلقت ، فلما رأى نفرتهم ، ويش من الإيمان قال : ردوهم على فإني قلت مقاتلي أنفا أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت . فمسجدوا له ورضوا عنه .

(٢) عظم

(٤) الروم

(١) عامة الشعب

(٣) كنية أحد أجداد النبي لأمه

ولقد ظهرت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول نشأته آيات الخلال الحميدة والشمائل الطيبة . وكذلك كل ناشئ كتب الله أن يترقبه المستقبل السعيد ، تلمح في نشأته دلائل سعادته وتقرأ في مقدمة حياته ما ينم عن نتائجه : وكان أظهر شمائل الرسول قبل البعثة خصاله الطيبة التي تحلت بها نفسه الكريمة . وجعلته خير أهل لأن يكون مهبط رحي ربه . ورسولا بينه وبين خلقه ، وأولى تلك الخصال : تباعده من أول نشأته عن الأوثان وقرابينها وحفلاتها وكل ملاحى السوء التي كان أهل الجاهلية يلهون بها . قال صلى الله عليه وسلم : لما نشأت بغضت إلى الأوثان وبغضت إلى الشعر وما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين . كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله برسالته . قلت ليلة لغلام كان يرعى معي : لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب فخرجت لذلك حتى إذا جئت أول دار من مكة سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم فجلست أنظر . فضرب على أذني فما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت ولم أفض شيئاً ، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك . ثم لم أهدم بعد ذلك بسوء . وكما بغضت إلى الأوثان والشعر وملاحى أهل الجاهلية حبب إلى الخلو والوحدة والنظر والتفكير ، وكذلك الإنسان الكامل إذا نشأ في بيئة ورأى الناس يولون وجوههم قبلة لا يرضاها ولا سبيل له إلى تحويلهم عنها يربأ بنفسه عن مجتمعاتهم ويؤثر الوحدة على مجالستهم ، لأن كل النفس ينأى بها عن مظان السوء وجلساته .

ومن أهم خلاله الكريمة صلى الله عليه وسلم الصدق ، فقد شهد له بالصدق أعداؤه وأحباؤه . لقي رجل أبا جهل أحد أعداء الرسول . فسأله : يا أبا الحكم ، ليس هنا غيري وغيرك يسمع كلامنا : فخبرنى عن محمد . أصادق أم كاذب . فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط . وفي هذا يقول الله تعالى لرسوله : فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، وقال النضر بن الحارث لقريش : قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم

وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلم ساحر، والله ما هو بساحر .

ومن أم خلافة أمانته صلى الله عليه وسلم ، فقد كان لقبه في الجاهلية الأمين وكانوا يستحفظونه ويودعونه ودائعهم ، قال ابن اسحاق : ما كان بمكة أحد عنده شيء يخاف عليه إلا وضعه عند محمد صلى الله عليه وسلم لما يعلم من صدقه وأمانته . ولما اختلفت قريش في الجاهلية عند بناء الكعبة في من يضع الحجر الأسود اتفقت كلهم على أن يحكموا بينهم أول داخل عليهم ، فإذا محمد أول داخل فقالوا : هذا محمد هذا الأمين قد رضينا حكما وكانوا لما عرفوه من صدقه وأمانته يتحاكمون إليه في الجاهلية ، يفصل في خصوماتهم ويحسم منازعاتهم ويرضون بحكمه وعدله . ومن هذا يتجلى أن الصادق الأمين كان من أول نشأته على استعداد خلقي لأن يكرمه الله برسالته ، وكانت نفسه الطاهرة بما طبعت عليه من الكرم والفضائل أفضل منبث طيب لنمو الفضائل والكمالات ، ولذلك صادف منه التأديب الإلهي نفسا كريمة تكلمت بما أدبها الله به من الأدب الحسن ، فقال صلى الله عليه وسلم كمال الخلق وشرف الفضيلة ، حتى رأى الناس من حبه وعفوه وتواضعه وصبره ما جمع قلوبهم حوله واستحق ثناء الله عليه في كتابه الكريم ، وإنك لعلي خلق عظيم ، . ولما بعث صلى الله عليه وسلم وقام يدعو الناس إلى التوحيد تجلت أخلاقه الكريمة ونفسه الفاضلة فيما احتمله في سبيل الدعوة من الشدائد وما عامل به المدعوين من صبر على أذاهم وإحسان في مقابلة إساءتهم بما كان طريقاً لهداهم وعلاجاً لهم ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم قام في مكة وهي حصن الأصنام ومهد الوثنية والوثنيين يدعو إلى عبادة الله وحده وتنكيس الأوثان ؛ قام وهو يتيم لا يعتمد في دعوته على جاه أو عصبية ، وهو فقير لا يستعين بمال ولا ثروة ، وهو وحيد يخذله أدنى الأقربين إليه ، وليس له من دون الله ناصر ولا معين ، قام يدعو قوما أشداء أخذتهم العزة بالإثم وألقوا ما وجدوا عليه آباءهم ، واستعزوا بما لهم من حول وسلطان ، فوضعوا في سبيله كل عقبة وسدوا في وجه دعوته كل طريق ، وأذوه

ومن تبعه بكل ضروب الإيذاء ، كل هذا ورسول الله لا يزداد إلا ثباتاً على إيمانه وتمسكاً بدعوته ولا يتسرب اليأس إلى قلبه ولا الفتور إلى عزيمته حتى غلب الحق الباطل وأصبحت كلمة الله هي العليا ، وأبدل وحدته أمة قوية ويتمه أفضل عصية .. ولقد احتمل الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوته إلى الحق كثيراً من الشدائد . وصنوقاً من الأذى وما كان شيء من ذلك يضعف من عزيمته أو يثبطه عن دعوته . وكذلك الداعي إلى الحق يجب أن يوطن نفسه على احتمال الميكره . ويواصل السير في سبيله . مهما لاقى من صعاب وقال من أذى وعنت ومقاومة وعناد .

استهزؤا بالرسول ، فكان إذا مر عليهم يقولون سخرية منه : هذا ابن أبي كبشة يكلم من السماء . هذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء ، وكان عمه أبو لهب جاراً له . ويتعمد رمي القدر على بابه ، فكان رسول الله يلقى القدر . ويقول : يا بني عبد مناف أي جوار هذا ، وعقبة بن أبر معيط أخذ من فضلات الإبل والقهاها على رسول الله وهو في صلاته ساجد ولم يقدر أحد من المسلمين أن يرميها عنه حتى جاءت ابنته فاطمة فألقت الفضلات من على ظهره ، وبينما كان يصلي في الكعبة إذ أقبل عقبة بن معيط ووضع ثوبه في عنقه واشتد في خنقه حتى جاء أبو بكر فدفعه عنه وقال : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ وما زالوا يتلونه ومن تبعه بضروب الكيد والمحن حتى اتتمروا على قتله ، واضطر فراراً بدينه ودعوته أن يخرج من داره ومولده ، ولم تزل هذه الشدائد من إيمانه ولم تزده إلا ثباتاً على دعوته ، وهكذا ما قام إلى الحق داع إلا وجد من أنصار الباطل من يخذله ويصده عن سبيله ويحاول إطفاء نور الحق الذي يدعو إليه ، ولكن الإيمان القوى واليقين الثابت والغاية السامية تهون الصعاب وتحجب إلى النفس المسكاره والفوز للحق والعاقبة للمتقين ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلنن الله الذين صدقوا وليعلنن الكاذبين ، .. على أن الفضل الأكبر في نجاحه صلى الله عليه وسلم يرجع إلى أخلاقه وشمائله ، لأنه أقام من صفاته

يراهن عداوة على صدقه وأن ما يدعو إليه حق وكان أعداؤه كلما زين لهم
مطعن فيه وجدوا من ماضيه وحاضره وطباعه وخصاله ما يتنى طعنهم ويرد
كيدهم . ولما اجتمعوا في دار ندوتهم يتشاورون فيما يرمون به محمداً في موسم
الحج ليقطعوا عليه طريق الدعوة وينفروا منه القبائل ويحولوا بينهم وبينه .
كانوا كلما اقترى كبير لهم على محمد فرية ردوا عليه هم أنفسهم بما عرفوه من
خلال الرسول التي تفضح مفترياته وتنتج تقيض قصده ؛ وكثيراً ما كان حله
عند الغضب وعفوه عند القدرة وإحسانه إلى المسيء سبياً في الإيمان به .
وإجابة دعوته واجتماع القلوب حوله . . جاء يهودى اسمه زيد إلى رسول الله
يتقاضاه ديناً فغضب الرسول من ثوبه وأغلظ في القول وقال : يا بني
عبد المطلب أتم قوم مظل ، فهم عمر بالانتقام منه ومقابلة الغلظة بالغلظة ، فابتسم
الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال لعمر : أنا وهو كنا أحوج منك إلى خير
من هذا يا عمر ، تأمره بحسن التقاضى وتأمرنى بحسن القضاء ، ثم قضى للدائن
دينه وطيب خاطره على ما روعه عمر . وكان هذا سبباً في إسلام اليهودى .
ولما جاء نصر الله والفتح ودخل الرسول المسجد الحرام جاءه أشرف قريش
وساداتهم بعد أن أظهره الله عليهم وحكمه فيهم فقال لهم : ما تظنون أنى فاعل
بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : أقول لكم ما قال أخى
يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، ؛ وكان
عمر يبكى رسول الله بعد وفاته ويقول : أبى أنت وأمى يا رسول الله . لقد
دعا نوح على قومه فقال : رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ،
ولو دعوت علينا لهلكنا . ولقد وطىء ظهرك وشج وجهك وكسرت
رباعيتك فازدت على أن قلت : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون . وهكذا
كان رسول الله داعياً بأخلاقه وأعماله كما كان داعياً بأقواله .

هذا الربع - الرابع - من الجزء الثامن من القرآن الكريم ، هو فى جملة
تفصيل لأصول الإسلام ، ولأهم ما اشتمل عليه من مبادئ ومثل . . وفى
صدره نهى قوى صريح واضح عن كثير من الأعمال التى تتنافى مع روح

الإسلام الكريم . نهى عن الشرك ووآد البنات ، وقربان الفواحش ، وعن القتل ، وعن قربان مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ سن الرشد ، ويستطيع عندئذ أن يياثر التصرفات المالية مباشرة كاملة وفى صدر هذا الربع كذلك أمر بالإحسان إلى الوالدين ، وفيه كذلك أمر بإيفاء الكيل والميزان بالقسط ، وبالعدل فى كل قول وفى كل عمل كذلك ولو مع ذوى القربى . وبالوفاء بالعهد .. وهذه النواهي والأوامر فى جملتها هى أهم تعاليم الإسلام : والنهى عن الشرك والأمر بالإحسان إلى الوالدين قد جمعا معا فى سياق واحد فى هذا المقام وفى آيات أخرى عديدة ، وفى هذا تنبيه على أن الإحسان إلى الوالدين بمنزلة عظيمة من الدين ، وأنه من أمهات مبادئ الإسلام ، وأنه هو وتوحيد الله أهم وأعظم الأصول فى شريعة الإسلام .. ووآد البنات ، وإتيان الفواحش والقتل كذلك هذه الثلاثة هى من أعظم الأشياء خطراً ، وأكبرها أثراً على الأفراد والجماعات ، والقتل وإن كان داخلاً فى الفواحش إلا أنه أفرد وحده عنها لعظم أمره ، وكثرة خطره ، ويلى هذا النهى عن قربان مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ سن الرشد ، والأمر بإيفاء الكيل والميزان بالقسط ، والأمر بالوفاء بالعهد .. ويلاحظ أن صدر الربع فى بيان المحرمات على المسلمين ، أى فى بيان المنهيات لا فى بيان الأوامر ، وكان الأمر بالإحسان إلى الوالدين قد تضمن النهى عن عقوقهم ، والأمر بإيفاء الكيل والميزان قد تضمن النهى عن التطفيف فيهما ، ويلى للطفقين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، إلا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، ، وكان الأمر بالوفاء بالعهد تضمن النهى عن نقض العهود .. ولنا أن نذهب إلى أن قوله تعالى « قل تعالوا أتلى ما حرم ربكم عليكم ، فيه حذف ، والمعنى : أتلى ما حرم ربكم عليكم وما فرض ربكم عليكم ، أو ما حرم عليكم وما أمركم به .. والوفاء بالعهد يتناول الوفاء بما عاهد عليه الإنسان نفسه أو غيره ، وبما عاهد عليه ربه كذلك .

وقوله عز وجل « وأن هذا صراطي مستقيماً ، يصح أن يكون عطف بتفسير إجمالاً للسابق . . أي وأن هذه النواهي والأوامر السابقة هي صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ويصح أن يكون كلاماً آخر معطوفاً على « ما حرم ربكم عليكم ، أي : تعالوا أتوا ما حرم ربكم عليكم ، وأتل عليكم أيضاً أن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، أي : وأتل عليكم ضرورة اتباع هذا الدين الحق ، والشريعة المثلى ، دين الإسلام وشريعة التوحيد ؛ وعلى هذا فالإشارة في قوله تعالى « هذا ، ترجع إلى القرآن أو إلى الإسلام أو إلى ما ورد في سورة الأنعام من تعاليم . أما على الرأي السابق فالإشارة « هذا ، راجعة إلى النواهي والأوامر المذكورة في قوله تعالى « ألا تشركوا به شيئاً ، الخ .

وقد أشار الله عز وجل في هذا الربع إلى رسالة موسى ، إذ أن قوله تعالى « قل تعالوا أتوا ما حرم ربكم عليكم ، فيه إشارة إلى شريعة الإسلام وأهم مبادئها ، فكان الله عز وجل قال : هذه هي شريعة الإسلام ، ثم هذه هي شريعة موسى ، والعطف بـ (ثم) هنا ليس للترتيب التاريخي ، بل للترتيب الذكري ، وقد جاء ذكر شريعة موسى ضمن ذكر الكتاب الذي أنزل عليه وهي التوراة : وذكر الله عز وجل بعد ذلك القرآن ووصفه أعظم وصف ، وهو أنه « مبارك ، وأمر المسلمين باتباعه كما أمرهم بالتقوى التماساً منهم لرحمة الله ورضوانه ، وقد ذكر الله تعالى عقب ذلك أن نزول القرآن يقطع عن المشركين ، وأباطيل المدحضين ، حتى لا يقولوا : إنه لم ينزل علينا كتاب كما نزل على اليهود والنصارى ، ثم وصف الله عز وجل القرآن ثانياً بأنه بينة من الله وأنه هدى ورحمة ، وهدى وأنذر من يعرض عنه بالعذاب الشديد . . وفي ختام هذا الربع بين الله عز وجل شريعة الإسلام التي كان محمد عليه السلام أول المؤمنين والمسلمين بها ، وشريعة الإسلام - وهي التوجه إلى الله بالعبادة وحده لا شريك له - هي ملة إبراهيم حنيفاً ، وهي الصراط المستقيم ، وهي أن تكون صلاة المسلم ونسكه ومحياه وعماته لله رب العالمين ، لا شريك له ، وهي التجرد من الشرك في كل معنى ، والإيمان بالحساب والعقاب ، والرجوع إلى الله عز وجل يوم القيامة ، يوم

لا ينفع الإنسان إلا عمله .. ثم ذكر الله عز وجل المسلمين يفضله عليهم ، وبأن جعلهم ملوكا في الأرض ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات بالعمل الصالح والخلق الكامل ، فمن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، والله سريع الحساب شديد العقاب ، وهو كذلك غفور رحيم بعباده المخلصين الصادقين الأوفياء بما عاهدوا الله عليه .

* * *

هذه هي سورة الأنعام ، السورة المكية الكريمة ، التي اشتملت على ما اشتملت عليه من دعوة إلى التوحيد ، وحرب للشرك والمشركين ، ورد عليهم ، إبطال لمزاعمهم ، وتكذيب لأباطيلهم ، وهي من السور الطوال ، التي تعد من روائع سور القرآن الكريم ، ومن أرائلها إعجازا وبلاغة وروعة ، والأنعام جمع نعم - بوزن أمل - وهي الحيوانات الراحية ، من الإبل والبقر والغنم ، وقال ابن الأعرابي : النعم الإبل خاصة والأنعام الإبل والبقر والغنم ، ومن المادة : النعمة : الحفض والدعة والمال ، والنعمة بفتح النون : المسرة والفرح والترفة ، والنعمى : مثل النعمة ، وفلان واسع النعمة أى واسع المال ، ونعمة عين بضم النون : أى قرّة عين ، يعنى أقر الله عينك بطاعتك واتباع أمرك ، وريح النعمى بضم النون : ريح الجنوب وهي أبل الرياح وأرطبها ، وقيل : هي ريح تجيء بين الجنوب والصبأ ، ومن المادة : أنعم الرجل : إذا شيع صديقه حافيا خطوات ، وهذه المادة ، وهي النون والعين والميم ، في جملتها تدل على الترف والنعم والسرور والخير والمال والجمال ، وتسمية هذه السورة بسورة الأنعام ، لأنها اشتملت في أواخرها على ذكر الأنعام في عدة آيات كريمة : وجعلوا لله عما ذرأ^(١) من الحرث والأنعام نصيبا . فقالوا : هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا^(٢) وقالوا : هذه أنعام وحرث^(٣) حجر^(٤) ، لا يطعمها إلا من نشاء ، بزعمهم .

(١) أى خلق .

(٢) آية ١٣٦ من سورة الأنعام .

(٣) الحرث : الزرع .

(٤) أى حرام .

وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكر اسم الله عليها ، افتراء عليه ،
سيجزيهم بما كانوا يفترون^(١) - وقالوا : ما في بطون هذه الأنعام خالصة
لذكورنا ، ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء^(٢) ، - ومن
الأنعام حمولة^(٣) وفرشا^(٤) ، كلوا مما رزقكم الله ، ولا تتبعوا خطوات
الشیطان . إنه لكم عدو مبين^(٥) .. ثمانية أزواج^(٦) : من الضأن اثنين ، ومن
المعز اثنين ، قل : آلذکرین حرم أم الأثینین أم ما اشتملت علیه أرحام
الأثینین ، نبئونی بعلم إن كنتم صادقين^(٧) . ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ،
قل : آلذکرین حرم أم الأثینین ، أم ما اشتملت علیه أرحام الأثینین ، أم
كنتم شهداء ، إذ وصاكم الله بهذا ؟ فمن أظلم ممن افتري على الله كذبا ليضل
الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين^(٨) .. هذه الآيات التي ورد فيها
ذكر « الأنعام » في هذه السورة الكريمة ؛ ومن أجل ذلك سميت السورة
بهذا الإسم ؛ وهو اسم غريب عجيب ، وغرابته في إطلاق اسم « الأنعام » على
مجموعة طويلة من البلاغة المعجزة النادرة التي ليس لها مثل في روعتها وعظمتها
وجلالها وسحرها ونورها ، وقد وجدنا أن أسماء سور القرآن الكريم تختار
دائما من الأسماء العجيبة الغريبة ، كما اختير اسم « البقرة » للسورة المعروفة ،
وآل عمران لسورة أخرى ، والنساء لسورة ثالثة ، والمائدة لسورة رابعة ،
وهكذا . وقد يكون السر في اختيار اسم « الأنعام » لهذه السورة أن المخاطبين
بها هم مشركو العرب من قريش وغيرهم ، والآنعام ، أو الإبل خاصة من
بينها سمة خاصة للعربي ، تدل عليه ، وتشير دائما إليه ، فكان كلمة الأنعام
ترادف كلمة العربي أو هي دلالة على العرب ، ولازم للعربي في كل وقت .
فاستعملت الأنعام لتدل على المشركين وعلى العرب الذين حملوا لواء الشرك

-
- (١) آية ١٣٨ من سورة الأنعام .
(٢) من آية ١٣٩ سورة الأنعام .
(٣) أي تتخذ للحمل والعمل .
(٤) أي زينة .
(٥) آية ١٤٢ من سورة الأنعام .
(٦) أي خلق لكم ثمانية أزواج من الأنعام .
(٧) آية ١٤٣ من سورة الأنعام .
(٨) آية ١٤٤ من سورة الأنعام .

ودافعوا عنه ، أو أن استعمال الأنعام للسخرية بالمشركين ، وكان الأنعام هم المرادون بها ، كما نقول للرجل البليد : هو من الأنعام ، وهو كالحمار.. فالمراد أن هؤلاء المشركين في بلادهم وشركهم وبعدهم عن التوحيد كالأنعام المسخرة التي لا عقل لها ولا ذكاء لديها ، ولا فهم لها ، والتي رضيت بأن تعيش عيشة الحيوانات السائمة ، لا ترفع إلى السماء رأسا ، ولا تمد إلى المثل العليا طرفا .

وهذه السورة في جملتها أعظم دفاع عن التوحيد ورسالات السماء ونبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وهي في جملتها وتفصيلها لا تخرج عن هذا الغرض ، ولا تبعد عنه ؛ وهذا أمر عجيب في البلاغة العربية ، أن تكون مجموعة طويلة من البلاغة في موضوع واحد ، وفكرة واحدة ، ومعنى واحد ، وغرض واحد ، لا تعداه ولا تبعد عنه ؛ وهذه هي الوحدة الفنية والموضوعية للفصول البليغة ؛ وهي يطالب بها في النثر ، كما يطالب بها في الشعر ، ولا نكاد نجد فصلا نثريا طويلا في الأدب العربي ، له مثل هذه البلاغة ، مع هذا الطول ، وله مثل هذه الوحدة ، مع ذلك الإطناب ؛ ولم تكن العرب تعرف شيئا من ذلك ؛ ولا تلم في بلاغتها بشيء من هذه الخصائص ؛ وذلك من أسرار بلاغة القرآن الكريم ، ومن مظاهر إعجازه التي لم يتناولها الباحثون ولا الدارسون بعد ؛ والعجب لبلاغة القرآن الكريم وفصاحته ، هذه البلاغة الباهرة ، وتلك الفصاحة النادرة ، التي تمثلت في كل شيء ، وظهرت في كل آية .. ولقد كان بلغاء العرب وكتابتها وخطابؤها لا يستطيعون أن يكتبوا فقرات طويلة لها هذا السحر وهذا الروق وهذا الإعجاز ، فما بالك بهذه السورة وهي ينتظمها غرض واحد ، وفكرة واحدة ، وموضوع واحد ؟ وما بالك بهذه النظرات الحكيمة ، وبهذا التناول الفني الغريب ، وبذلك النور الإلهي العجيب ، وبهذا الإعجاز السماوي الحبيب .. ما بالك بهذا كله وبغيره ، بما اشتملت عليه السورة الكريمة ، وبما هو دليل على إعجاز القرآن ، وأنه منزل من السماء ، وأنه كتاب مبلغ من عند الله ، نزل به الوحي على محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وذريته وأصحابه أجمعين .

إن سورة الأنعام بما اشتملت عليه من دفاع عن التوحيد ، ومن إبطال
تدعوات الشرك والمشركين ، ومن إقامة البراهين الواضحة في السماء والأرض
على وجود الله وقدرته ، ومن إثبات الرسالات والنبوات واليوم الآخر ،
ومن نفي مزاعم الجاهلين والكافرين والمشركين والصادقين عن دين الله ؛ لم ي
وثيقة فريدة في هذا الجانب العظيم . . والسورة من مطلعها إلى ختامها تسير
على هذا المنوال لا تخرج عنه ، وتمشي في هذا التيار لا تحيد ، إنها في جميع
آياتها فكرة واحدة متصلة ، ونداء إلهي متميز ، ودفاع ما بعده من دفاع عن
الله والتوحيد وقدرة إله الكون والحياة ، وعن الرسل والرسالات ، وعن
حقائق النبوات وأصولها العامة ، وهي كلها أسلوب متدفق ، وحجة مقنعة ،
ومنطق قوى ، ومعان متلاحمة ، ونعمة متصلة ، متحدة الأهداف والغايات ،
فتبارك الله الذي نزل هذا الكتاب المعجز العظيم على نبيه محمد صلوات الله
وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه وذريته أجمعين .

(٧)

سورة الأعراف

تمهيد

سورة الأعراف هي السورة السابعة في المصحف الشريف ، ومن سور القرآن الكريم الطوال ، وقد نزلت بعد سورة (ص) وقبل سورة (الجن) ، وهي مكية ، وآياتها مائتان وخمس أوست آيات ، ويستثنى منها الآيات ١٦٣ - ١٧٠ فهي مدنية ، وهي قوله تعالى : « واسألهم عن القرية ، حتى قوله تعالى « وإذا نتقنا الجبل ، . وإذا علمنا أن سورة الجن قد نزلت في رجوع الرسول صلوات الله عليه من الطائف وكان قد سافر إليها ستة عشر من البعثة النبوية الكريمة ليعرض على أهلها الإسلام ، فيكون نزول سورة الأعراف فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء . وهذه السورة سميت سورة الأعراف لقوله تعالى فيها في الآية الثامنة والأربعين : « ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم ، قالوا : ما أغى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ، .. وهذه السورة تشتمل على دعوة الله عز وجل للناس عامة وللشركين خاصة إلى الإيمان والتصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفيها التحذير من مقاومة الإسلام ورسالة القرآن ومن مصارع الأمم السابقة الهالكة ، وفيها إنذار شديد للشركين بقص أحوال الأولين ومصائرهم ، وبذكر أخبار الأنبياء والمرسلين وموقف أممهم منهم ، وقد أخذ المشركون في هذا بطريق الترهيب والترغيب ، بعد أن أخذوا في سورة الأنعام بطريق النظر والدليل ، ولهذا جاءت سورة الأعراف بعد الأنعام ، وهما معا من السور الطوال . . وفي الأعراف ذكر لما أجمل في سورة الأنعام من أخبار الأولين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأعراف - الربع الخامس من الجزء الثامن

- ١ - المصّ .
- ٢ - كِتَابٌ أَنْزَلَ لِيَاكُفِّرَ عَنْكَ مَا تَتَّبِعْتَهُ لِيُنذِرَ بِهِ
وَذِكْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ .
- ٣ - اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ
أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ .

هذه الآيات الثلاث هي مفتاح سورة الأعراف ، ومبتدأ الربع الأول منها ، وهي كذلك مطلع الربع الخامس من الجزء الثامن من القرآن الكريم ، وقد بدئت بتمجيد القرآن كتاب الله العظيم ، وبيان أثره وأنه ذكرى وعظة وعبرة للمؤمنين ، ليؤمن من آمن ، ويكفر من كفر .. وقد أمر الله عز وجل المسلمين باتباع هذا القرآن الكريم ، والعمل بأوامره ونواهيه ، ونهاهم عن الشرك وعن اتباع أولياء من دون الله ما أنزل الله بهم من سلطان ، ففي هذه الآيات الثلاث تمجيد للرسالة ودعوة إلى الإيمان بها ، وتحذير من الكفر والشرك واتخاذ آلهة غير الله .. وفي هذا تحذير ما بعده من تحذير للمشركين والكافرين ، والأمر هنا في قوله تعالى (اتبعوا) إما للمسلمين خاصة ، وإما للعرب الذين نزلت عليهم الرسالة عامة .

وقوله تعالى في مطلع هذه السورة (المص) للتفخيم وبعث الروعة في نفوس السامعين ، على ما سبق أن ذكرناه في (ألم) ، فهذه حروف مركبة في الرسم على شكل كلمة ذات أحرف أربعة لكنها تقرأ بأسماء هذه الحروف ساكنة هكذا : ألف . لام . ميم . صاد . وقد افتتح الله عز وجل بعض سور

القرآن ببعض حروف الهجاء ، واختلف في معناها في هذه المواضع على ما سبق أن ذكرناه في الجزء الأول وفي مطلع سورة آل عمران ، فقيل : هذه الكلمات هي أسماء ألقاب للسور المتبداة بها ، وقيل : هي أسماء الله ، أو للقرآن ، أو لمحمد عليه السلام ، أو هي مما استأثر الله عز وجل بعلمه ، أو هي دلائل على إعجاز القرآن ، إذ أنه مركب من مثل هذه الحروف التي ينطق بها العرب ، ومع ذلك فقد عجزوا عن الإتيان بمثله كله أو بعضه أو بمثل آيات منه ، إني غير ذلك من الآراء في شرح ذلك .

وقوله تعالى في الآية الثانية من هذه الآيات الثلاث « كتاب ، أي هذا كتاب ، أو هو كتاب ، والمراد بالكتاب السورة أو القرآن . » أنزل إليك ، صفة لكتاب ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم . « فلا يكن في صدرك حرج ، أي ضيق ، منه ، أي لا يضيق صدرك بالإبلاغ وتأدية ما أرسلت به مخافة أن تكذب لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه ، وأذا هم ، وكان يضيق صدره من الأداء ، فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم ، وقيل : الحرج الشك والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم : والمراد أمته ، وسمى الشك حرجا لأن الشاك ضيق الصدر كما أن المتيقن منشرح الصدر ، لتنذر به ، أي أنزل للإندار ، وذكري ، أي وتذكرة للمؤمنين ، والمعنى : لتنذر به كل الناس وكل البشر ، لا العرب خاصة ، فحذف المفعول من (تنذر) يدل على عموم رسالة محمد عليه السلام لكل من أمكن إنذاره وتذكيره من العقلاء .

وقوله تعالى « وذكري للمؤمنين » أي لمن آمنوا بالله وبشريعة الإسلام ، والإيمان لغة التصديق وشرعا التصديق بما علم بالضرورة أنه من دين محمد صلى الله عليه وسلم كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء ، وخلاصة الإيمان ثلاثة أمور : اعتقاد الحق ، والإقرار به ، والعمل بمقتضاه ، وهذا عند جمهور المحدثين ، والأصح أن الإيمان هو التصديق وحده ، ويدل له أنه تعالى أضاف الإيمان إلى القلب فقال : كتب في قلوبهم الإيمان ، وقال : وقلبه مطمئن بالإيمان ، وقال : ولم تؤمن قلوبهم ، وعطف عليه العمل الصالح في مواضع لا تحصى ، وقرن

بالمعاصي ، فقال : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا - يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ، فلو لم يكن الإيمان التصديق فقط بل هو وترك المعاصي لم يكونوا مؤمنين ، وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه وغيره : إن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص ، وذلك محمول على الإيمان .

هذا وخرج الصدر : ضيقه وغمه ، أخذ من الحرجة التي هي مجتمع الشعر المشتبك الملتف الذي لا يجد السالك فيه سبيلا واضحة ينفذ منه ، ويطلق الحرج على الشك أيضا ، لأن الشك في أمر لا يكون إلا من ضيق الصدر به وقلة الاتساع لتوجيهه الوجهة الصحيحة ، ولذلك اختلف المفسرون هنا في معنى الحرج ، ففسره بعض بضيق الصدر ، وبعض آخر بالشك ، كما روى عن ابن عباس ومجاهد ، ويلاحظ أن تفسير الحرج بالشك يجعل الآية في معنى آية سورة البقرة ، ألم ذلك الكتاب لأرب فيه ، أي هذا الكتاب الذي تقرأه يا محمد على الناس لا شك في أنه من عند الله تعالى ، وصحت الإشارة بذلك إلى ما ليس يعيد لأن الإشارة وقعت فيه للتعظيم ، ولذلك قال الطيبي : أحسن ما قيل في توجيه ذلك أن الله تعالى قال : ذلك الكتاب ذهابا إلى بعد درجته ، وقيل : الإشارة إلى ، ألم ، بعد ما سبق التكلم به وانقضى ، والمنقضى في حكم المتباعد ، وهذا في كل كلام يحدث الرجل بحديث ثم يقول : وذلك بما لا شك فيه ، ويحسب الحاسب ثم يقول : وذلك كذا وكذا ، وقال تعالى : لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ، وقال نبي الله يوسف : لا يأنيك طعام ترزقانه إلا نباتك بتأويله قبل أن يأنيك ذلك مما علمني ربى ، ، ولأنه لما وصل من المرسل سبحانه وتعالى إلى المرسل إليه عليه السلام وقع في حد البعد ، كما تقول لصاحبك وقد أعطيت شيئا : احتفظ بذلك ، أي تمسك به - أو المعنى : ذلك الكتاب الموعود إنزاله بقوله تعالى : إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا ، أو الذي جاء الوعد بإنزاله في الكتب المتقدمة لأن سورة البقرة مدنية كما مر وأكثرها احتجاج على اليهود وعلى بني إسرائيل وقد كانت بنو إسرائيل أخبرهم موسى وعيسى عليهما السلام أن الله يرسل محمدا وينزل عليه كتابا ، فقال تعالى : ذلك الكتاب ، أي الذي أخبر

الأنبياء المتقدمون بأن الله سينزله على النبي المبعوث من ولد إسماعيل ، وقيل :
إنه تعالى لما أخبر عن القرآن بأنه في اللوح المحفوظ بقوله تعالى : « وإنه في أم
الكتاب لدينا ، وقد كان صلى الله عليه وسلم أخبر أمته بذلك ، فغير ممتنع أن
يقول تعالى : ذلك الكتاب ، ليعلم أن هذا المنزل هو ذلك الكتاب المثبت
في اللوح المحفوظ ، والكتاب جاء في القرآن على وجوه : أحدها الفرض
قال تعالى : كتب عليكم القصاص - كتب عليكم الصيام - إن الصلاة كانت على
المؤمنين كتابا موقوتا - وثانيها الحج والبرهان قال تعالى : « فأتوا بكتابكم
إن كنتم صادقين ، أي برهانكم ، وثالثها الأجل قال تعالى : « وما أهلكنا من
قوم إلا ولها كتاب معلوم ، أي أجل ، ورابعها بمعنى : مكانة السيد رقيقه
قال تعالى : « والذين يتخون الكتاب بما ملكت أيما نكم ، وخامسها القرآن
الكريم .. ونفى الشرك والريب عن القرآن مع وجود المرأتين لأنه تعالى ما نفي
أن أحدا لا يرتاب فيه وإنما نفي كونه متعلقا للريب ومظنة له لأنه لو ضوحه
وسطوع برهانه لا ينبغي لأحد أن يرتاب فيه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : « وإن
كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله ، فإنه لم ينف عنهم
الريب بل أرشدهم إلى سبيل إزاحة هذا الريب وهو أن يجتهدوا في معارضة
سورة من سوره ويبدلوا فيها غابة جهدهم ، حتى إذا عجزوا عنها تحقق لهم أن
ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة ، وقيل : هو خير بمعنى النهي أي لا ترتابوا
فيه كقوله تعالى « فلا رفق ولا فسوق ولا جدال في الحج ، أي لا ترتقوا
ولا تفسقوا ولا تجادلوا ، والريب في الأصل مصدر رابى الشيء إذا أوجد
فيك الريبة وهي قلق النفس واضطرابها ، وسمى به الشك لأنه يقلق ويزيل
الطمأنينة ، وفي الحديث « دع ما يريبك إلا ما لا يريبك ، فإن الشك ريبة
والصدق طمأنينة ، ومعناه : اترك ما فيه شك إلى ما لا شك فيه ، فإذا ارتابت
نفسك في شيء فتركه أو اطمأنت إليه فافعله فإن نفس المؤمن تطمئن إلى
الصدق وترتاب من الكذب ، وهذا مخصوص بذوى النفوس الشريفة
القدسية الطاهرة .

وجملة الأمر أن قوله تعالى « كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه » في معنى قوله تعالى « ذلك الكتاب لا ريب فيه ، الواردة في مطلع سورة البقرة ، وهذا على تفسير الحرج بالشك ، أو قل : إن هذا مرجح لتفسير الحرج بالشك ليتلأم معنى الآية هنا مع معنى الآية في سورة البقرة .

والإنذار : التعليم المقترن بالتخويف من سوء عاقبة المخالفة . والذكرى : هي مصدر ذكر الشيء بقلبه أو لسانه ، والإسم منه الذكر بالضم والنكسر . والكتاب والقرآن : كلاهما يطلق على الكل وعلى البعض ، تقول : سمعت فلانا يقرأ القرآن أو يتلو كتاب الله إذا سمعت منه بعضه . ومعنى الآية الثانية من هذه الآيات الثلاث : أن هذه السورة كتاب أنزله الله إليك لتبلغه للناس كافة وتخوفهم سوء عاقبة مخالفة ما فيه من أمر ونهى ، وتذكر به المؤمنين ، فلا يكن في صدرك ضيق وغم منه ، أو لا يكن في صدرك شك في أنه من عند الله سبحانه . نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الحرج وضيق الصدر في القرآن ، والنهي لا يكون إلا عن أمر يتصور وقوعه وهو مظنة الوقوع ، والأمر كذلك هنا من وجهين : الأول : أن القرآن نفسه عظيم واحتماله عظيم ، وقد قال الله سبحانه فيه : « إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً » ، وقال « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » ، وقد كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم الشديد البرد فينقسم عنه الوحي وهو يتفصد عرقاً ، وكان يكاد يهيم لشدة وقعه وعظيم تأثيره . وأي قلب يحتمل وصدور يتسع لكلام الله سبحانه ينزل به الروح الأمين إذا لم يتول الله سبحانه شرحه ويتول إعانته على حمله ؟ والوجه الثاني : أنه كلف إبلاغه وهداية الناس به وإصلاحهم ، والمتصدى لذلك لا بد أن يتوقع أذى ومقاومة وعتا ، وأن يلقى أشد الطعن في شخصه وفي الكتاب الذي يحمله ، وقد حصل ذلك فعلاً حيث لاقى من أهله وعشيرته وقومه ولاقى من العرب وغيرهم مالاتي ، وقد قال الله سبحانه « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » ، وقال له « واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن

عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ، وقال ، فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل إليه كنز أو جاء معه ملك . . .
نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ضيق الصدر على رأى ، أو عن الشك على رأى آخر ، وقد جاء مثل هذا النهى عن الشك فى آية أخرى حيث قال الله سبحانه : . فإن كنت فى شك مما أنزل الله إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ، . وقد جاء النهى على صورة بدیعة ، فإن النهى لم يوجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى ظاهر الأمر وإنما وجه إلى الضيق ، فهى الضيق عن أن يكون فى صدره ، وهو أبلغ من توجيه الخطاب إليه وأرفق ، وكان الحرج لو كان بما يصح نهي لوجه إليه النهى ، فاته أنت عنه بعدم التعرض له وبعدم التعرض لأسبابه . ونظيره فى اللغة إذا نهيت شخصا عن أن يكون عندك : لا أرينك ها هنا . وقد كان حق الكلام أن يكون هكذا : كتاب أنزل إليك لتتذرب به وذكرى للؤمنين فلا يكن فى صدرك حرج منه . لكن النهى جاء قبل قوله : لتتذرب به وذكرى للؤمنين ، اهتماما بأمر فى الحرج قبل الإنذار والتذكير ، فإن الإنذار لا يكون على الوجه الأكمل إلا إذا اتقى الحرج وانشرح الصدر وشرح الصدر يشيع فى النفس السرور ، وفى الأعضاء النشاط ، وفى العقل الصفاء ، فيقبل الداعى بعزيمة صادقة وهمة ماضية . وعلى العكس من هذا يفعل ضيق الصدر . وكل عامل فى عمل من الأعمال البدنية أو العقلية فى أشد الحاجة إلى توفير همته وصفاء ذهنه ومضاء عزمه وانشراح صدره . وقد أطلق الله سبحانه الإنذار فقال : لتتذرب به ، وقيد الذكرى فقال : وذكرى للؤمنين ، كما قال فى آية أخرى : هدى للبتقين ، والسرفيه أن النفوس البشرية على قسمين : نفوس بليدة جاهدة جاهلة ركنت إلى المادة وقيدتها الشهوات والاندات ، جبلت على الإيذاء ، لا تستطيع أن ترى أثر النعمة على الخلق ، ويلذ لها أن ترى النار تحرق البلاد والعباد ، ويؤلمها أن ترى الناس فى هناء ووفاق ، عاقها طبعها عن الشوق إلى مقام القدس واستجلاء الأنوار الإلهية من العوالم القدسية ، وعن التعرض

لنفحات الحق . ونفوس شريفة مشرقة بجوهرها ، حينها دائماً إلى الكمال ،
وهمها الوصول إلى اللذات الروحية والاتصال بعالم القدس ، والتعرض
لتجليات الحق ، وأن ترى الناس في سعادة يتقبلون في النعمة . وبعثة الأنبياء
في حق التسمم الأول إنذار وتخويف وترغيب ، فهم في حاجة إلى موقظ ومنبه
ومخوف ومرغب ، لا يتركون شهواتهم إن تركوها ولا تقائصهم إن فارقوها
إلا فوق نار تأكل الأبدان وتشوى الوجوه وتحرق الجلود ، كلما نضج جلد
بدل بجلد ، وإلا فوق سلاسل وأغلال وحيات ومطارق ، وإلا طمعا في ما كل
شهى ومشرب هنى وخمر لذة للشاربين وعسل مصفى ، إلى لذات جسمانية
أخرى تضارع لذات الدنيا وتفوقها ، أولئك لاحظ لهم في إدراك اللذات
المعنوية الروحية . وبعثة الأنبياء في حق القسم الثاني تذكير وتنبه ، فإن
تعمسهم بجواهرها مستعدة للاتصال بالحضرة الإلهية ، والتمتع باللذات
الروحية ، منجذبة إلى الكمال ، لكن هذه النفوس لما اتصلت بالأجسام
غشيتها غواش من ظلمة الطبيعة ، فعرض لها نوع من الغفلة يكفى لإزالتها سماع
الدعوة والتذكير ، وإذ ذاك تذكر شأنها وتشتاق إلى ما يناسبها ويليق بها من
لذة العلم والمعرفة ولذة التمتع برضوان الله ، وتجد في ذلك روحها وربحانها
وراحتها وأمنها واطمئنانها ، والذكرى تنفع المؤمنين ، وقد قال الله سبحانه :
لتنذر به ، ولم يذكر من ينذرهم ، للإشارة إلى أنه تذكير الناس أجمعين ، وأن
رسالته عامة للخلق ، وقد صرح بهذا في آية أخرى : « تبارك الذى نزل
الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » .

أما الآية الثالثة وهى « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، الخ ، فالمراد بما أنزل
إلى الرسول صلوات الله عليه هو القرآن الكريم ، أما السنة النبوية فهى
مفسرة للقرآن وشارحة له ، وهى مثله فى وجوب اتباعها والعمل بها ، قال
تعالى : « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى » ، وقال : « وما أتاكم
الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » ، والمعنى : قل لهم يا محمد : اتبعوا
ما أنزل إليكم من ربكم ، وخذروا ما أتم عليه من الشرك . فوجد فى الآية السابقة

أن الله عز وجل طلب من النبي صلى الله عليه وسلم الإنذار ، وفي هذه الآية ذكر الإنذار العام الموجه إلى الناس وهو طلب اتباع ما أنزل الله سبحانه ، واتباعه بعد ذلك بالتهديد والتخويف ، وذكر هنا اسم الرب سبحانه عند طلب اتباع ما أنزله الله ، وذلك لأن اسم الرب فيه معنى الترية والتدبير والعناية بمن يريه ويدبره ، والمربي يعطى من يريه حظه في كل طور من أطوار حياته ، يلاحظ جسمه فيعطيه الغذاء الصالح اللائق به ، ويمنعه عن كل شيء يؤذيه ، ويعده للتعليم بقدر ما تحتمله حواسه وقواه ، ويلاحظ عند نمو العقل عقله فيعطيه من المعارف ما يليق به ، ويتدرج معه من البسيط إلى المركب ، ومن السهل إلى الصعب ، ويعده للحياة في المجتمع ، ويهيئه له بيئة سليمة من التقاوس والمعائب ، بعيدة عن الأحقاد ، ويريه على أن يعيش مع الناس في مودة ووفاء ، يرحم الفقير البائس ، ويعطف على المسكين ، وينيث المضطر . هكذا يفعل المربي الصالح . والله سبحانه هو المربي الخالق القادر العالم الحكيم . وقد جاء الدين القيم وفيه نظام تربية الأجسام ، ونظام تربية النفوس وتربية العقول ، أحل للناس الطيبات ، وحرم عليهم الخبائث ، وحرم الإسراف في كل شيء وطلب القوام ، ووضع لهم قواعد الأخلاق لإصلاح المجتمع ، وفي القرآن الكريم من هذه النظم ما لو عمل الناس به لعاشوا في الجنة وهم في الدنيا . وحرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وبين العقائد الصحيحة في عالم الغيب بما لا يصل العقل إليه ، وطلب إلى الناس العلم والمعرفة ، وزهدهم في التقليد والشك . هذا شأن المربي الحكيم العليم ، فكل نظام من نظمها صالح ؛ لأنه هو المربي العليم ، لا يجوز أن يتحلل الناس منه ولا أن يتبرموا . ففي الأديان نظام للبدن ، ونظام للروح ، ونظام للمجتمع ، والله غني عن العالمين . وقد دلت الشواهد على أن في العمل بها سعادة ، وفي تركها شقاء . وسيظهر ذلك كلما محصت الفتن الخاق ، وهذبتهم النوائب والشدائد ، ونهتهم المصائب ، وسيتبين أن ذلك هو الحق ، وأن المصير إليه ، فيه السعادة والسلام ، وفيه الشفاء من الأسقام ، وفيه الدواء من أدواء الأنام . والله حمينا ونعم

الوكيل . طلب الله سبحانه اتباع أوامره ، ورفض اتباع أوامر غيره ، ونهى عن أن يتخذ من غير الله أولياء . يأمرون بغير ما أمر وينهون عن غير ما نهى . ويحللون ما حرم ويحرمون ما حلل ، ويلوون آيات الله إلى غير وجهتها ، يفسرونها طبقاً لأهوائهم وأغراضهم ، ويتدعون في دين الله ما ليس منه . يزيدون عليه ويقصون أطرافه كلها دعوتهم الشهوة وحركتهم الأغراض . فيتخذون آيات الله هزواً ولعباً ، ويعملونها بضاعة تجارة إن راجت تمسكوا بها وإن لم ترج أعرضوا عنها . وإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الخالق المدبر ، وكان هو الرب المرئى عباده طبقاً للعلم والحكمة ، كان وحده الحقيق بالولاية ، وكان وحده الأحق بالاتباع ، الله وحده ولي الذين آمنوا : الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، ، قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض ، . والولاية التي تفرد الله سبحانه بها ولاية الخلق والتدبير ، وولاية الرحمة والثواب وكل شأن من شئون الآخرة فهو مالك يوم الدين ، وولاية وضع النظم للإنسان فيما هو غيب ، من حقه وحده أن يحلل ويحرم ، ومن حقه أن يضع نظم الجماعة البشرية . فكل شخص حرم ما أحله الله أو حلل ما حرمه الله فقد جعل نفسه ربا ، وكل شخص اتخذ هذا ولياً فقد اتخذه ربا . لله حق التحليل والتحريم ، وللأنبياء التبليغ عن الله ، وللعلماء التبليغ والبيان عن رسل الله ، يبينون الكتاب بالكتاب والسنة وأعمال السلف الصالح ، ويفهمونه حق فهمه ، يجردون أنفسهم للحق ، ويخلصونهم من العصية والأهواء أما ولاية المؤمنين بعضهم لبعض فمعناها النصرة والتعاون والتعاطف والتراحم لتقوية وحدة المجتمع الإسلامى والأمة الإسلامية ، وأما ولاية أولى الأمر فهي للقيادة والتوجيه وحفظ الأمن ونشر كلمة الإسلام ، وهي ولاية قائمة على تعاليم كتاب الله ودينه القويم . . ومعنى قوله تعالى « قليلاً ما تذكرون ، أى ما تتذكرون وتعتبرون ، وهذا شأن الإنسان أن ينسى الله كلها كان في نعمة . وأن لا يعرفه إلا في الشدائد والمحن والخطوب ..

٤ - وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ فَانِلُونَ
٥ - فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ .

٦ - فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ .

٧ - فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ .

٨ - وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

٩ - وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا
كَانُوا بِئْسَ بَيْتًا يَظْلِمُونَ .

ست آيات كريمة فيها إنذار للشركين والكافرين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأى إنذار هذا الإندار ، كثير من الأمم والشعوب القديمة قد أهلكتها الله ، فجاءها عذابه ليلاً أو نهاراً ، وفاجأها سخط الله وغضبه دون سابق إنذار ، فرفعوا أكفهم إلى الله حين الهلاك يطلبون منه النجاة ، ويعترفون بظلمهم واستحقاقهم لهذا البوار ويوم القيامة سيسأل الله الرسل وأممهم عما صنع هؤلاء وهؤلاء ، وسوف ينبئهم الله بالحقيقة واضحة ليس فيها خفاء ، وسوف تقام الموازين القسط يوم القيامة للحساب ، فمن ثقلت موازينه فهم المفلحون ، ومن خفت موازينه فهم الخاسرون بظلمهم وعنادهم وكفرهم بالرسول والشرائع ورسالات السماء ، فليحذر مشركو مكة خاصة والمشركون والكافرون عامة مثل هذا المصير ، ومثل هذا العذاب والغضب الشديد ، إن لم يؤمنوا برسالة محمد الخالدة ، وإن لم يعتقدوها ويعملوا بما فيها .. وليعتبروا بمصير الأمم البائدة ، والشعوب الهالكة ، والمدن الماضية ،

والقرى التي طمسها الله عز وجل بعذابه .. هذا والقرية : مجتمع الناس .
ولا تسمى قرية إلا وفيها مساكن لأهلها وسكان منهم ، والمراد بالقرية المدينة .
أو الأمة ، والبيات : الإضارة على العدو ليلا والايقاع به على غفلة . والقائلون :
هم الذين يستريحون في النهار وقت القائلة وإن لم يناموا . والبأس : الشدة .
والقوة والعذاب الشديد . والدعوى : من معانيها القول . لما أمر الله سبحانه .
باتباع أوامره ، حذرهم في هذه الآية والآية التي بعدها عاقبة المخالفة وجزاء
المخالفة . والعصيان منه ما هو دنيوي ، ومنه ما هو في الدار الآخرة وفي
هذه الآية تحذير من العقاب الدنيوي ، وهو التحذير من النعمة تحل بالقرى فهلك ،
ومن البأس والعذاب يحل بأهلها فيبيدون . يقول الله سبحانه إنه كثيرا ما أهلك
القرى وأنزل عليهم نعمته وعذابه بسبب العصيان ومخالفة النظام الإلهي ،
فبعض القرى جاءها العذاب ليلا ، وبعض القرى حل بها العذاب نهارا وقت
الراحة ، فما كان دعواهم وقولهم إذ جاءتهم أسباب الهلاك وعابنوها وأيقنوا
بوقوعه إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ، معترفين بالذنب مقرين باستحقاق العقوبة .
ولا يظلم ربك أحدا . وعقوبة الأفراد على المعصية لا تطرد في الدنيا وتطرد
في الآخرة ، وعقوبة الأمم على المعاصي تطرد في الدنيا والآخرة ، يشير إلى
ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « إذا خفيت الخطيئة لا تضر إلا صاحبها ، وإذا
ظهرت ولم تغير ضرت العامة » . وعصيان الأمم على ضريين : عصيانها بمخالفة
أوامر الله سبحانه وشرائعه ، وعصيانها بمخالفة السنن الكونية الشاملة للأشياء ،
فما من نوع إلا أوتي السلاح الذي به يحافظ على نفسه ، وأوتي بالغريزة
والفطرة وقوة المحافظة على الفرد والنوع ، وقد أوتي الإنسان قوة عقلية وقوة
مادية ، فإذا أهمل ما توجهه الغريزة فقد ضل ، وإذا أهمل ما يوجهه الدين فقد
ضل . وهلاك الأمم على ضريين : هلاك مادي وفناء ظاهر ، وهلاك معنوي
وفناء أدبي ، ولكل أمة أجل . والآجال والمواقيت تختلف باختلاف أحوال
الأمم في القوة والضعف والقلة والكثرة . فمن الأمم أمم بادت بالغرق ،
وأمم بادت بالصواعق ، وأمم بادت بالزلزل والبراكين ، ومن الأمم أمم

ذلت بعد العز ، وافتقرت بعد الغنى ، وضعفت بعد القوة ، وأصبحت تابعة بعد أن كانت متبوعة ، وخادمة بعد أن كانت مخدومة ، وجاهلة بعد أن كانت عالمة ، ورعية بعد أن كانت راعية . وإذا فسقت أمة عن أمر ربها ، وضاع منها الحياء من الله ومن الناس ، واسترسلت في الشهوات ، وغرقت في اللذات ؛ وفشا فيها الظلم ، ولم يقف القوى عند حدود الله ، واغتال أموال الضعفاء والفقراء ، واختل النظام وزال الأمن ، وفقدت الرحمة على البائس والمسكين واليتيم والمحروم ، وانحلت قواها وفسد الأمر فيها ، وتمزقت وحدتها — حق عليها الهلاك ، وجاءها أمر الله وعذابه ليلاً أو نهاراً ، أو هلكت هلاكاً معنوياً فقدت استقلالها وأضاعت كيانها . والتاريخ شاهد ، والحوادث ناطقة والقرآن الصادق يقص الخبر ويسوى العبر . وللأمم علاج ولها طبيب ، أما طبيبها فهو الله سبحانه ، وأما علاجها فهو القرآن ، فما عليها إلا أن ترجع إلى هديه ، وتثوب إلى رشده . وتحافظ على تعاليمه ، وتتدبر معانيه وأغراضه وتحمل بها ، وتقلع عن الغنى والفساد ، وعن الظلم والطغيان ، وعن حياة الشهوات واللذات ، وتستمتع بحياة روحية ، وتذوق لذة العلم والمعرفة والهدى والتقوى . إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال . وقد جرينا في تفسير الآية على أن الإهلاك على ضربين : منه بأس بالليل ، ومنه بأس بالنهار ، وعلى ذلك فالأس هو الإهلاك ، والإهلاك هو الأس . أجل ثم فصل ، ففي ذكر الإهلاك دلالة على الأس ، وفي ذكر مجيء الأس دلالة على الإهلاك . قال أبو جعفر : وإذا كان ذلك كذلك كان سواء عند العرب ، بدىء بالإهلاك ثم عطف عليه الأس ، أو بدىء بالأس ثم عطف عليه الإهلاك ، كقولهم : زرتني فأكرمتني ، إذا كانت الزيارة هي الإكرام سواء عندهم تقديم الزيارة وتأخير الكرامة ، أو تقديم الكرامة وتأخير الزيارة ، فتقول : أكرمتني فزرتني أو زرتني فأكرمتني ، وحرف (أو) هنا للتفصيل ؛ فإن قيل : أقالوا إنا كنا ظالمين قبل الهلاك فيكون قولهم قبل مجيء الأس ، أو بعد الهلاك

فتلك حالة قد هلكوا فيها؟ قيل ليس كل الأمم كان هلاكها في لحظة ليس بين أوله وآخره مهل ، وقد يظهر سبب الهلاك ويتيقن به قبل حصواه ، ويكون هناك وقت يكون فيه القول « إنا كنا ظالمين » .

ويوم القيامة يسأل الله الأمم ماذا عملوا فيما جاءتهم به الرسل من عند الله؛ هل عملوا بما أمروا به وابتعدوا عما نهوا عنه؟ ويسأل الله الرسل؛ هل بلغوا أو قصروا؟ وجاء في سؤال الرسل « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ، ، « يوم يجمع الله الرسول فيقول ماذا أجبتم؟ قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ، ، « ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتهم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل؟ قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا . فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ، ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا . . يسأل الله سبحانه هؤلاء وهؤلاء ثم يقص عليهم عن علم تام كل ما وقع من الفريقين ، فإنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة ، وما كان غائبا عنهم في وقت من الأوقات ولا في حال من الأحوال وهو معهم إذ يبیتون ما لا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطا . هذا السؤال هو الحساب ، ثم يتلوه الجزاء ، وليس هو سؤال استرشاد واستخبار ، بل هو سؤال تقرير وإعلام وإبكار وتوبيخ في حق الأمم . أما في حق الرسل فليكون جوابهم شهادة على أهمهم : وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا . . وفي الحديث الشريف « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فأعدوا للسائل جوابا . قيل وما الجواب؟ قال : أعمال البر . . وعنه صلى الله عليه وسلم « لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيما عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه . كل الناس مسئول : الإمام يسأل عن رعيته ، والرجل يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل

عن بيت زوجها ، . تضمنت هذه الآية سؤال الأمم ، غير أنه جاء في آيات أخرى أنه لا يسأل أحد ، مثل قوله تعالى : فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ، ، وجاء في آيات أنه لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم ، ومنه قوله تعالى : « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » . وقيل في الجواب عن ذلك : إن للقيامة مواقف متعددة ، فواقف فيها السؤال ، ومواقف لا سؤال فيها ، بل يصرَف كل أحد إلى المكان الذي يستحقه ، « يعرف المجرمون بسيئاتهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام » . وقيل إن المنى هو سؤال الاسترشاد لأن الله غنى عن أن يعرف أحوال الناس من الناس ، والمثبت هو السؤال المؤلم المخزى ، كما يقول الرجل لمن صنع معروفًا ثم أنكره : ألم أحسن إليك ، ألم أصلك ، ألم أدفع المكروه عنك ؟ وفي يوم القيامة يجزى الناس على أعمالهم ، والجزاء على حسب الأعمال ، وهي تتفاوت ، وإنما تضبط بالوزن ، والله سبحانه يعطى كل واحد جزاء عمله بالعدل والقسط « لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء » . « ولا يظلم ربك أحدا » ، وإن تك مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ، . والأصل في الوزن أنه عمل يراد به تعرف مقدار الشيء بآلة هي الميزان ، لكنه يطلق على العدل أيضا ، ومنه قوله تعالى « الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان » ، « وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » . وللمسلمين رأيان في الوزن : الأول : أنه العدل التام في تقدير ما به يكون الجزاء . وقد نقل ذلك عن مجاهد والأعمش والضحاك من مفسرى السلف ، وعليه جمهور المعتزلة . قال الراغب : والوزن يومئذ الحق : إشارة إلى العدل في محاسبة الناس ، كما قال : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا » ، والتجوز بالوزن والميزان في كلام العرب كثير . والرأى الثانى : أن هناك ميزانا حقيقيا ووزنا حقيقيا ، وعليه أكثر العلماء ، وهم بعدد مختلفون في أن الأعمال هي التي تودع في الميزان أو أن صحائف الأعمال هي التي تودع في الميزان ، وفي أن هناك موازين متعددة لكل واحد ميزان ولكل عمل ميزان . أو أن هناك ميزانا واحدا للجميع .

ومعنى الآية على كل حال : والوزن في ذلك اليوم الذي يحاسب فيه الناس على أعمالهم هو الحق الذي تحقق به الأمور وتعرف به حقيقة كل واحد وحقيقة ما يستحقه من الثواب والعقاب . فمن ثقلت موازينه يعنى رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرة الحسنات فأولئك هم الفائزون بالنجاة من العذاب ، والفائزون بالنعيم في دار الكرامة . ومن خفت موازينه ، أى شالت كفة ميزانه ولم ترجح بسبب كفره وعصيانه وكثرة سيئاته ، فأولئك الذين خسروا أنفسهم وأضاعوها وحرموها ، ما كان ينبغي أن يكون لها من الفوز والنعيم ، وهم لم يخسروها إلا بسبب ظلمهم وكفرهم بآيات الله ، فقواه تعالى : يظلمون ، هنا ، معناه يكفرون . وفي آية أخرى : إن الشرك لظلم عظيم ، . وقد أشارت الآية إلى فريقين : فريق المؤمنين الناجين ، وفريق الكافرين الخاسرين . وهناك فريق آخر وهم أهل الأعراف ، وسيأتى ذكرهم في آيات أخرى . ولا شك في تفاوت أفراد كل فريق ، وأن بعض الأفراد أشد رجحانا من الآخر في فريق المؤمنين . وبعض الأفراد أشد خسرانا في فريق الخاسرين .

يقول الله عز وجل في هذه الآيات الست الكريمة ... « وكم من قرية أهلكناها ، أى أهلكنا أهلها ودمرناهم وأنزلنا عليهم العذاب ، وكم خيرية . وهى مفعول لأهلكنا ، وهى للتكثير ، فجاءها ، أى أهلها ، بأسنا ، أى عذابنا ، وجمىء البأس قبل الإهلاك فتقدر الإرادة أى : أردنا إهلاكها ، وقيل : الإهلاك الخذلان ، وعلى هذا فلا حاجة إلى تقدير . « بيانا ، أى وقت السكون في البيوت ليلا كما جاء قوم لوط عليه السلام ، أو هم قائلون ، أى نائمون وقت القائلة وهى نصف النهار أو مستريحون من غير نوم كما أهلكنا قوم شعيب عليه السلام ، أى مرة جاءها ليلا ومرة نهارا ، وإنما خص هذين الوقتين لأنهما وقت دعة واستراحة فيكون جمىء العذاب فيهما أقطع ، وفي هذا وعيد وتخويف للكفار كأنه قيل : لا يغتروا بأسباب الأمن والراحة فإن عذاب الله إذا نزل نزل دفعة واحدة ، فما كان دعواهم ، أى قولهم ، إذ جاءهم بأسنا ،

أى عذابنا ، إلا أن قالوا ، أى إلا قولهم ، إنا كنا ظالمين ، أى فيما كنا عليه حيث لم تتبع ما أنزل إلينا من ربنا وذلك حين لا ينفعهم الاعتراف ، فلنسالن الذين أرسل إليهم ، أى المرسل إليهم وهم الأمم ، يسألهم الله تعالى عن قبول الرسالة وإجابتهم الرسل ، ولنسالن المرسلين ، أى عما أجيبوا به كما قال تعالى ، يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ، . وقيل : نسال المرسلين عن الإبلاغ ، والمراد من هذا السؤال توبيح الكفار وتقريرهم ، والمنفي في قوله تعالى ، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ، سؤال الاستعلام الأول في موقف الحساب ، وهذا عند حصولهم على العقوبة ، فلنقصد عليهم ، أى الرسل والمرسل إليهم ، بعلم ، أى لتخبرنهم عن علم بما فعلوه باطنا وظاهراً ، وبما قالوه سرّاً وعلانية ، وما كنا غائبين ، عنهم فيخفي علينا شيء من أحوالهم وأقوالهم ، والوزن ، الوزن لصحائف الأعمال إظهاراً للعدل وقطعاً للعدرة كما يسأل الله عز وجل البشر عن أعمالهم فتعرف بها أسنتهم وتشهد بها جوارحهم ، ويروى أن رجلاً يؤتى به إلى الميزان فينشر عليه تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مد البصر فيخرج له بطاقة فيها كلتا الشهادة فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة^(١) ، وقيل : توزن الأعمال ، روى عن ابن عباس : فيؤتى بالأعمال الحسنة على صورة حسنة وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع في الميزان ، وقيل : توزن الأشخاص لما روى عنه صلى الله عليه وسلم : يؤتى الرجل العظيم السنين يوم القيامة ، فلا يزن عند الله جناح بعوضة ، يومئذ ، أى يوم السؤال المذكور وهو يوم القيامة ، الحق ، أى العدل السوى ، فمن ثقلت موازينه ، أى رجحت على ما يعهد في الدنيا بصحائف الأعمال . وعن الحسن : وحق الميزان توضع فيه الحسنات أن يثقل وحق الميزان توضع فيه السيئات أن يخف ، والميزان واحد ، والعرب قد توقع لفظ الجمع على الواحد ، وقيل : إنه ينصب لكل عبد ميزان ، وقيل جمع الميزان باختلاف الموزونات ، فأولئك هم المفلحون ، أى الفائزون بالنجاة والثواب

(١) البطاقة : ورقة صغيرة تجعل في طي الثوب يكتب فيها ثمنه .

« ومن خفت ، أى طاشت « موازينه ، أى السيئات أى بسببها ، فأولئك الذين خسروا أنفسهم ، أى لأنهم جروها إلى النار ، بما كانوا بآياتنا يظلمون ، أى يخذلون .

١٠ - وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيَشَ قَلِيلًا
مَا تَشْكُرُونَ .

١١ - وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا الْمَلَائِكَةَ اسْجُدُوا
لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ .

١٢ - قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي
مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .

١٣ - قَالَ فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ
إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ .

١٤ - قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ .

١٥ - قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ .

١٦ - قُلْ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ .

١٧ - ثُمَّ لَا تَجِدُنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ
شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ .

١٨ - قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا لَمَّا تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ
جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ .

هذه الآيات التسع الكريمة فيها تعداد نعم الله على البشر ، وهذه النعم جديرة أن تقابل بالشكر لا بالكفر ، وبالطاعة لا بالعصيان ، وأى نعمة أجل

من نعمة تمكن الله للإنسان في الأرض ، وتذليل الحياة له ، وتسخير الوجود لعقله ، حتى استطاع بهذا العقل الذي أنعم الله به عليه أن يطير في السماء وأن يغوص في لجة الماء ، وأن تصعد الصواريخ التي صنعها إلى أجواز الفضاء ؟ وأي نعمة كذلك أجل من جعل كل شيء في الأرض من أسباب معاش الإنسان فيها ؟ وأي نعمة كذلك أعظم من نعمة الخلق والتكوين ؟ ، ثم أفلا يذكر البشر كيف أعز الله الإنسان منذ الأزل ، وكيف أمر إبليس بالسجود لآدم فأبى فطرده الله من جنته ، وأبعده عن رحمته ، وأنظره إلى يوم القيامة ، فهو يترصد للناس يغويهم ويضلهم ويوسوس لهم ، ويزين لهم الشر والباطل والإثم والعصيان . . يقول الله عز وجل في هذه الآيات الكريمة . . . ولقد مكناكم ، أي يا بني آدم ، في الأرض ، أي من سكنها وزرعها والتصرف فيها ، وجعلنا لكم فيها معاش ، جمع معيشة أي أسبابا يعيشون بها أيام حياتكم من أنواع التجارات والصناعات والمآكل والمشارب ، وذلك بفضل الله تعالى وإنعامه على عبده ، وكثرة الإنعام توجب الطاعة للنعمة بها والشكر له عليها ، ثم بين تعالى أنه مع هذه الأفضال على عبده وإنعامه عليهم لا يقومون بشكرها كما ينبغي فقال تعالى « قليلا ما تشكرون ، أي على ما صنعت لكم وأنعمت به عليكم ، وفيه دليل على أنهم قد يشكرون لأن الإنسان قد يذكر نعمة الله فيشكره عليها فلا يخلو في بعض الأوقات من الشكر على النعم ، وحقيقة الشكر تصور النعمة وإظهارها ، وزيادته الكفر وهو نسيان النعمة وسترها ، ولقد ذكر الله جحود إبليس للنعمة ، وشكر آدم لها ، وبدأ بتسجيل أكبر نعمة لله على الناس وهي نعمة الخلق ، ولقد خلقناكم ، أي خلقنا الناس أو خلقنا أباكم آدم ، ثم صورناكم ، أي صورنا الناس وهم في الأرحام ، أو صورنا أباكم آدم ، والمعنى : خلقنا أباكم آدم طينا غير مصور ثم صورناه ، فنزل خلقه وتصويره منزلة خلق الكل وتصويرهم . أو خلقناكم في أصلاب الرجال ثم صورناكم في أرحام النساء ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، على أن الخلق والتصوير لآدم فيكون الترتيب واضحا ، أما إذا كان الخلق والتصوير لبني آدم فتكون « ثم ، بمعنى الواو ، أو للترتيب في مفاصل الأسلوب لافي الواقع » فسجدوا ، أي الملائكة كلهم لآدم .

« إلا إبليس ، هو أبو الجن ، وكان بين الملائكة » لم يكن من الساجدين ، أى
من سجد ، قال ، الله تعالى لإبليس « ما منعك أن لا تسجد ، أى أن تسجد ،
فكلمة ، لا ، زائدة للتأكيد كما فى قوله تعالى « لا أقسم ، أى أقسم ، وقوله تعالى
« وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ، أى يرجعون ؛ نعم إن حمل
« ما منعك ، على معنى ما حملك لم تكن زائدة « إذ أمرتك ، أى حين أمرى
إياك بالسجود لآدم تعظيماً وتوقيراً » قال ، إبليس مجيباً له تعالى : « أنا خير
منه ، وهذا جواب من حيث المعنى ، استأنف به استبعاداً لأن يكون مثله
مأموراً بالسجود لمثل آدم كأن قال : المانع أنى خير منه ولا يحسن للفاضل
أن يسجد للفضول ، فكيف يحسن أن يؤمر به ، وإبليس هو الذى سن
التكبر ، وقال بالحسن والقبح العقليين أولاً « خلقتنى من نار ، أى وهى مشرقة
مضيئة عالية غالبية « وخلقتنى من طين ، أى وهو كدر مظلم ساقل مغلوب ، وقد
ظن إبليس أن الفضل كله هو باعتبار العنصر ، وغفل عما يكون باعتبار الفاعل
كما أشار إليه بقوله تعالى « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ، أى بغير
واسطة ، وباعتبار الصورة كما نبه عليه تعالى بقوله « ونفخت فيه من روحي
فقعوا له ساجدين ، ، وقال محمد بن جرير : « ظن الخبيث أن النار خير من
الطين ولم يعلم أن المفضل ما جعل الله له الفضل ، وقد فضل الله الطين على النار
بوجوه : منها أن من جوهر الطين الرزاق والوقار والحلم والصبر والتواضع
والتضرع فأورثته الاجتباء والمنزلة والهداية ، ومن جوهر النار الحفنة والطيش
والحدة والارتفاع وهو الداعى لإبليس بعد الشقاوة التى سبقت له إلى الاستكبار
والإصرار ، فأورثته اللعنة والشقاوة ، ولأن الطين سبب جميع الأشياء والنار
سبب تفرقها ، ولأن التراب سبب الحياة لأن حياة الأشجار والنبات لا تكون
إلا مع الطين والنار سبب الهلاك ، وسؤال الله تعالى عن المانع من السجود
وهو عالم بما منعه على سبيل التوبيخ ، ولإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره
بأصله وازدراءه أصل آدم عليه الصلاة والسلام ، قال ، الله تعالى لإبليس
« اهبط منها ، أى من الجنة ، وقيل : من السماء إلى الأرض ، والهبوط الإنزال

والانحدار من فوق على سبيل القهقري والهوان والاستخفاف ، فما يكون ،
أى فما يصح ، لك أن تتكبر فيها ، عن أمرى ، لأن الجنة أو السماء مكان الخاشع
أو المطيع لأمر الله تعالى ، وفيه تنبيه على أن التكبر والحقد مما لا يليق بأهل
الجنة والسماء ، وأنه تعالى إنما طرد إبليس لتكبره وحقده ، لا لمجرد المعصية ،
قال صلى الله عليه وسلم - كما رواه البيهقي : من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر
وضعه الله ، وعن عمر رضى الله عنه : من تواضع رفع الله حكمته ومن تكبر
وعدا طوره هضبه الله إلى الأرض ، فأخرج ، منها ، إنك من الصاغرين ،
أى الكفرة الأذلاء ، والصغار الذل والمهابة ، قال الزجاج : استكبر عدو الله
إبليس فابتلاه الله بالصغار والذلة ، وقيل : كان له ملك الأرض فأخرجه
الله منه ، قال ، إبليس عند ذلك ، انظرنى ، أى أخرنى ولا تمتنى ولا تعجل
عقوبتى ، إلى يوم يبعثون ، أى الناس وهو النفخة الأخيرة عند قيام الساعة
، قال إنك من المنظرين ، أى لا إلى ذلك الوقت بل إلى الوقت المعلوم كما بينه
تعالى فى سورة الحجر بقوله تعالى ، إنك لمن المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ،
وذلك هو النفخة الأولى التى يموت فيها الخلق ، وقد أجيب إبليس إلى الإنظار
لما فى ذلك من ابتلاء العباد وما فى مخالفته من عظيم الثواب ، وحكمة ما خلق الله
تعالى من صنوف الزخارف وأنواع اللذات واللهو وما ركب فى النفس من
الشهوات إنما هى ليمتحن الله عز وجل بها عباده ، قال ، أى إبليس ، فيما أغويتنى ،
أى فياغوائك لى والباء للقسم ، أى أقسم ياغوائك ، لا فعدن لهم ، أى لبنى آدم
، صراطك المستقيم ، أى على الطريق الموصل إليكم ، ثم لا تينهم من بنى أيديهم
ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ، أى من جميع الجهات الأربع ولذلك
لم يقل من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما :
ولا يستطيع أن يأتى من فوقهم لثلاث بحول بين العبد وبين رحمة ربه .

وروى عن ابن عباس أيضا : من بين أيديهم أى من قبل الآخرة
فينبئهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ، ومن خلفهم من قبل الدنيا فيزينها لهم ،
وعن أيمنهم أى من قبل حسناتهم أى فيبطؤهم عنها ، وعن شمائلهم أى من قبل

سيتاتهم ، فيزين لهم المعاصي ويدعوهم إليها ، وعن بعض الصالحين : ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربع مراصد : من بين يدي ، ومن خلفي ، وعن يميني ، وعن شمالي ، أما من بين يدي فيقول : لا تخف إن الله غفور رحيم فأقرأ « وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » ، وأما من خلفي فيخوفني الضيقة على مخلفي فأقرأ « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » ، وأما من قبل يميني فيأنيبي من قبل الثناء فأقرأ « والعاقبة للمتقين » ، وأما من قبل شمالي فيأنيبي من قبل الشهوات فأقرأ « وحيل بينهم وبين ما يشتهون » .. « ولا تجد أكثرهم شاكرين ، أي مطيعين ، وقال ذلك ظنا لقوله تعالى « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه » ، ولتعدد أسباب الشر من الشيطان ومبدأ الخير وداعيه واحد وهو الملك الملهم والنفس والهوى ، وقيل : سمع ذلك من الملائكة » قال ، الله تعالى لا إبليس حين طرده عن بابه وأبعده عن جناحه بسبب عصيانه ومخالفته « اخرج منها » أي الجنة أو السماء فإنه لا ينبغي أن تسكن فيها « مذموما » أي محقورا بمقوتنا « مدحورا » أي مبعودا مطرودا عن الرحمة « لمن تبعك منهم » أي من الناس « لأملأن جهنم منكم أجمعين » أي لأملأن جهنم منك بذريتك ومن الناس وفيه تغليب الحاضر على الغائب .

وهذه هي قصة الكفر والعصيان والتكبر والحقد ، قصة إبليس الذي كان من الملائكة فحقد على آدم حين أمره الله عز وجل بالسجود لآدم ، وعصى أمر ربه ، فطرده الله من باب رحمته ، وهي قصة كل كفار أثيم ، ومتكبر عنيد ، وحقوق لثيم ، وشيطان مريب ، له العذاب والطرده من رحمة الله .
ومهما قيل في الشيطان وإبليس من آراء ، فإننا لا يمكن أن نتجاوز حدود ما ذكر الله ، نسلم بوجود الشيطان ، وبأنه سبب الشر في الدنيا ، وبأنه سبب الشر في الدنيا ، وبأنه الموسوس للناس ، والذي يوقعهم في السيئات والمعاصي ، وأنه حاقد على بني آدم ، وأنه مقيم ما أقامت الدنيا ، وأن له العذاب الشديد في الآخرة .

١٩ - وَيَنَادِمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ .

٢٠ - فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِئِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ .

٢١ - وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ الصَّاحِقِينَ .

٢٢ - فَدَلَّهُمَا بِهِنَّ وَرِثَةً فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ .

٢٣ - قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

٢٤ - قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ .

٢٥ - قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ .

وهذه سبع آيات أخرى ، فيها قصة آدم عليه السلام ، قصة الشكر لله وعبادته والاعتراف بالوحيته ، وقصة طاعة الإله العظيم والعبودية له ، وفيها قصة إغراء إبليس لآدم ، حقدًا عليه ، ووقوع آدم في المعصية نسيانًا ، وتبصرة الله له وتوبة الله عليه ، وحياة آدم في الأرض وعمرانه لها هو وذريته . وهي

قصة طويلة لا يمكن أن يحيط بأطرافها قلم .. قال الله تعالى : في هذه الآيات
الكريمة البليغة :

« ويا آدم ، أى وقلنا يا آدم ، اسكن ، . هذه القصة معطوفة على قوله تعالى
« قلنا للبلائكة ، ، فهي معطوفة على قصة إبليس السابقة ، أنت ، تأكيد للضمير
في اسكن ، وزوجك ، أى حواء ، الجنة ، وذلك بعد أن هبط إبليس وأخرجه
« وطرده منها ، فكلما من حيث شئنا ، من ثمار الجنة أى من أى مكان
شئنا ، وفي سورة البقرة قال تعالى : « وكلا ، بالواو ، وقال هنا ، فكلما ، بالفاء
لأن الواو تفيد الجمع المطلق ، والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب ، فالمفهوم
من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو ولا منافاة بين النوع والجنس ؛
ففي سورة البقرة ذكر الجنس وهنا ذكر النوع - على ما ذكره الإمام الرازى في
تفسيره « ولا تقربا هذه الشجرة ، أى بالأكل منها مشيرا إلى شجرة بعينها
أو نوعها « فتكونا من الظالمين ، أى بالأكل منها أى فتصيرا بذلك من الذين
ظلموا أنفسهم « فوسوس لهما الشيطان ، أى إبليس بما مكنه الله تعالى منه
من أنه يجرى من الإنسان مجرى الدم ، ويلقى له في سره ما يميل به قلبه إلى
ما يريد ، وهو أحقر وأقل من أن يكون له فعل ؛ وإنما كل شيء بيده سبحانه
وتعالى ، وهو الذى جعله آلة لمراده منه ومنهم ، فإن من يهدى الله فهو
المهتدى ، ومن يضل فأولئك هم الخاسرون ، ثم بين الله عز وجل علة الوسوسة
لقوله تعالى « ليدي ، أى ليظهر ، لهما ما وورى ، أى ستر وغطى ، أى ليظهر
« عنهما من سوءاتهما ، أى عوراتهما وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا يراها
أحدهما من الآخر ، وقال ، أى إبليس لآدم وحواء ، ما نها كما ربكنا عن هذه
الشجرة ، أى عن الأكل منها ، إلا أن ، أى كراهة أن ، تكونا ملكين ، أى
في عدم الشهوة وفي القدرة على الطيران والتشكل وغير ذلك من خواصهم
« أو تكونا من الخالدين ، أى الذين لا يموتون ولا يخرجون من الجنة أصلا
كما في آية أخرى « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ، « وقاسمهما ،
أى أقسم لهما بالله على ذلك ، وجاء على صيغة المفاعلة للبالغة ، وقيل : أقسم له

بالقبول ، وقيل : أقسم عليه بالله إنه لهما لمن الناصحين فأقسم لهما ، إلى لسكا
لمن الناصحين ، فجعل ذلك مقاسمة ، وقال قتادة : حلف لهما بالله حين خدعهما ،
وقد يخدع المؤمن بالله ، وفيه تفييه على الاحتراز من الخالف وأن الأغلب أن
كل حلاف كاذب ، وأنه لا يحلف إلا عند ظنه أن سامعه لا يصدقه ، ولا يظن
ذلك إلا وهو معتاد للكذب ، وقال بعض العلماء : من خادعنا بالله خدعنا له ،
وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن
صلاة أعتقه ، وكان عبيده يفعلون ذلك طلبا للعتق ، فقيل له : إنهم يخدعونك
فقال : من خدعنا بالله انخدعنا له . وإبليس لعنه الله تعالى أول من حلف بالله
تعالى كاذباً فاعتربه ، فدلاهما بغرور ، أي خدعهما ، يقال : ما زال يدلي لفلان
بالبغور يعني ما زال يخدعه ويكلمه بزخرف القول الباطل ، وقيل : حطهما
من منزلة الطاعة إلى حالة المعصية ، والغرور : إظهار النصح مع إبطان الغش
« فلما ذاقا الشجرة ، أي أكلا من ثمرها ، وفي ذلك دليل على أنهما تناولا
البسير من ذلك قصدا إلى معرفة طعمه ، إذ الذوق يدل على الأكل البسير ،
وقيل : ذرق الشجرة كناية عن مجامعة آدم لحواء ، بدت ، أي ظهرت ، لهما
سوراتهما ، أي عوراتهما ، وتجاافت عنهما لباسهما حين أبصر كل واحد منهما
ما وورى عنه من سوءة صاحبه بأن رأى عورة نفسه وعورة صاحبه ،
والعورة سوءة لأن انكشافها يسوء صاحبها ، قال وهب : كان لباسهما من
من النور يحول بينهما وبين النظر ، فلما وقعا في الذنب بدت لهما سوراتهما
فاستحيا ، وطفقا ، أي فأقبلا وجعلا ، يخصفان ، أي يلصقان ، عليهما من
ورق الجنة ، أي من ورق التين ، قال البغوي : حتى صار كهية الثوب ، قال
الزجاج : يجعلان ورقة على ورقة ليسترا سوراتهما ، وروى عن أبي ابن كعب
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان آدم رجلا طويلا كأنه نخلة
سحوق كثير شعر الرأس فلما وقع في الخطيئة بدت له سوءاته - وكان لا يراها -
فانطلق هاربا في الجنة ، فعرضت له شجرة من شجر الجنة فخبسته بشعره ،
فقال لها : أرسليني فقالت : لست بمرسلتك ، فتاداه الله عز وجل يا آدم أمنى تفر؟

فقال : لا يارب ولكنى استحييتك ، وناداهما ، أى خاطبهما ، ربهما ، بقوله : ألم أنهكما عن تلكا الشجرة ، أى عن الأكل من ثمرها ، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبین ، أى بين العداوة لكما وقد بان لكما عداوته بترك السجود تعنتا وحسدا ، وفى ذلك عتاب على مخالفة النهى ، وتوبيخ على الاعتراض بقول العدو ، ودليل على أن مطلق النهى للتحريم . وفى رواية لابن عباس أن الله عز وجل قال : فإني أعطيت حواء ألا تحمل إلا كرها ولا تضع إلا كرها ، قالوا زبنا ظلمنا أنفسنا ، أى ضررناها بمخالفة أمرك وطاعة عدونا وعدوك ، فإن لم تتب علينا نستمر فى عصياتنا ، وإن لم تغفر لنا ، أى تمحو ما عملناه ، وترحمنا ، أى فتلى درجاتنا ، لنكونن من الخاسرين ، فى الأرض فأعزبت الآية أنهما فزعا إلى الإنصاف بالاعتراف بذنبيهما ، وإن كان إنما هو خلاف الأولى لأنه بطريق النسيان كما فى سورة طه ، قال قتادة قال آدم : رأيت إن تبت إليك واستغفرتك ؟ قال : أدخلك الجنة ، وأما إبليس فلم يسأل التوبة وسأل (النظرة) فأعطى كل واحد منهما ما سأل ، وقال الضحاك : استدل من يرى صدور الذنب من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية ، ورد بأن درجة الأنبياء فى الرفعة والعلو والمعرفة بالله تعالى فى أعلى الدرجات ولكن يؤاخذون بما لا يؤاخذ به غيرهم ، وأنهم ربما عوتبوا بأمر صدرت منهم على سبيل التأويل ؛ فهم بسبب ذلك خائفون وجلون ، وهى ذنوب بالإضافة إلى علو منصبهم ، وبالنسبة إلى كمال طاعتهم . لا أنها ذنوب كذنوب غيرهم ، وآثام كآثام غيرهم ، فكان ما صدر منهم مع طهارتهم ونزاهتهم ، وعمارة بواطنهم بالوحي السماوى والذكر القدسى ، وعمارة ظواهرهم بالعمل الصالح والخشية لله تعالى ذنوب بالنسبة إلى أحوالهم ، فقالا ذلك على عادة المقربين فى استعظام الصغير من السيئات وتحقير العظيم من الحسنات ، وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة البقرة ، ومن جملة ذلك أن آدم إنما أكل من الشجرة قبل النبوة ، قال ، الله تعالى ، اهبطوا ، أى آدم وحواء بما اشتملنا عليه من ذريتنا ، ويدل لذلك قوله تعالى فى سورة طه : اهبطا بضمير التثنية ،

أو أن الأمر لهما وحدهما والجمع هنا على سبيل التعظيم « بعضكم ، أى بعض الذرية » لبعض عدو ، أى من ظلم بعضهم بعضا ، وقيل : يعود الضمير لآدم وحواء وإبليس ، فالعداوة ثابتة بين آدم وإبليس وذرية كل واحد من آدم وإبليس « ولستم فى الأرض ، جنسها » مستقر ، أى مواضع استقرار « و لكم فيها » متاع ، أى تمتع « إلى حين ، أى إلى انقضاء آجالكم ، وقيل : إلى انقطاع الدنيا ، وعن ثابت البناني رحمه الله تعالى لما أهبط آدم وحضرته الوفاة أحاطت به الملائكة فجعلت حواء تدور حولهم ، فقال لها : خلى ملائكة ربى فأبما أصابنى الذى أصابنى منك ، فلما توفى غسلته الملائكة بماء وسدر وترأ ، وحنطته وكففته فى الثياب ، وحفروا له ولحدوة بسرنديب بأرض الهند وقالوا لبنية : هذه سنتكم بعده « قال ، الله تعالى « فيها ، أى الأرض » تحيون ، أى تعيشون أيام حياتكم « وفيها تموتون ، أى وفيها وفاتكم وموضع قبوركم « ومنها تخرجون ، أى يوم القيامة تخرجون للحشر والجزاء .

وقد وردت قصة آدم فى جميع الكتب السماوية ، وجاء فى العهد القديم فى سفر التكوين ، الإصحاح الثانى ما نصه : « جبل الرب الإله آدم ترابا من الأرض ، ونفخ فى أنفه نسمة حياة ، فصار آدم نفسا حية ، وغرس الرب الإله جنة فى عدن شرقا ، ووضع هناك آدم ، وأبنت الرب الإله من الأرض كل شجرة شبيهة للنظر وجيدة للأكل ، وشجرة الحياة فى وسط الجنة ، وشجرة معرفة الخير والشر ، وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة ، وأخذ الرب الإله آدم ووضع فى جنة عدن ليعملها ويحفظها ، وأوحى الرب الإله آدم قائلا : من جميع شجر الجنة تأكل أكلا ، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت ، وقال الرب الإله ليس جيد أن يكون آدم وحده ، فأضع له معيناً نظيره ، ثم يتحدث بعد ذلك عن الأسماء التى علمها الله لآدم فيقول : « وجبل الرب من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء ، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها ، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها ، فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء

وجميع حيوانات البرية ، وأما لنفسه فلم يجد معينا نظيره ، ثم تكلم عن خلق حواء ؛ وفي الإصحاح الثالث يتكلم العهد عن الحية ووسوستها لحواء ، وأكل حواء وآدم من الشجرة ، وهنا كما يقول العهد القديم : « انفتحت أعينهما ، وعلمتا أنهما عريانان ، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر ، ثم يتكلم عن عتاب الله لآدم وتوبته وإخراجه هو وحواء من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها ؛ وفي الإصحاح الرابع يتكلم العهد القديم عن ميلاد قابيل وهايل وما كان بينهما ، وفي الإصحاح الخامس جاء ذكر شيث ابن آدم وميلاده وآدم في الثلاثين والمائة من عمره ، ويقول : إن أيام آدم كانت بعد ما ولد شيثا ثمانمائة سنة ، فكانت كل أيام آدم التي عاشها تسعمائة وثلاثين سنة .

وقصة آدم جاء ذكرها في القرآن الكريم في مواضع عدة ، منها هذا الموضع ، وفي أول سورة البقرة ، وفي سورة طه ، وقد أفاض الشيخ عبد الوهاب النجار في قصة آدم في كتابه « قصص الأنبياء » . وليس هذا موضع الإطناب في ذكر القصة وسردها ، فلنكتف بذلك في هذا المقام ..

٢٦ - يَبْنِي ۙ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤْرِي سَوْءَ تِكُمْ
وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ
يَذْكُرُونَ .

٢٧ - يَبْنِي ۙ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ
الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ
هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ
لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ .

هاتان الآيتان الكريمتان الخطاب فيهما موجه إلى بني آدم عامة لإظهار

فضل الله عز وجل على البشر كافة ، ولتوجيههم إلى خير الدنيا والآخرة ،
وإلى عصيان الشيطان وعدم الخضوع لإغرائه ووسوسته ... والآية الأولى
يتمن الله عز وجل فيها على بنى آدم بما هداهم إلى اتخاذ الثياب لستر العورة
وللزينة ، والآية الثانية ينهى فيها الله عز وجل بنى آدم عن الوقوع في فتنة الشيطان
وإغرائه ، وعن الخضوع لوسوسته وتزيينه ، وكفى ما صنعه مع أبيهم آدم ،
من إخراجهم من الجنة هو وحواء ، ومن كشف ثيابها وعورتها ، ومن
وسوسته لهما بالمعصية .

قوله تعالى « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا ، أى ألهمناكم باتخاذها أو
خلقناه لكم بإرادتنا ، وبأسباب نازلة من مطر ونحوه ، ونظيره قوله تعالى :
« وأنزل لكم من الأنعام ، وقوله تعالى « وأنزلنا الحديد ، ، وقيل : كل بركات
الأرض يجوز أن تنسب إلى السماء « يوارى ، أى يستر « سواكم ، أى
عوراتكم . روى أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون : لانطوف في
ثياب عصينا الله تعالى فيها ، وكان الرجال يطوفون بالنهار والنساء يطوفون بالليل
عراة قال قتادة : كانت المرأة تطوف وتضع يدها على عورتها ، فنزلت ، قال
البيضاوى : ولعله سبحانه وتعالى ذكر قصة آدم تقديما لذلك ، حتى نعلم أن
انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من الشيطان وأنه أغواهم في ذلك
كما أغوى أبويهم « وريشا ، أى ولباسا تتجملون به ، والريش للطائر معروف
وهو لباسه وزينته كالثياب للإنسان ، واستعير لأنه لباسه وزينته ، والمعنى :
« وأنزلنا عليكم لباسا يوارى سواكم ولباسا لزينتكم . كما قال تعالى « لتركبوها
وزينة ، وقال تعالى « ولكم فيها جمال ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله جميل
يحب الجمال ، وقال ابن عباس : وريشا - أى مالا ، يقال : تريش الرجل : تمول ،
ولما ذكر سبحانه وتعالى اللباس الحسى وقسمه إلى ساتر ومزين أتبعه اللباس
المعنوى فقال « ولباس التقوى ، قال ابن عباس هو العمل الصالح ثم زاد الله
تعالى في تعظيم المعنوى بقوله « ذلك خير ، أى ولباس التقوى هو خير من
لباس الثياب لكونه أعم اللباسين ، لأن نزعه يكشف العورة الحسية والمعنوية ،

فلو تجمل الإنسان بأحسن الملابس وهو غير متق كانت له سوآت ، ولو كان متقيا وليس عليه إلا قطعة من الثياب توارى عورته كان في غاية الجمال والكمال ، وقال قتادة : لباس التقوى هو الإيمان ، وقال الحسن : هو الحياء لأنه يبعث على التقوى ، وقال عثمان بن عفان : هو السميت الحسن ، وقال ابن الزبير : هو خشية الله تعالى والعمل الصالح يشمل هذه الأمور كلها ، ذلك ، أى إنزال اللباس ، من آيات الله ، أى الدالة على فضله ورحمته « لعلمهم بذكر ون ، فيعرفون نعمة الله فيتعظون ويتورعون عن القبائح ، وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر ظهوره ، والسوأة وخصف الورق عليها إظهارا للئنة فيما خلق من اللباس ، ولما فى العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة ، إظهارا وإشعارا بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى ، يابنى آدم ، أى الذى خلقته ييدى ونفذت فيه من روى ثم أسكنته جنتى وأنزلته منها إلى دار محنتى ، لا يفتنكم ، أى بضلتكم ، الشيطان ، أى البعيد المحترق بالذنوب ، أى لا تتبعوه فتفتنوا فيمنعكم بذلك من دخول الجنة ويدخلكم النار ، كما أخرج أبو بكر من الجنة ، بغتة بعد أن كانا سكناها وتمكنا فيها وتوطنناها ، وقد علمتم أن الدفع أسهل من الرفع وقوله تعالى « ينزع عنهما لباسهما ، نسب نزع اللباس إلى الشيطان وإن لم يباشر ذلك ، لأن نزع لباسهما سبب وسوسة الشيطان وغروره فأسند إليه ، واختلفوا فى اللباس الذى نزع عنهما ، قال وهب : كان لباسهما نورا يحول بينهما وبين النظر ، وقال مجاهد : كان لباسهما التقوى ، وقيل : كان لباسهما من ثياب الجنة ، « ليريهما سوآتهما ، أى عوراتهما ، إنه ، أى الشيطان ، يراكم هو وقيله ، أى جنوده ، وقال ابن عباس : قبيله ولده ، وقال ابن زيد : نسله ، والقبيل جمع قبيلة وهى الجماعة المجتمعة التى يقابل بعضها بعضا ، من حيث لا ترونهم ، للطاقة أجسامهم أو عدم ألوانهم ، وعن ابن عباس أنه قال : إن الله تعالى جعلهم يجرون من ابن آدم مجرى الدم ، وجعل مسكنهم صدور بنى آدم ، وبنو آدم لا يرونهم ، هذا ومنع الرؤية إذا كانوا على خلقتهم الأصلية وإلا فقد يراهم الرأى عند تشكلهم بصورة حيوان أو طير أو غير ذلك ، فان للجن قوة التشكل ،

وهذا أمر شائع ذائع ، والحق جواز رؤيتهم كما هو ظاهر الأحاديث الصحيحة ،
وتكون الآية مخصوصة بها فيكونون مرتين في بعض الأحيان لبعض الناس
دون بعض ، إنا جعلنا الشياطين أولياء ، أى أعوانا وقرناء ، للذين لا يؤمنون ،
لما بينهم من التناسب في الطباع .

٢٨ - وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا
بِهَا قُلْ إِنْ أَلَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ .

٢٩ - قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ
وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ .

٣٠ - فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا
الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهم
مُهْتَدُونَ .

ثلاث آيات كريمة فيها بيان لشريعة الله إلى خلقه ، وأمره إلى عباده ،
وأنه لا يأمر إلا بالخير والقسط وبالصلاة والإخلاص ، وفيها تقرير للبعث
والحساب والجزاء للعاصين والطائعين على حد سواء . . . وقوله تعالى في هذه
الآيات الثلاث الكريمة . . . « وإذ فعلوا فاحشة ، أى كالشرك وطوائفهم
بالبیت عرارة فنهوا عنه » قالوا : أى معللين لارتكابهم إياها بأمرين : أحدهما
قولهم « وجدنا عليها ، أى الفاحشة » آباءنا ، فافتدينا بهم ، والثانى قولهم « والله
أمرنا بها » افتراء على الله سبحانه وتعالى فأعرض الله عن الأول لظهور فساده ورد
عن الثانى بقوله « قل ، لهم يا محمد ، إن الله لا يأمر بالفحشاء ، لأن عادته سبحانه
وتعالى نجرت على الأمر بمحاسن الأفعال والحث على مكارم الخصال » أتقولون
على الله ما لا تعلمون ، ؟ أى بما لا تعرفون أنه قاله ، فإنكم لم تسمعوا كلام الله

من غير واسطة ولا أخذتموه عن الأنبياء الذين هم وسائط بين الله وبين عباده .
وهو استفهام إنكارى يتضمن النهى عن الافتراء على الله ، يا محمد هؤلاء
الذين يقولون ذلك ، أمر ربى بالقسط ، أى بالعدل ، وقال ابن عباس :
أمر بلا إله إلا الله ، وأقيموا ، أى وقل لهم أقيموا ، وجوهكم ، لله ، عند كل
مسجد ، أى اخلصوا له سجودكم ، والتقدير : قل أمر ربى بالقسط وقل أقيموا ،
وقيل معنى الآية : وجهوا وجوهكم حيث ما كنتم فى الصلاة إلى الكعبة ، وقيل
معناه : صلوا فى أى مسجد حضرتم الصلاة ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى
مساجدكم ، وادعوه ، أى اعبدوه ، مخلصين له الدين ، أى الطاعة ولا تشركوا
به شيئاً فان إليه مصيركم ، كما بدأكم ، أى أنشأكم ابتداء ، تعودون ، أى يعيدكم
أحياء يوم القيامة ، حالة كونكم فريقين ، فريقاً هدى ، أى خلق الهداية فى
قلوبهم فحق لهم ثواب الهداية ، وفريقاً حق ، أى ثبت ووجب ، عليهم الضلالة ،
أى بمقتضى القضاء السابق ، وقيل : إن الله تعالى بدأ خلق بنى آدم مؤمناً وكافراً
كما قال تعالى : هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ثم يعيدكم يوم القيامة كما
خلقكم مؤمناً وكافراً ، وقيل يعيشون على ما كانوا عليه ، روى أنه صلى الله
عليه وسلم قال : يعث كل عبد على مامات عليه ، المؤمن على إيمانه ، والكافر
على كفره ، وقيل : من ابتداء الله خلقه على الشقاوة صار إليها وإن عمل عمل
أهل الشقاوة كما أن السحرة كانوا يعملون بعمل الشقاوة فصاروا إلى السعادة ،
وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : إن العبد ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل
النار وإنه من أهل الجنة ، وإنما الأعمال بالخواتيم ، والتقدير : وخذل فريقاً ،
وقوله تعالى : إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، أى دونه ، وهذا تعليل
لخذلانهم وتحقيق لضلالتهم ، ويحسبون ، أى يظنون ، أنهم ، مع ضلالتهم
مهتدون ، أى على هداية وحق ، وفيه دليل على أن الكافر الذى يظن أنه
فى دينه على الحق والجاهد والمعاند فى الكفر سواء .

وبهذا ينتهى الربع الخامس من هذا الجزء الكريم ، وقد تضمن ما تضمن
من الأصول الجليلة والمبادئ الشريفة ، ومن الإرشاد والتوجيه ، ومن

الإندار والتحذير ، ومن الدعوة إلى الإيمان بهدى الله وشرائعه ونوره ..
ففي هذا الربع الكريم :

١ - تنويه بالقرآن الكريم وأمر باتباعه عن يقين وإخلاص ، وترك
اتباع الشياطين ، والأصنام والأوثان ، وقد سعد من أتبع هدى القرآن ، وفاز
من عمل بهديه ونوره ، ونجى من اتخذ الشياطين والأصنام له أولياء
وآلهة ومرشدين .

٢ - تحذير المشركين من مثل مصارع الأمم البائدة ، ومن سوء مصائرهم
ومن العذاب الشديد الذى حاق بها ، ومن الخذلان العظيم الذى خذله الله
عز وجل إياها ، وتأكيد مسئولية هؤلاء المشركين يوم القيامة ، يوم يسأل الله
جل وعلا الرسل وقومهم ، وينبئهم الله بكل شيء : صغيره وكبيره على السواء ،
يوم يفوز الصالحون الذين ثقلت موازينهم فى الحساب ، ويخيب الطالحون الذين
خفت موازينهم عند الله ، والذين خسروا أنفسهم بسبب كفرهم وعنادهم
وإصرارهم وظلمهم لله ولأنفسهم .

٣ - التنويه بنعم الله تعالى على البشر كافة ، وفى مقدمتها نعمة الخلق
والتكوين ونعمة التمكين فى الأرض وتسخيرها للناس وجعل معاشهم منها .
٤ - التنبيه إلى أن الشاكرين الأوفياء من بنى آدم قليلون ، والشاكر
لله أنعمه هو فى الحق السعيد الفائز فى الدنيا والآخرة ، وأكثر الناس لا يشكرون
نعمة الله عليهم ، والقليلون هم الشاكرون الحامدون المخلصون .

٥ - ثم ضرب الله قصة إبليس وعصيانه مثلاً للكفر وعدم الشكر ، وبين
جزاء إبليس وعقابه الشديد عند الله ، كما ضرب قصة آدم مع إبليس مثلاً لشكر
آدم وإثابته وطاعته لله عز وجل قد قبل الله عز وجل توبته ، وهبط به إلى
الأرض هو وزوجه حواء يعمرانها ويعيشان فيها خلفاء لله فى أرضه ..

٦ - بيان نعمة الله على البشر بهدايتهم إلى اتخاذ الثياب لستر العورة ،
وللزينة ، والدعوة إلى أن يتزى الإنسان بلباس التقوى أولاً ، فهو خير
لباس ، وأكبر ثياب ، وأعظم زينة ..

٧ - دعوة البشر جميعاً إلى البعد عن فتنة الشيطان وإغرائه ، وعن وسوسته وتزيينه ، والنهي عن اتخاذهم أولياء ، فلن يتخذهم أولياء إلا الذين لا يؤمنون بالله وبالدين وبالحق .

٨ - بيان أن الله عز وجل لا يأمر إلا بالحق والهدى والنور والخير والطهر وبالقسط ، كما أمر بأداء الصلاة والإخلاص لله ، فذلك هو سر النجاح والفوز في الدنيا والآخرة .

٩ - تقرير أمر البعث وتأكيده وإقامة الأدلة عليه ، وأن الله الذي بدأ الخلق ابتداء قادر على إعادة خلقهم وتصويرهم بعد موتهم ..

١٠ - بيان أن الصالحين المطيعين الذين هداهم الله يعيشون ليلقوا الرحمة والثواب عند الله ، أما العاصون الضالون الذين حقت عليهم الضلالة ، فهم الذين خسروا أنفسهم ، بسبب أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويسبب إصرارهم على اعتقاد أنهم على الحق وهم على الباطل ، والباطل مخدول مدحور ، وهم بسبب ذلك يخدولون مدحورون مطرودون من رحمة الله ورضوانه ونعميه الأبدى المقيم .

الربع السادس

٣١ - يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

٣٢ - قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ تَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

٣٣ - قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ

وَالْبُغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا
وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

ثلاث آيات كريمة هن مطلع الربع السادس من هذا الجزء الكريم ، وفيها يأمر الله عز وجل بنى آدم بأخذ زيتهم عند الصلاة ، وبعدم الإسراف في الطعام والشراب ، وبيناهم عن الفواحش وعن الإثم والبغى والشرك وعن الافتراء على الله بالكذب والبهتان . . يقول الله عز وجل في هذه الآيات الكريمة : « يا بنى آدم خذوا زينتكم ، أى ما يستر العورة والتجمل عند الاجتماع للعبادة » عند كل مسجد ، أى كلما صليتم أو طفتم ، وكانوا يطوفون عراة ، وعن طاووس رحمه الله تعالى : لم يأمرهم بالحرير والديباج ، وأما أحدهم فقد كان يطوف عربانا ويضع ثيابه وراء المسجد ، وإن طاف وهى عليه ضرب وانتزعت منه لأنهم قالوا : لا نعبد الله فى ثياب أذنبنا فيها ، وقيل : تفاؤلا لينفروا من الذنوب كما نفروا من الثياب وقيل : الزينة المشط ، وقيل : الطيب ، والسنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئة للصلاة وكان بنو عامر لا يأكلون الطعام إلا قوتا ، ولا يأكلون دسما ، يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون : فإننا أحق أن نفعل فقيل لهم « فكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، بتحريم الحلال أو بالتعري فى الطواف أو بإفراط الطعام والشره عليه ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كل ما شئت واشرب ما شئت والبس ما شئت ما أخطأت خصلتان : سرف وخيلة ، وروى أن الرشيد كان له طبيب نصرانى حاذق فقال لعلى بن الحسين بن واقد : ليس فى كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان : علم الأبدان وعلم الأديان ، فقال له : لقد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابه فقال : وما هى ؟ قال قوله تعالى : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، فقال النصرانى : ولا يوثر عن نبيكم شيء فى الطب ، فقال : جمع رسولنا صلى الله عليه وسلم الطب فى ألفاظ يسيره ، قال : وما هى ؟ قال : قوله « المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء فاعط كل بدن ما عودته ، فقال النصرانى : ماترك كتابكم ولا نبيكم

لجالينوس طبا ، إنه لا يجب المسرفين ، أى لا يرتضى فعلهم ، ففى الآية الوعيد الشديد على الإسراف ، قل ، يا محمد لهؤلاء الجهة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراة ، من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، من الثياب والحلى ، ولولا أن النص ورد بتحريم استعمال الذهب والحري للرجال لدخل فى هذا العموم ، ولكن ورد النص فى تحريمه على الرجال دون النساء ، وقل أيضاً لهؤلاء الجهة الذين كانوا لا يأكلون دسماً يعظون بذلك حجهم ، الطيبات من الرزق ، التى أخرج لعباده وخلقها لهم فيدخل تحت ذلك كل ما يستلذ ويشتهى من مائر المطعومات إلا ما ورد النص بتحريمه ، وقد دلت الآية على أن الأصل فى الملابس وأنواع التجميلات والمطاعم الإباحة إلا ماورد النص بخلافه ، لأن الاستفهام فى (من) للانكار ، قل هى ، أى الزينة والطيبات ، للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، أى بالإصالة ، والكفار وإن شاركهم فيها فهم تبع لنا ، ولذا لم يقل تعالى : للذين آمنوا وغيرهم ، خالصة يوم القيامة ، أى لا يشاركهم فيها غيرهم ، كذلك ، أى مثل هذا التفصيل البديع ، تفصل الآيات ، أى بين أحكامها وتميز بعض المشتبهات من بعض ، لقوم يعلمون ، أى يتدبرون فانهم المتفكرون بها ، قل ، يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يطوفون بالبيت عراة ويمرهموز الطيبات من الرزق وغير ذلك مما أحل الله تعالى ، وإنما حرم ربي الفواحش ، أى الكبائر ، والكبيرة : ما توعد الله عز وجل عليها بنحو لعن أو غضب بخصوصها فى الكتاب أو السنة غالباً كالزنا ، جمع فاحشة ، مظهر منها وما بطن ، أى جهرها وسرها ، والإثم ، أى الصغار وهى ما عدا الكبائر كالنظر إلى أجنبيه ، وحرمة البغى ، على الناس أى الظلم والكبر ، وأفرده بالذكر مع أنه من الكبائر للباغية وقوله تعالى ، بغير الحق ، متعلق بالبغى مؤكداً له ، وحرمة أن تشركوا بالله ما لم ينزل به ، أى يشاركه ، سلطاناً ، أى حجة وفى ذلك تهكم بالمشركين وتنبه على تحريم ما لم يدل عليه برهان ، وحرمة أن تقولوا على الله ما لا تعلمون ، فى تحريم ما لم يحرم وغيره .

۳۴ - وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً
وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

۳۵ - يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ مِّنكُمْ يَكْفُؤُونَ عَلَيْكُمْ
عَلَيْكُمْ فَمَن أَتَىٰ فَتَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ .

۳۶ - وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

وهذه ثلاث آيات كريمة أخرى فيها تقرير أن لكل أمة أجلا ، كما أن لكل فرد أجلا ، فإذا جاء أجل أمة من الأمم وأراد الله إهلاكها لا تتأخر عنه ولا تتقدم عليه ، وفيها أمر من الله بالإيمان برسالات الأنبياء وكتبهم وبتقوى الله وإصلاح النية والعمل وبين الله عز وجل جزاء هؤلاء المؤمنين المتقين المصلحين وأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . أما المكذبون الكافرون المستكبرون عن آيات الله فهم أصحاب النار ، وهم فيها خالدون . . يقول الله عز وجل في هذه الآيات الكريمة : « ولكل أمة أجل ، أي وقت معلوم ، وفي ذلك وعيد لأهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالأمم الماضية ، فإذا جاء أجلهم ، أي حان وقتهم ولا يستأخرون ساعة ، عنه ، ولا يستقدمون ، ساعة عليه ، وإنما ذكرت الساعة وإن كان دونها كذلك لأنها أقل اسم للأوقات في العرف ، وذلك حين سألوا نزول العذاب فأنزل الله تعالى هذه الآية « يا بني آدم إما ، أي إن ما ، و(إن) شرطية و(ما) زائدة » يا بنيكم رسول منكم ، أي من نوعكم من عند ربكم « يقصون عليكم آياتي ، أي يقرأون عليكم كتابي وأدلة أحكامي وشرائعي التي شرعت لعبادي » فمن اتقى ، أي الشرك ومخالفة رسلي ، وأصلح ، عمله الذي أمرته به فعمل بطاعتي

وتجنب معصيتي وما نهيت عنه ، فلا خوف عليهم ، حين يخاف غيرهم يوم
القيامة من العذاب ، ولا هم يحزنون ، أى لا يتجدد لهم فى وقت ما حزن على
شئ ، فاتهم ، فإن الله يعطيهم ما تقر به أعينهم ، والذين كذبوا بآياتنا ، أى
جحدوها وكذبوا سبلنا ، واستكبروا ، أى تكبروا ، عنها ، أى عن الإيمان
بها ، لأن كل مكذب وكافر متكبر ، قال تعالى : إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله
إلا الله يستكبرون ، أولئك ، أى هؤلاء ، البعداء البغضاء ، أصحاب النار هم فيها
خالدون ، أى لا يخرجون منها أبدا .

۳۷ — فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ
أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا آيِنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ
اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا
كَفَرِينَ .

۳۸ — قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ
وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا
ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأُولَٰئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ ضَلُّوا
فَنَاتَّبَعَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن
لَّا تَعْلَمُونَ .

۳۹ — وَقَالَتْ أُولَٰئِهِم لِأَخْرِيَهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا
العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ .

ثلاث آيات أخرى فيها بيان لشدة ظلم الذين يفترون على الله الكذب
والذين يكذبون بآيات الله ، وشدة ظلمهم للحقيقة ولأنفسهم ، والله تعالى ،

فهؤلاء يستوفون حظوظهم المقدره لهم ، حتى إذا جاء أجلهم ؛ وتوفتهم ملائكة الموت سخرت بهم الملائكة وبما كانوا يعبدون من دون الله ، واعترف هؤلاء الظالمون بكفرهم وكذبهم . وبين الله عز وجل ما يدور بين طبقات الكافرين من حوار في النار ، ولعن كل طبقة لأختها ودعائهم عليهم ، في أسلوب بليغ مشرق ، وحوار مؤثر محزن ، وفي بيان ضريف جديد . . . يقول الله تعالى في هذه الآيات الكريمة . . . «فن، أى لأحد ، أظلم عن افترى على الله كذبا ، أى بنسبة الشريك والولد إليه أو قال عليه ما لم يقل له » أو كذب بآياته ، أى القرآن ، أولئك يناهم ، أى يصيبهم ، نصيبهم ، أى حظهم ، من الكتاب ، أى مما كتب لهم في اللوح المحفوظ من الرزق والأجل وغير ذلك ، حتى إذا جاءتهم ، أى هؤلاء الذى يفترون على الله الكذب ، «رسلنا ، أى ملك الموت وأعوانه » يتوفونهم ، بقبض أرواحهم عند استكمال أعمارهم وأرزاقهم وقوله تعالى « قالوا ، جواب إذا ، أى قال الرسل لهم تبكىنا وتويننا وتقربنا ، أينما كنتم تدعون ، أى تعبدون ، من دون الله ، أى غيره ادعوهم ليدفعوا عنكم ما نزل بكم وقيل : إن هذا يكون في الآخرة أى إذا جاءتهم ملائكة العقاب يتوفونهم أى يستوفون عددهم عند حشرهم إلى النار ، قالوا ، أى الكفار يجيبين للرسل « ضلوا ، أى ضابوا ، عنا ، وتركونا عند حاجتنا إليهم فلم ينفعونا ، وشهدوا على أنفسهم ، أى بالغوا في الاعتراف عند الموت أو عند معاينة العذاب ، أنهم كانوا كافرين ، أى جاحدين وحدانية الله تعالى ، قال ، الله تعالى لهم يوم القيامة أو أحد من الملائكة ، ادخلوا في أمم ، أى في جملة جماعات و فرق قد أمم بعضها بعضا ، قد خلت ، أى مضت وسلفت ، من قبلكم من الجن والإنس ، أى كفار الأمم الماضية من الفريقين في النار ، متعلق بادخلوا ، وكلما دخلت أمة ، أى جماعات النار ، لعنت أختها ، أى التى ضلت بالاعتداء بها ، حتى إذا ادركوا ، أى تلاحقوا وتجمعوا واستقروا ، فيها ، أى في النار ، جميعا قالت أخراهم ، أى منزلة أو دخولا وهم الأنباغ ، «لأولادهم ، أى لأجلهم وهم المتبعون ، إذ الخطاب مع الله تعالى لامعهم ، ربنا هؤلاء ، أى الأولون .

(۸ - تفسير القرآن لخواجی ۸)

« أضلونا ، أى لأنهم أول من سن الضلال ، فأنهم ، أى أذقهم بسبب ذلك
« عذابا ضعفا ، أى يكون بقدر عذاب غيرهم مرتين ، لأنهم ضلوا وأضلوا ،
ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة . . وقد
ورد : لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفعل من أهرق دمها
لأنه أول من سن القتل ، ثم أكدوا شدة العذاب بقولهم « من النار قال ، أى
الله تعالى « لكل ، أى منكم ومنهم « ضعف ، أى عذاب مضاعف : أما القادة
فيكفرهم وتضليلهم ، وأما الأتباع فيكفرهم وتقليد لهم « ولكن لا تعلمون ،
أى ما أعد الله تعالى لكل فريق منهم من العذاب « وقالت أولاهم ، أى فى
الكفر وهم القادة « لآخراهم ، أى الأتباع « فما كان لكم علينا من فضل ، أى
لأنكم لم تكفروا بسينا فقد جاءكم الرسل والنذر فما رجعتكم عن ضلالتكم
وكفركم فتحنوا وتم سواه ، قال الله تعالى : « فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ،
أى من الكفر والأعمال الخيثة .

٤٠ — إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ
أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ
الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ .

٤١ — لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الظَّالِمِينَ .

٤٢ — وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

٤٣ — وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ
وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ

هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلِغُوا
الْجَنَّةَ أَوْ رِثْمَهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

في هذه الآيات الأربع عود إلى بيان المكذبين وجزائهم الأليم في
الآخرة ، وإلى بيان المؤمنين ونعيمهم في الجنة عند الله عز وجل .. يقول الله
تعالى في هذه الآيات الكريمة ... « إن الذين كذبوا بآياتنا ، أى بدلائل
التوحيد فلم يصدقوا ولم يتبعوا رسلي « واستكبروا عنها ، أى وتكبروا عن
الإيمان بها والالتقياد لها والعمل بمقتضاها « لا تفتح لهم أبواب السماء ،
لصعود أعمالهم ولا لدعائهم ولا لأرواحهم ولا لنزول البركات عليهم لأنها
طهارة من الأرجاس الحسية والمعنوية ، فإذا صعدت أرواحهم الجنة بعد
الموت مع ملائكة العذاب أغلقت الأبواب دونها ثم أقيت من هناك إلى
سجين ، بخلاف المؤمن فيفتح له ويصعد بروحه إلى السماء السابعة كما ورد في
الحديث « ولا يدخلون الجنة ، أى التي هي أطهر المنازل وأشرفها « حتى ،
يكون ما لا يكون بأن « يلج ، أى يدخل « الجمل ، على كبره « في سم الخياط ،
أى من ثقب الإبرة وهو غير ممكن ، فكذا دخولهم الجنة فهو تعليق على
محال ، وعن ابن مسعود - أنه سئل عن الجمل ، فقال : هو زوج الناقة استجهالاً
للسائل ، وكذلك ، أى ومثل ذلك الجزاء بهذا العذاب ، وهو أن دخولهم
الجنة محال عادة « يجزى المجرمين ، أى الكافرين لأنه تقدم من صفتهم أنهم
كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها ، وهذه صفة الكفار ، فوجب حمل لفظ
المجرمين على الكفار ، فهم لا يدخلون الجنة أبداً ، ثم بين أنهم من أهل النار ،
ووصف ما أعد لهم فيها فقال تعالى « لهم من جهنم مهاد ، أى فراش ، وأصل
المهاد المهد الذى يقعد عليه ويضطجع عليه كاللباط « ومن فوقهم غواش ،
أى أغطية من النار ، جمع غاشية « وكذلك يجزى الظالمين ، عبر عنهم
بالمجرمين تارة وبالظالمين أخرى إشعاراً بأنهم بتكذيبهم الآيات اتصفوا بهذه
الأوصاف الذميمة ، وذكر الجرم مع الحرمان من الجنة ، والظلم مع التعذيب

بالنار تنبيها على أنه أعظم من الإجرام ، وقوله تعالى « والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أى امثالا لشريعة الله ، لا نكلف نفسا إلا وسعها ، أى طاقتها من العمل ، وهذه جملة معترضة ، وخبر الجملة السابقة هو قوله تعالى « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ، ووقعت الجملة المعترضة هنا لأنها هى من جنس هذا الكلام ، لأن الله تعالى لما ذكر عملهم الصالح دل ذلك على أن العمل من وسعهم وطاقاتهم وغير خارج عن قدرتهم ، وفيه تنبيه على أن الجنة مع عظم قدرها ومحلمها يوصل إليها بالعمل السهل من غير تحمل كلفة ومشقة صعبة ، وأنبع الوعيد بالوعد على عادته تعالى فقال « ونزعنا ما فى صدورهم من غل ، أى غش وعداوة كانت بينهم فى الدنيا ، فمن كان فى قلبه على أخيه غل فى الدنيا نزع ؛ فسلبت قلوبهم وطهرت ولم يكن بينهم إلا التودد والتعاطف ، وعن على رضى الله عنه : إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ليقتص بعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا ذهبوا وتقوا أذن لهم فى دخول الجنة ، فوالذى نفس محمد بيده لأحدم أهدي بمنزلة فى الجنة منه بمنزلة التى كان فى الدنيا ، وقال السدى فى تفسير هذه الآية : إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما فنزع ما فى صدورهم من غل وهو الشراب الطهور واغتسلوا من الآخر . فجرت عليهم بنصرة النعيم فلا يتعابون ولا يتشاحنون بعدها أبدا . وقيل : إن درجات الجنة متفاوتة فى العلو والكمال فبعض أهل الجنة أعلا من بعض ، فأخرج الله تعالى الغل والحسد من صدورهم وأزاله عنهم ونزعه من قلوبهم فلا يحسد صاحب الدرجة النازلة صاحب الدرجة العالية ، تجرى من تحتهم الأنهار ، أى من تحت قصورها زيادة فى لذتهم وسرورهم ، وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا ، أى المؤمنين إذا دخلوا الجنة قالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا الذى وفقنا وأرشدنا للعمل الذى هذا ثوابه وتفضل علينا به رحمة منه وإحسانا ، وصرف عنا عذاب جهنم بفضله

وكرمه فله الحمد على ذلك ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، أى لولا هداية الله وتوفيقه ، وتقدير الكلام : لولا هداية الله لنا موجودة لشقينا أو ما كنا مهتدين ، وإذا دخل أهل النعيم الجنة ورأوا ما أعد الله تعالى لهم من النعيم قالوا : لقد جاءت رسل ربنا بالحق، فاهتدينا بإرشادهم ، يقولون ذلك سرورا واغترابا بما نالوا وتلذذوا بالتكلم به وتحققوا بأن ما عملوه يقينا فى الدنيا صار لهم عين اليقين فى الآخرة ، ونودوا ، إذا رأوها من بعيد أو بعد دخولها ، والمنادى هو الله تعالى أو الملائكة ينادون بأمر الله تعالى « أن تلكم الجنة ، التى كانت الرسل وعدتكم بها فى الدنيا ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا دخل أهل الجنة نادى مناد : إن لكم أن تحبوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وإن لكم أن تتحموا فلا تياسوا أبدا ، فذلك قوله تعالى : ونودوا أن تلكموا الجنة التى أورثتموها ، أى أعطيتموها ، بما كنتم تعملون ، أى بسبب أعمالكم الصالحة التى عملتموها ، لأن الجنة جعلت جزاء وثوابا لكم على الأعمال الصالحة ، ولا يعارض هذا ماورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لن يدخل الجنة أحد بعمله إنما يدخلونها برحمة الله تعالى ، فإن الباء فى الحديث للعوض وهى الداخلة على الأيمان ، نحو اشتريت البيت بألف جنيه فلا تكون الجنة مشتراة له بعمله ، وإنما دخول الجنة برحمة الله ، أو أن العمل الصالح لن يناله المؤمن ولن يبلغه إلا برحمة الله وتوفيقه ، وإذا كان العمل الصالح سبب الرحمة كان دخول الجنة فى الحقيقة برحمة الله وجعلها الله تعالى ثوابا وجزاء لهم على تلك الأعمال الصالحة التى عملوها فى دار الدنيا ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما من أحد إلا وله منزل فى الجنة ومنزل فى النار ، فأما الكافر فيرث المؤمن منزله من الجنة ، والمؤمن يرث الكافر منزله من النار .

٤٤ - وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ

مُؤذِّنٌ يَنْبِئُهُمْ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ .

٤٥ - الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ .

٤٦ - وَيُنَبِّئُهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ أَلَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ .

في هذه الآيات الثلاث حوار بديع بين طبقات أصحاب النار وأهل الجنة والواقفين بالأعراف يتطلعون إلى هؤلاء وهؤلاء ، وينتظرون رحمة الله وعفوه ، ويبشرون أهل الجنة برضوان الله ، ويطمعون في دخولها معهم . . . وفي هذه الآيات الثلاث يقول الله عز وجل . . . « ونادى أصحاب ، أى أهل الجنة أصحاب ، أى أهل النار ، أى قال أهل الجنة : يا أهل النار ، أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا ، أى في الدنيا على لسان الرسل من الثواب على الإيمان به وبرسوله وطاعته » حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم ، أى من العذاب على الكفر « حقا قالوا ، أى قال أهل النار مجيبين لأهل الجنة : « نعم ، وجدنا ذلك حقا ، وهذا النداء إنما يكون بعد استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ، وهذا النداء من أهل الجنة هو في ظاهره على العموم ، ويحتمل أن كل واحد من أهل الجنة ينادى من كان يعرفه من الكفار في الدنيا والله أعلم بحقيقة ذلك ، « فأذن مؤذن ، أى وهو إسرائيل صاحب الصور كما قاله ابن عباس ، أو واحد من الملائكة ، وأصل الأذان في اللغة الإعلام ، والمعنى : نادى مناد « بينهم ، أى بين الفريقين ، « أسمعهم » أن لعنة الله على الظالمين ، وفسر الله عز وجل الظالمين منهم بقوله تعالى : « الذين يصدون عن سبيل الله ، أى يمنعون الناس عن الدخول في دين الإسلام » ويغونها ، أى يطلبون السبيل « عوجا ، أى معوجة ، قال ابن عباس : يصلون لغير الله ويعظمون ما لم يعظمه الله ،

والعوج بكسر العين في الدين والأمر وكل ما لم يكن قائما ولا مستقيما ، وهم بالآخرة كافرون ، أى جاحدون منكرون لها ، وبينهما ، أى أهل الجنة وأهل النار ، حجاب ، لقوله تعالى : « فضرب بينهم بسور ، ؛ أو بين الجنة والنار ليمتنع وصول أثر إحداهما إلى الأخرى » وعلى الأعراف ، وهو سور الجنة جمع عرف وهو المكان المرتفع ومنه عرف الديك لارتفاعه على ما سواه من جسده ؛ وقال السدى : سمي ذلك السور أعرافا لأن أصحابه يعرفون الناس أى أهل الجنة والنار ، رجال ، أى طائفة من الموحدين استوت حسناتهم وسيئاتهم كما في الحديث فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار فوقفوا هناك حتى يقضى الله فيهم ما يشاء ، ثم يدخلون الجنة بفضل الله ورحمته وهم آخر من يدخل الجنة ، وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ، ثم قرأ قوله تعالى : « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم ، ، ثم قال : إن الميزان تخف بمقال حبة أو ترجح ، ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أهل الأعراف ، وقيل : هم قوم خرجوا إلى الغزو بغير إذن آبائهم فقتلوا فأعتقوا من النار بقتلهم في سبيل الله وحبسوا عن الجنة لمعصية آبائهم ، فهم آخر من يدخل الجنة ، وقيل : هم الذين ماتوا في الفترة بين الرسالتين ولم يبدلوا دينهم ، وقيل : هم أطفال المشركين « يعرفون ، أى أصحاب الأعراف « كلا ، من أهل الجنة والنار « بسياهم ، أى بعلاماتهم وهي يياض الوجوه للمؤمنين وسوادها للكافرين لرؤيتهم لهم إذ موضعهم عال « ونادوا ، أى ونادى أصحاب الأعراف « أصحاب الجنة أن سلام عليكم ، أى إذا نظروا إليهم سلموا عليهم « لم يدخلوها ، أى لم يدخل أصحاب الأعراف الجنة « وهم يطعمون ، في دخولها ، قال الحسن : لم يطعمهم إلا لكرامة يريدونها بهم .

وروى الحاكم عن حذيفة قال : بينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربك فقال :

قوموا ادخلوا الجنة فقد غفرت لكم ، وقال مجاهد : أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء ، وعلى هذا إنما يكون لبهم على الأعراف على سبيل النزهة ، وليرى غيرهم شرفهم وفضلهم ، وحكى ابن الأنبارى أنهم أنبياء ، وعلى هذا إنما أجلسهم الله عز وجل على ذلك المرتفع العالى تمييزاً لهم على أهل القيامة وإظهاراً لفضلهم وعلو مرتبتهم وليكونوا مشرفين على أهل الجنة والنار ومطلعين على أحوالهم ومقادير ثواب أهل الجنة وعقاب أهل النار : وقوله تعالى « لم يدخلوها وهم يطمعون » ، على هذا مشكل ، وقال أبو مخلد : هم ملائكة يرون فى صورة الرجال والأقوال الأولى تدل على أن أصحاب الأعراف دون أهل الجنة فى الدرجات وإن كانوا يدخلون الجنة برحمة الله والأقوال الأخيرة على أنهم أفضل من أهل الجنة لأنهم أعلى منهم منزلة وأفضل .

وبهذا ينتهى الربع السادس من الجزء الثامن من القرآن الكريم ، وقد تضمن من الأصول العامة ما يلى :

- ١ - الأمر بالنظافة وحسن الثياب وخاصة عند الصلاة ، ولا عجب فالإسلام دين النظافة والطهارة ودين الطهر والتوحيد .
- ٢ - الأمر بتترك الإسراف ، وخاصة فى الطعام والشراب ، فإن الإسراف يدعو إلى الفقر أو إلى الترف ، وكلاهما ضار بالإنسان ، والخير فى الاعتدال .
- ٣ - التنديد بالذين حرموا فضل الله على الناس ، وحرموا الطيبات من الرزق كذلك ، وبيان أن المال والرزق يشترك فىهما الكافر والمؤمن فى الدنيا ، ولكنها خالصة للمؤمن فى الآخرة ، ثواباً من عند الله ، وعند الله حسن الثواب .
- ٤ - تقرير أن الله لم يحرم على عباده إلا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، والشرك بالله ، والافتراء على الله . . الفاحشة والإثم والاعتداء والشر والكذب على الله - هى كلها أمهات الموبقات ، وأصول الشر ، وأسس الفساد .
- ٥ - للأمم آجال كالأفراد ، وعند ما يأتى أية أمة أجلها فلن تتأخر عنه ، كما أنها لا تتقدم عليه بأية حال من الأحوال .

٦ - والعبرة من هذا أنه يجب على الأمم الإيمان برسالتها وأنبيائها وبالكتب المنزلة من السماء ، حتى تكون عاقبتها الخير ، وحتى لا يدهمها عذاب الله وسخطه ، فللمتقين الخير والنعيم وللعاصين والمكذبين والمستكبرين عذاب الجحيم ، وإنه ليس هناك أظلم ممن يفترون على الله الكذب أو يكذبون بآياته ، فصير هؤلاء هو الشر وسوء العذاب ، يوم يشهدون على أنفسهم بأنهم كانوا في الدنيا كافرين .

٧ - أصحاب النار عندما يتزاحمون فيها يكون بينهم حوار وجدل ، كله عبرة وعظة للعتبرين .

٨ - تأكيد سخط الله وغضبه على المكذبين بآيات الله والمستكبرين عنها من أمثال مشركي مكة ، فهم في الآخرة لهم عذاب شديد وغضب من الله .. أما المؤمنون والذين عملوا الصالحات ، فأولئك هم الفائزون برحمة الله ورضوانه ولهم حسن العاقبة وهم في رضاه موصول من الله ، جزاء عملهم الصالح الطيب المبرور في الدنيا .

٩ - تسجيل ما يكون في الآخرة من حوار بين أصحاب الجنة وأصحاب النار وأهل الأعراف ، وقد بدأ الله عز وجل بخطاب أهل الجنة لأهل النار ، ثم بخطاب أهل الأعراف لكل من أصحاب الجنة وأصحاب النار ، ثم أعقب ذلك في الربع التالي بخطاب أهل النار لأهل الجنة ، مع بيان العبرة من هذا الحوار ، وتقرير عدل الله ورحمته بالناس جميعا ، ولا يحاسب إلا بعد بيان .

الربع السابع

٤٧ - وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا
لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

٤٨ - وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا
مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَهَنَّمُ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ .

٤٩ - أهولآه اللذین أفستم لا ینألهم الله برحمة أدخلوا الجنة
لا خوف علیکم ولا أنتم تعزنون .

٥٠ - ونادی أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من
الماء أو مما رزقکم الله قالوا إن الله حرمهما علی
الکفرین .

٥١ - الذین اتخذوا دینهم لهوا ولعبا وغربتهم الحیوة الدنیة فالیوم
ندمهم كما نسوا لقاء یومهم هذا وما كانوا بتایتنا
یجحدون .

فی هذه الآیات الخمس الکریمة تمة الحوار بین أهل الجنة وأهل النار
وأصحاب الأعراف، وفیها یکمل الله عز وجل حدیث أصحاب الأعراف الذی
بدأ به فی الآیة السابفة حیث ذکر الله عز وجل فیها نداءهم لأهل الجنة
وطمعهم فی دخولها، ثم ذکر هنا فی الآیة الأولى استعاذتهم بالله من دخول
النار مع القوم الظالمین وذلك حین یرون أهل النار، وفی الآیة الثانیة یدکر
الله عز وجل خطابهم لأناس یعرفونهم من أهل النار من ذوی السلطان
والمال فی الدنیا، وفی الآیة الثالثة یتهم أهل الأعراف بهؤلاء المشهورین
الذین صاروا إلى النار لسخریتهم فی الدنیا بأهل الجنة، الذین قیل لهم فی
الآخرة: أدخلوا الجنة بسلام فلا خوف علیکم ولا أنتم تعزنون، وفی الآیة
الرابعة یدکر الله عز وجل حدیث أهل النار إلى أهل الجنة، وطلبهم منهم
السقیا والأكل عما رزقهم الله، ورد أهل الجنة علیهم بأن الله حرم هذا الماء
وهذا الطعام علی الکفرین، وفی الآیة الخامسة وصف لهؤلاء الکفرین بأنهم
اتخذوا دینهم هزوا وسخریة، وأنهم غربتهم الدنیا وباطلها وزخرفها، وأن
الله نسبهم فی الآخرة كما نسوا لقاء الله فی الدنیا، وبسبب حجودهم بآیات الله .

يقول الله تعالى « وإذا صرفت أبصارهم ، أى أصحاب الأعراف » تلقاء ، أى جهة « أصحاب النار ، فنظروا لهم وإلى سواد وجوههم وما هم فيه من العذاب » قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ، أى الكافرين فى النار ، قال ابن عباس : إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أصحاب النار وما هم فيه تضرعوا إلى الله تعالى وسألوه أن لا يجعلهم منهم « ونادى أصحاب الأعراف رجالا ، أى كانوا عطاء فى الدنيا من أهل النار » يعرفونهم بسيماهم ، أى بسيما أهل النار « قالوا ، أى أصحاب الأعراف هؤلاء الذين عرفوهم فى النار » ما أغنى عنكم جمعكم ، أى ما كنتم تجمعون من الأموال فى الدنيا ، أو كثرتكم واجتماعكم فيها « وما كنتم تستكبرون ، أى وما أغنى عنكم تكبركم عن الإيمان شيئا ، قال الكلبي : ينادونهم على السور : يا وليد بن المغيرة يا أبا جهل بن هشام ، يا فلان ، ويا فلان ، ثم ينظرون إلى الجنة فيرون فيها الفقراء والضعفاء بمن كانوا يستهزئون بهم ، مثل سلمان الفارسي وخباب وصهيب وبلال وأشباهم ، فيقول أصحاب الأعراف هؤلاء الكفار ، هؤلاء ، لفظ استفهام أى هؤلاء الضعفاء ، الذين أقسمتم ، أى حلفتم بالله « لا ينالهم الله برحمة ، أى لا يدخلون الجنة وقد قيل : « ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أتم تحزنون ، وقيل : إن أصحاب الأعراف إذا قالوا لأهل النار ما قالوا ، قال لهم أهل النار : إن دخل هؤلاء الجنة فأنتم لم تدخلوا فيعبرونهم بذلك ، ويقسمون أنهم لا يدخلون الجنة ولا ينالهم الله برحمة ، فتقول الملائكة الذين حبسوا أهل الأعراف : ادخلوا الجنة برحمة الله لا خوف عليكم ولا أتم تحزنون ، وهذا ظاهر على الأقوال الأولى » ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء ، أى صبوه « أو بما رزقكم الله ، أى من سائر الأشربة أو من الأكل والطعام » قالوا ، أى أهل الجنة مجيبين لهم « إن الله حرمهما ، أى منعهما » على الكافرين ، أى منعهم طعام الجنة وشرابها كما يمنع المكلف ما يحرم عليه ويخطر كقوله : حرام على عيني أن تطعم الكرا ، وقيل : لما كانت شهواتهم فى الدنيا فى لذة الأكل والشرب وعذبهم الله فى الآخرة بشدة الجوع والعطش فسألوا ما كانوا

يعتادونه في الدنيا من طلب الأكل والشرب ، فأجيئوا بأن الله تعالى حرم طعام الجنة وشرابها على الكافرين ، ثم وصف الله تعالى الكافرين بقوله « الذين اتخذوا دينهم هوا ولعبا ، وهو ما زين لهم الشيطان من سائر الخصال الذميمة التي كانوا يفعلونها في الجاهلية ؛ وقيل : كانوا إذا دعوا إلى الإيمان سخرُوا بمن دعاهم وهزؤا به ، والله هو صرف الفكر بما لا يحسن أن يصرف له ، واللعب طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب به » وغرتهم الحياة الدنيا ، أي وخدمهم عاجل ما هم فيه من رغد العيش والدعة وشغلهم ما هم فيه من ذلك عن الإيمان بالله ورسوله وعن الأخذ بنصيبتهم في الآخرة حتى أتتهم المنية وهم على ذلك ، والغرة غفلة في اليقظة وهو طمع الإنسان في طول العمر ، وحسن العيش ، وكثرة المال ، وقيل : الجاه ، ونيل الشهوات ؛ فإذا حصل له ذلك صار محجوبا عن الدين وطلب الخلاص لأنه غريق في الدنيا بلذاته وما هو فيه من ذلك . ولما وصفهم الله تعالى بهذه الصفات الذميمة قال : فاليوم أي يوم القيامة « ننسأهم » أي تتركهم في النار ونعرض عنهم فلا نجيب دعاءهم ولا نرحم ضعفهم ، كما نسوا لقاء يومهم هذا ، أي كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا كفعل الناس فلم يخطر ببالهم ولم يهتموا له ، وأعرضوا عن الإيمان فقال الله تعالى : نعام لهم جزاء نسيانهم بالنسيان على المجاز ، لأن الله تعالى لا ينسى شيئا ، فهو كقوله تعالى « وجزاء سيئة سيئة مثلها ، . . . وما كانوا بآياتنا يجحدون ، أي وما كانوا منكربين أنها من عند الله تعالى .

٥٢ - وَلَقَدْ جِئْتُم بِكُتُبٍ فَصَلَّنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

٥٣ - هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا

نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

في هاتين الآيتين الكريمتين ذكر لنزول القرآن هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، وأن هؤلاء الكافرين أهملوه ونسوه حتى فوجئوا بوعيد الله ، وندموا على ما صنعوا ، وغاب عنهم شركاؤهم الذين افتروها على الله . يقول الله عز وجل في هاتين الآيتين الكريمتين « ولقد جئناهم ، أي هؤلاء الكفار ، بكتاب ، أي قرآن أنزلناه عليك يا محمد ، فصلناه ، أي بينا معانيه من العقائد والأحكام والمواظف مفصلة « على علم ، أي عالين وجه تفصيله ، هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، أي به « هل ينظرون ، أي ما ينظرون « إلا تأويله ، أي لإعاقبة أمره وما يؤول إليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد « يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل ، أي من قبل يوم الآخرة ، قد جاءت رسل ربنا بالحق ، أي قد تبين لهم واعترفوا يوم القيامة بأن ما جاءت به الرسل من الإيمان والحشر والنشر والبعث والثواب والعقاب حق ، ولكن لا ينفعهم ذلك الاعتراف ، ولما رأوا أنفسهم في العذاب قالوا « فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، اليوم « أو نرد ، أي أو هل نرد إلى الدنيا « فنعمل غير الذي كنا نعمل ، فيها فنبدل الكفر بالإيمان والتوحيد والمعاصي بالطاعة والإجابة « قد خسروا أنفسهم ، أي صاروا إلى الهلاك لأنهم كانوا في الدنيا أول مرة فلم يعملوا بطاعة الله ، ولوردوا إلى الدنيا لعادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والعصيان لسابق علم الله فيهم « وضل ، أي غاب وذهب « عنهم ما كانوا يفترون ، من دعوى الشرك فلم ينفعهم ذلك شيئا ولم يغنهم من عذاب الله .

٥٤ - إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

- ٥٥ - أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ .
٥٦ - وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفًا
وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ .
٥٧ - وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ
إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ
الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

- ٥٨ - وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبِثُ لَا
يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ .

في هذه الآيات الخمس بيان لقدرة الله تعالى وعظمته في الخلق ، وتصوير
لإيجاده الأرض والسماوات وخلقه لهما ، ومثل هذا الإله العظيم حرى
بالمشركين أن يعبدوه وأن يتضرعوا إليه ، وأن يؤمنوا به ، وأن يطيعوه ولا
يعتدوا على شرائعه بإعمالها وتركها ، وحرى بالمشركين كذلك أن يستقيموا
ولا يفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وأن يعبدوه حق عبادته ، فرحمة الله
قريبة من المحسنين في الإيمان وفي العمل . . ثم بين الله عز وجل في الآية
الرابعة قدرته في تصريف الرياح وإنزال الماء وإخراج الزرع والنبات والشجر
به ، وفي هذا دليل وأي دليل على قدرته على إحياء الموتى وبعثهم من القبور ،
فالذي يحيي الأرض قادر على إحياء الناس . وفي الآية الخامسة تورية بالمشركين
وأنهم لا يؤمنون بشيء ، وإكبار للؤمنين وأنهم من نبت طيب كريم زكا أصله
وطاب فرعه . . يقول الله عز وجل في هذه الآيات الخمس الكريمة . . .
« ان ربكم ، أي خالقكم ومولاكم ومصالح أموركم وموصل الخيرات إليكم ومانع
المسكاره عنكم هو ، الله الذي خلق السماوات والأرض ، أي ابتدعهما وأنشأ

خلقها على غير مثال سبق ، في ستة أيام ، أى من أيام الدنيا وقيل : من أيام الآخرة كل يوم ألف سنة ، ومعنى ذلك فى مقدار ستة أيام ، فهو كقوله تعالى « لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ، أى على مقادير البكرة والعشى فى الدنيا لأن الجنة لا ليل فيها ولا نهار ، قال سعيد بن جبير . وكان الله عز وجل قادرا على خلق السموات والأرض فى لحظة وخلقهن فى ستة أيام تعليما لخلقهن التثيت والتانى فى الأمور ، وقد جاء فى الحديث : « التانى من الله والعجلة من الشيطان » واختلف العلماء فى اليوم الذى ابتداء الله خلق الأشياء فيه ، فقيل : هو يوم السبت لخبر مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال : خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الإثنين ، وخلق الجنة يوم الثلاثاء ، وخلق النار يوم الأربعاء ، وبت فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة فى آخر الخلق فى آخر ساعة من النهار وفيما بين العصر إلى الليل ، وقيل : يوم الأحد لقول بعضهم : إنما سمي يوم الإثنين لأنه تانى الأيام والخميس لأنه خامس الأيام « ثم استوى على العرش ، أى استوى أمره ، وقال أهل السنة : الاستواء على العرش صفة الله تعالى بلا كيف يجب الإيمان به ونكل عليه إلى الله تعالى ، والمعنى أنه سبحانه وتعالى استوى على العرش على الوجه الذى عناه لأنه منزه عن الاستقرار والتمكن ، وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » فأطرق رأسه مليا ثم قال : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما أظنك إلا ضالا ، ثم أمر به فأخرج . . . وروى عن سفيان الثورى والأوزاعى والليث بن سعد وغيرهم من علماء السنة فى هذه الآيات التى جاءت فى الصفات المتشابهة : أمرها كما جاءت ، اقرأوها بلا كيف : وإجماع السلف ينعقد على أن لا يزيدوا على قراءة الآية . . . والعرش فى اللغة السرير قال كعب : إن السموات فى العرش كالتقديب معلق بين السماء والأرض . وقال قوم : العرش بمعنى الملك وهذا عدول عن الحقيقة إلى التجوز مع مخالفة الأثر قال تعالى : وكان عرشه على الماء وبعضهم

يقول: استوى بمعنى استولى والاستواء: هو بمعنى الاستيلاء. قال ابن الأعرابي: لا يعرف استولى فلان على كذا إلا إذا كان بعيداً منه غير متمكن منه ثم تمكن فيه والله تعالى لم يزل مستولياً على الأشياء استيلاءً من لم يكن مستولياً. « يخشى الليل النهار، أي يغطيه، ولم يذكر عكسه إما للعلم وإما لأن اللفظ يحتملها بأن يكون المعنى بأن يلحق الليل بالنهار والنهار بالليل، أي يطلب كلا منهما الآخر طلباً « حثيثاً، أي سريعاً فهو صفة مصدر محذوف ويحتمل « والشمس والقمر والنجوم مسخرات، أي مذلات لما يراد منهن من طلوع وأفول وسير على حسب إرادة المدبر وتصريفه لهن « بأمره، أي بقضائه وقرىء برفع هذه الأربعة على الابتداء والخبر، وبنصبها عطفاً على السموات، ومسخرات منصوب على هذا الوجه بالكسر « ألا له الخلق، جميعاً « والأمر، كله فإنه الموجد والمتصرف في ذلك، « تبارك الله رب العالمين، أي تعالى بالوحدانية، وتعظم بالتفرد في الربوبية، قال البيضاوي: وتحقيق الآية والله أعلم أن الكفار كانوا متخذين أرباباً، فين الله تعالى لهم أن المستحق للربوبية واحد وهو الله تعالى لأنه الذي له الخلق والأمر، فإنه تعالى خلق العالم على ترتيب وتدبير حكيم فأبدع الأفلاك ثم زينها بالكواكب، كما أشار إليه بقوله تعالى « فقضاهن سبع سموات في يومين، وعمد إلى إيجاد الأجرام السفلية ثم قسمها بصور نوعية، وقوله تعالى « خلق الأرض في يومين، أي مافي جهة السفلى في يومين، ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة أي وهي النبات والحيوان والمعدن كما قال تعالى - بعد قوله « خلق الأرض في يومين، : « وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام، أي مع اليومين الأولين اللذين خلق فيهما السموات، لقوله تعالى في سورة السجدة « الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم لما تم له عالم الملك عمده إلى تدبيره كالمملك الجالس على عرشه لتدبير المملكة، فدبر الأمر من السماء إلى الأرض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب وتكرير الليالي والأيام، ثم صرح بما هو نتيجة ذلك فقال: « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب

العالمين ، ثم أمرهم أن يدعوه متذللين مخلصين بقوله تعالى « ادعوا ربكم ، لأن
الداعي لا يقدم على الدعاء إلا إذا عرف من نفسه الحاجة إلى ذلك المطلوب
وهو عاجز عن تحصيله ، وعرف أن ربه سبحانه وتعالى يسمع الدعاء ويعلم
حاجته وهو قادر على إيصالها إلى الداعي ، فعند ذلك يعرف العبد نفسه بالعجز
والنقص ويعرف ربه بالقدره والسكال ، وهو المراد من قوله « تضرعا ، أي
ادعوا ربكم تذللا واستكانة ، وهو إظهار الذل في النفس والخشوع ، يقال : ضرع
فلان لفلان إذا ذل له وخشع ، وخفية ، أي سرا في أنفسكم وهو ضد العلانية ،
والأدب في الدعاء أن يكون خفياً لهذه الآية ، وعن أبي موسى الأشعري
رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل الناس يجهرون
بالتكبير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيها الناس إنكم لا تدعون
أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً بصيراً وهو معكم ، قال أبو موسى : وأنا
خلفه أقول : لا حول ولا قوة إلا بالله في نفسي ، فقال : يا عبد الله بن قيس ،
ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ قلت : بلى ، قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ،
وقال الحسن : بين دعوة السر والجهر سبعون ضعفاً ، ولقد كان المسلمون يجهرون
في الدعاء لا يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله
تعالى يقول : ادعوا ربكم تضرعا وخفية فإن الله تعالى أثنى على ذكره عليه السلام
فقال : إذ نادى ربه نداء خفياً ، وعن الحسن أيضاً : إن كان الرجل لقد جمع
القرآن وما يشعر به جاره ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر
الناس به ، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة وعنده الزوار وما يشعرون به ،
ولقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض من عمل يقدر أن يفعلوه في السر
فيكون علانية أبداً ، إنه ، تعالى « لا يحب المعتدين ، أي المجاوزين ما أمروا به
في الدعاء وغيره ، ونبه بهذا على أن الداعي ينبغي له أن لا يطلب ما لا يليق به
كرتبة الأنبياء والصعود إلى السماء روى أن عبد الله بن معقل سمع ابنه يقول :
اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها ، فقال : يا بني سل الله
الجنة وتعوذ من النار فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سيكون
في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء ، وقيل : أراد به الاعتداء في

الجهر ، قال ابن جريج : من الاعتداء رفع الصوت والنداء والصياح ، وعنه صلى الله عليه وسلم : سيكون قوم يعتدون في الدعاء ، وحسب المرء أن يقول : اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ، ثم قرأ : إنه لا يحب المعتدين ، .. ولا تفسدوا في الأرض ، أى بالشرك والمعاصي ، بعد إصلاحها ، أى يبعث الرسل وشرع الأحكام ، وقيل : لا تفسدوا في الأرض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم ، وعلى هذا فمعنى قوله تعالى « بعد إصلاحها ، أى بعد إصلاح الله تعالى إياها بالمطر والخصب » وادعوه خوفاً ، منه ومن عذابه ، وطمعا ، أى فيما عنده من مغفرته وثوابه ، وقال ابن جريج : خوف العدل وطمع الفضل « إن رحمة الله قريب من المحسنين ، أى المطيعين ، وقال سعيد بن جبير : الرحمة ها هنا الثواب ، فرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ ، وقيل : إن تأنيث الرحمة ليس بحقيقى وما كان كذلك جاز فيه التذكير والتأنيث عند أهل اللغة ، وقيل : ذكره للفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره حيث يجب التأنيث فى الأول فيقال فيه : فلانة قريبة منى ويجوز فى الثانى فيقال : فلانة قريبة وقريب منى فى المسكان ويصح أن يكون تذكير (قريب) المخبر به عن (رحمة) لإضافة (رحمة) إلى الله تعالى . وكون الرحمة قريب من المحسنين لأن الإنسان فى كل ساعة من الساعات فى إدبار من الدنيا وإقبال على الآخرة ، وإن كذلك كان الموت أقرب إليه من الحياة وليس بينهم وبين رحمة الله التى هى الثواب فى الآخرة إلا الموت وهو قريب من الإنسان « وهو الذى يرسل الرياح ، عطف على ما قبله ، والمعنى : إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض وهو الذى يرسل الرياح « بشرا بين يدي رحمته ، أى متفرقة قدام المطر الذى هو من أجل النعم وأحسنها أثرا وقرىء « بشرا ، أى مبشرا وسكون الشين أى مبشرا « حتى إذا قلت ، أى حملت الرياح « سحابا ثقالا ، أى بالمطر يقال : أقل فلان الشيء إذا حملة ، واشتقاق الإقلال من القلة ، فإن من يرفع شيئا يراه قليلا « سقناه ، أى السحاب ، والسحاب جمع سحابة وهو الغيم وفيه ماء ، أو لم

يمكن فيه ماء سمي سحابا لانسحابه في الهواء وبلد ميت ، أى لانيات به ، فأنزلنا به ،
أى البلد أو السحاب ، الماء فأخرجنا به ، أى بالبلد أو السحاب بذلك الماء لأن
إنزال الماء كان سببا لإخراج الثمرات ، من كل الثمرات ، أى من كل أنواعها ،
قال الأزهري : قال الليث بن سعد : البلد كل موضع من الأرض عامر أو غير
عامر خال أو مسكون ، والطائفة منها بلدة والجمع بلاد ، كذلك ، أى مثل هذا
الإخراج ونخرج الموتى ، أحياء من قبورهم بعد فنائهم ودرس آثارهم ، لعلمكم
تذكرون ، أى لكي تعتبروا وتذكروا . والخطاب لمنكري البعث ، يقول :
إنكم شاهدتم الأشجار وهي مزدهرة مورقة مشرقة في أيام الربيع والصيف ،
ثم أنكم شاهدتموها يابسة عارية من تلك الأوراق والثمار ، ثم أن الله تعالى
أحيائها مرة أخرى ، فالفادر على إحيائها بعد موتها قادر على أن يحيي الأجساد بعد
موتها ، والبلد الطيب ، أى والأرض الكريمة التربة السهلة السمحة ، يخرج
نباته ياذن ربه ، أى بمشيئته وتيسيره ، عبر بها عن كثرة النبات وحسنه وغازارة
نفعه لأنها وقعت في مقابلة ، والذي خبت ، أى والبلد الذي خبت أرضه فهي
مسخنة ، لا يخرج ، نباته ، إلا نكد ، أى عسرا بمشقة وكلفة ، قال المفسرون :
هذا مثل ضرب به الله تعالى للمؤمن والكافر ، فشبّه المؤمن بالأرض الطيبة وشبه
نزول القرآن على قلبه بنزول المطر على الأرض الطيبة ، فإذا نزل المطر عليها
أخرجت أنواع الأزهار والثمار ، فكذلك المؤمن إذا سمع القرآن آمن به وانتفع
بِهِ وظهر منه الطاعات والعبادات وأنواع الأخلاق الحميدة ، وشبه الكافر
بالأرض الرديئة الغليظة السبخة التي لا ينتفع بها وإن أصابها المطر ، فكذلك
الكافر إذا سمع القرآن لا ينتفع به ولا يصدقه ولا يزيده إلا اعتوا وكفرا ، وإن
عمل الكافر حسنة في الدنيا كانت بمشقة وكلفة ولا ينتفع بها في الآخرة ،
وقيل : هو مثل ضرب به الله لآدم وذريته كلهم ، منهم طيب ومنهم خبيث ، لذلك ،
أى كما بينا ما ذكره نعرف ، أى نير ، الآيات ، الدالة على التوحيد والإيمان
آية بعد آية وحجة بعد حجة ، لقوم يشكرون ، نعمة الله تعالى فيتفكرون فيها
ويعتبرون بها ، وإنما خص الشاكرين بالذكر لأنهم هم الذين ينتفعون بسماع القرآن .

٥٩ - لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

٦٠ - قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا أَنزَلْنَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

٦١ - قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْمَلِئِينَ .

٦٢ - أَبَلَمْ يَأْتِكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

٦٣ - أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

٦٤ - فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ .

في هذه الآيات الست الكريمة ذكر لقصة نوح عليه السلام ، ليعتبر بها المشركون والجاحدون ، ولما ذكر الله عز وجل ، وتبارك وتعالى في الآيات المتقدمة دلائل آثار قدرته الدالة على التوحيد وعلى ربوبيته ، وأقام الأدلة القاطعة على صحة البعث بعد الموت - أتبع ذلك بقصص الأنبياء عليهم السلام وما جرى لهم مع أممهم فقال : يذكر قصة نوح ، لقد ، جواب قسم محذوف تقديره والله لقد ، أرسلنا نوحا ، عليه السلام ، إلى قومه ، وهو أول نبي بعثه الله تعالى بعد إدريس وكان نجارا ، بعثه الله تعالى إلى قومه وهو ابن خمسين سنة ، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : وهو ابن أربعين سنة ، وقيل : بعث وهو ابن مائة سنة ، وقيل : وهو ابن مائتين وخمسين سنة .

وقد نشأ نوح بين قوم يعبدون الأصنام فاجتباه ربه وخصه بالرسالة والنبوة

وأوصاه بأن يدعو قومه لعبادة الله ونبتذ الأصنام التي كانوا عليها عاكفين ،
فخرج عليهم نوح يدعو إلى الإيمان بالله ، ودخل إلى أئديتهم وندد بأوثانهم
فأنهالوا عليه ضرباً وجيعاً وجروه برجله وألقوه بعيداً ، ورموه بأنه كاذب في
دعواه وأنه ساحر مأكراً ، وكانوا كلما أمعن في دعوته ازدادوا عتوا وتمردا
واستكباراً ، فاشتكى نوح إلى ربه بجزه وقلة حيلته وما يلاقى من قومه من العنت
قال يارب : إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدتم دعائي إلا فراراً ، وإني كلما
دعوتهم لتخفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا
واستكبروا استكباراً . ولما تمادى الناس في كفرهم واشتد نفورهم من النصائح
والعظات لجأ نوح إلى مناجاة ربه فبسط يديه وقال : رب لا تذر على الأرض
من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً
كفاراً . فأوحى الله إليه بأنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبش
بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا
إنهم مغرقون . وأوحى الله إلى نوح أن يعمل سفينة تحمله هو وأهله ومن
آمن معه من قومه ، فأعد آلات التجارة وأعانه أولاده ومن آمن معه على
صنعها ، وكلما مر عليه ملاً من قومه سخروا منه ، فلما جهز السفينة أوحى الله إليه
أنه قد دنا هلاك قومك ، فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل
زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم . وفاضت عيون الأرض
وهطلت أمطار السماء ، وجمع نوح قومه الذين آمنوا حول السفينة وقال لهم :
اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها ، وكانت السفينة تجري بهم في موج
كالجبال ، ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع
الكافرين . قال سأوى إلى جبل يعصمني من الماء . . قال لا عاصم اليوم من
أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . ولبثوا في السفينة
ما شاء الله لهم أن يلبثوا حتى ابتلعت الأرض ماءها وأقلعت السماء وغاض
الماء واستوت السفينة على جبل الجودي وقال الله لنوح ومن معه : اهبط بسلام
منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك . وعمر نوح ألف سنة إلا خمسين عاماً .

«فقال، نوح بعد إرساله لقومه : «يا قوم اعبدوا الله ، أى اعبدوه وحده
لقوله تعالى « ما لكم من إله غيره ، وأنه الذى يستحق العبادة لا غيره » إلى
أخاف عليكم ، إن لم تقبلوا ما أمر به من عبادة الله تعالى واتباع أمره وطاعته
«عذاب يوم عظيم ، هو يوم القيامة أو يوم نزول الطوفان وإهلاكهم فيه ،
وقال (أخاف) على الشك وإن كان متيقنا من حلول العذاب بهم إن لم يؤمنوا
به ، لأنه لم يعلم وقت نزول العذاب بهم إن لم يؤمنوا به ، أيعاجلهم أو يتأخر عنهم
العذاب إلى يوم القيامة » قال الملائ من قومه ، أى الأشراف منهم فإنهم يملأون
العيون منظرا « إنا لنراك فى ضلال ، أى خطأ وزوال عن الحق » ميين ، أى
بين « قال ، نوح مجيبا لهم « يا قوم ليس بى ضلالة ، أى ليس بى شيء مما تظنون
من الضلال ، والضلالة أخص من الضلال فكانت أبلغ فى نبي الضلال عن
نفسه كما لو قيل « ألك تمر ، ؟ فقلت : مالى تمر ، فقد بالغ فى النفي كما بالغوا فى
الإثبات وقوله تعالى « ولكنى رسول من رب العالمين ، استدراك باعتبار
ما يلزمه وهو كونه كأنه قال : ولكنى على هدى فى الغاية لأنى رسول الله
« أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم ، والنصح إرادة الخير لغيره كما يريد له لنفسه
ويقال : نصحته ونصحت له كما يقال : شكرته وشكرت له ، وفى زيادة اللام مبالغة
ودلالة على إحاض النصيحة وأنها وقعت خالصة للنصوح مقصودا بها جانبه
لاغير ، ولا نصيحة أخص من نصيحة الله ورسوله ، وقيل : حقيقة النصح تعريف
وجه المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه ، وقال بعض المفسرين :
الفرق بين البلاغ لنصيحة الرسالة وبين النصيحة هو أن تبليغ الرسالة أن يعلمهم
جميع أوامر الله تعالى ونواهيه وجميع أنواع التكاليف التى أوحى الله تعالى
بها عليه ، وأما النصيحة فهى أن يرغبهم فى قبول تلك الأوامر والنواهي والعبادات
ويحذرهم عقابه إن عصوه « وأعلم من الله مالا تعلمون ، أى من صفات الله
وأحوال قدرته الباهرة وشدة بطشه على أعدائه ، وأن بأسه لا يرد عن القوم
المجرمين « أو عجبتهم ، الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف أى كذبتهم
وعجبتهم « أنجاكم ، أى من أن جاءكم « ذكر ، أى موعظة « من ربكم على رجل »

أى على لسان رجل « منكم ، من جنسكم أو من جملتكم تعرفون نسيه ، وذلك أنهم كانوا يتعجبون من نبوة نوح عليه السلام ويقولون: ما سمعنا بهذا في آياتنا الأولى ، يعنون إرسال البشر ، ولو شاء ربنا لآنزل ملائكة ، لينذركم ، أى لأجل أن ينذركم عاقبة الكفر والمعاصي ، ولتقوا ، أى ولأجل أن تتقوا الله ، ولعلكم ترحمون ، بالتقوى إن وجدت منكم ، لأن المقصود من إرسال الرسل الإنذار ، والمقصود من الإنذار التقوى عن كل ما لا ينبغي ، والمقصود بالتقوى الفوز بالرحمة في الدار الآخرة ، فكذبوه ، أى نوحا ، فأنجيناها والذين آمنوا معه ، من الغرق وكانوا أربعين رجلا وأربعين امرأة وقيل تسعة بنوه الثلاثة : سام وحام ويافت وستة من آمن به ، فى الفلك ، أى والذين استقروا معه فى الفلك ، أو أنجيناهم فى السفينة من الطوفان ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، بالطوفان ، إنهم كانوا قوما عمين ، أى عمى القلوب عن الحق غير مستبصرين يقال: رجل عم فى البصيرة وأعمى فى البصر .

هذه قصة نوح أبى البشر بعد آدم عليه السلام ، وفى العهد القديم ذكر لنوح ، فى سفر التكوين الإصحاح السادس ورد ذكر لنبوته ودعوته لقومه وشركهم ولصنع السفينة ، وفى الإصحاح السابع ، قال الرب لنوح ادخل أنت وجميع بيتك إلى الفلك ، ومن جميع البهائم الطاهرة تأخذ سبعة سبعة ذكرا وأثى ، ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكرا وأثى ، لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض ، ولما كان نوح ابن ستائة سنة صار طوفان الماء على الأرض ، ، ثم يقول : « وكان الطوفان أربعين يوماً ، .. ثم يذكر انتهاء الطوفان ، وخروج نوح وامرأته وبنوه ونساء بنيه معه وكل الحيوانات التى معه ، فى الإصحاح الثامن ، وفى الإصحاح التاسع يقول : « وبارك الله نوحا وبنيه وقال لهم اثمروا وأكثروا واملأوا الأرض - وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساما وحاماً ويافت ، هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح ، ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض ، وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً .. وعاش نوح بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة ، فكمات كل أيام نوح تسعمائة وخمسين سنة ومات ، .

هذا هو الربع السابع من هذا الجزء الكريم ، وقد تضمن من الأصول ما يلي :

١ - تسجيل حوار أهل الأعراف مع جماهير المشركين وزعمائهم في الآخرة ، وحوار أهل النار مع أهل الجنة ، وطلبهم منهم الماء والطعام ، ورد أهل الجنة عليهم بأن الله حرم هذه الخيرات على الكافرين ، ووصف القرآن الكريم هؤلاء الكافرين بصفات جامعة ؛ منهم أنهم اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ، وأنهم غرتهم الدنيا عن الآخرة ، وبشرهم الله عز وجل ، أو قل أنذرهم بأن ينسأهم في الآخرة ، كما نسوا لقاء الله وحسابهم ، وبما أشركوا بالله ووجدوا آياته البينات ، مع أن الله عز وجل قد أنزل على رسوله كتابا مفصلا على علم هدى ورحمة للمؤمنين .

٢ - المشركون إذا كانوا يرتابون في صدق القرآن الكريم ، وينتظرون أن يقفوا موقف اللاهية منه ، ولا يحركون ساكنا إلا يوم يأتيهم تأويله ، فسيأتيهم صدقا وحقا ، وسوف يندمون على ما فعلوا ، ويعترفون بالحقيقة ، وسوف يطلبون الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله فلا يجدون لها من أثر . . .

٣ - تصوير مظاهر قدرة الله عز وجل في السماء والأرض ، وطلب عبادته حق عبادته ، وإقامة الدليل من تصرف الله للرياح وجمع السحب وإنزال المطر وسقي الأرض وإحيائها بالنبات بعد موتها وبيسها على قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى ، وعلى بعث الخلق ، وعلى النشور والحساب .

٤ - تمثيل المؤمن بالبلد الطيب يخرج نباته سهلا بإذن الله دون عناء ، وتمثيل الكافر بالبلد النكد الذي لا يخرج نباته إلا بصعوبة ونكد شديدين .

٥ - ضرب الأمثال للمشركين ليعتبروا ويتعظوا وتذكيرهم بقصة قوم نوح وعنادهم وكفرهم وإغراق الله لهم بالطوفان ونجاة نوح والمؤمنين معه . . . وكذلك مصير الكافرين ، لا يعصمهم من عذاب الله عاصم .

الربع الثامن

٦٥ - وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ
إِلَهِ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

٦٦ - قَالَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا نَنْزِلُكَ فِي سَفَاهَةٍ
وَإِنَّا لَنَنْظُرُكَ مِنَ الْكَذَّابِينَ .

٦٧ - قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ
الْعَالَمِينَ .

٦٨ - أبلغكم رسالتِ ربي وأنا لاكم ناصح أمين .

٦٩ - أزعجبتهم أن جاءكم ذكرهم من ربكم على رجل منكم
لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم
نوح وزادكم في الخلق بعدسطة فاذكروا إلاء الله لعلكم
تفليحون .

٧٠ - قالوا أجمتدنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا
فأتينا بما تعمدنا إن كنت من الصديقين .

٧١ - قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوني
في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من
سلطان فاتظروا إني معكم من المنتظرين .

٧٢ - فأنجينه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا
بآياتنا وما كانوا مؤمنين .

في هذه الآيات الكريمة يذكر الله عز وجل قصة نبي الله هود مع قومه عاد ، وكيف كفروا برسالة نبيهم فأهلكهم الله ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وقد سكنت أمة عاد في الجانب الشرقي من بلاد العرب بين عمان وحضرموت ، وكانوا يعبدون الأصنام ولهم ملك عظيم السلطان ، فولد بينهم هود ونما واشتد عوده ، حتى بلغ مبلغ الرجال ، فأوحى الله إليه بالنبوة وأمره بدعوة قومه إلى نبت الأصنام والتوجه إليه بالتوحيد والعبادة . . فذهب إليهم في عيدهم وقد جلس ملكهم على سريرته ومن حوله أمراؤه وجنده وأشراف الناس ، فلما توسطهم قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون ، ودعوا الأوثان فإنها آفة الضلال وهي التي أغرقت قوم نوح وما أنتم بأحسن منهم ؛ فاستدناه الملك وسأله أن يصف لهم ربه ، فقال : ليس كمثل شيء . فقال : وماذا تقول في هذه الآية العظيمة ؟ أيقدر إلهك عليها مع قوتها ؟ فقال هود : أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ؟ وفي الغد عاد إليهم هود من جديد وجعل يبذل النصيح والإرشاد وينذرهم بعذاب أليم إذا أصروا على كفرهم ، فكذبوه وسبوه ، فغضب منهم ودعا الله أن يتليهم بعذابه فابتلى الله نساءهم بالعقم فلم تحمل امرأة منهم ، ففزعوا إلى الملك فأمرهم بأن يحملوا القرابين إلى أوثانهم فلم يجد عملهم شيئاً ، وعاد هود إليهم بالموعظة الحسنة وأشار عليهم أن يلجأوا إلى الله فهو وحده الذي يدفع السوء عنهم ، فأنهالوا عليه ضرباً موجعاً حتى أسالوا دماهم ، وقالوا له : إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ، قال : يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين ، أو عجبت أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة . فلما ضاقت أنفسهم به وملوا مواعظه ودعاه قالوا : أجتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأنتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، وعاد القوم إلى النيل منه ومن بدنه بالعذاب وقالوا : يا هود ما جئتنا بيينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ،

قال لهم : إني أشهد الله وأشهدوا أني برىء مما تشركون من دونه . إني توكلت على الله ربي وربكم ، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربي على كل شيء حفيظ . وخرج من بينهم ودعا الله أن يتليهم بالقحط والجذب فأمسك الله عنهم المطر فأجدبت أرضهم ولم تثبت زراعا وماتت أنعامهم ، وأقاموا تحت هذا البلاء بضع سنين فضايق العيش بهم واشتد الكرب عليهم ، وعاد هود إليهم يعظهم لعل الله يرفع عنهم تلك النازلة ، ولكن قلوبهم كانت كالحجارة أو أشد قسوة ، فأرسل الله عليهم ريحا عاصفا ، فلما رأوه قالوا : هذا عارض ممطرنا .. فقال لهم هود : بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها ، نخرجوا من ديارهم يستقبلونها ، وقالوا لهود ساخرين : ستعلم يا هود من أشد منا قوة . وبطشا ؟ فثارت عليهم الرياح هوجاء عاصفة ، فلم تبق على الأرض شيئا إلا نسفته نسفا ، واستمرت سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فلم يبق من قوم هود أحد إلا قتله الريح ، ونجا هود والذين آمنوا معه .. يقول الله تعالى في هذه القصة في تلك الآيات الكريمة .. « وإلى عاد ، أي وأرسلنا إلى عاد وهو عاد ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وهي عاد الأولى « أخاهم هودا ، أي أخاهم في النسب لا في الدين ، وهو هود بن عبد الله بن رباح ، من إرم بن سام بن نوح عليه السلام - كما قيل .. واختلف في سبب الأخوة من أين حصلت ؟ على وجهين :

الأول ، قال الزجاج : إنه كان من بني آدم ومن جنسهم لا من الملائكة ، ويكفي هذا القدر في تسمية الأخوة ، والمعنى : إنا أرسلنا إلى عاد واحداً من جنسهم من البشر ليكون الفهم والأنس بكلامه أتم وأكمل ، ولم يبعث إليهم من غير جنسهم مثل الملك والجن .

والوجه الثاني أن أخاهم بمعنى صاحبهم ، والعرب تسمى صاحب القوم أخاهم ، وكانت منازل عاد بالأحقاف باليمن ، والأحقاف الرمل الذي بين عمان وحضرموت « قال يا قوم اعبدوا الله ، أي وحدوه ولا تجعلوا معه إلها

آخر ، ما لكم من إله غيره ، وجملة (قال يا قوم) على تقدير سؤال سائل ، أى ماذا صنع هود مع قومه ؟ فقال الله عز وجل : قال يا قوم الخ ، فأخبر الله تعالى عنه بقوله : قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أفلا تتقون ، الله أى تخافون عقابه فتؤمنون ، ولما كانت هذه القصة مسبوقة بقصة نوح وقد علم ما حل بهم من الغرق حسن قوله هنا (أفلا تتقون) أى أفلا تخافون ما نزل بهم من العذاب ، ولما لم يكن قبل واقعة نوح شيء - حسن تخويفهم من العذاب هناك : إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قال الملائكة الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة ، أى فى حمق وجهالة وضلالة عن الصواب ، وقال قوم نوح إنا لنراك فى ضلال مبين ، وقوم هود إنا لنراك فى سفاهة ، لأن نوحاً لما خوف قومه بالطوفان وطفق فى عمل السفينة فى أرض ليست فيها من الماء شيء قال له قومه إنا لنراك فى ضلال مبين ، حيث تتعب فى إصلاح سفينة فى هذه الأرض ، وأما هود عليه السلام فإنه لما زيف عبادة الأصنام ونسب من عبدها إلى السفه وهو قلة العقل قابله بمثله فقالوا إنا لنراك فى سفاهة ، .. وإنا لنظنك من الكاذبين ، أى فى ادعائك أنك رسول من رب العالمين ، قال ، هود لهؤلاء الملائكة الذين نسبوه إلى السفه ، يا قوم ليس بى سفاهة ، أى ليس الأمر كما تزعمون أن بى سفاهة ، ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي ، أى أودى إليكم ما أرسلنى به من أوامره ونواهيه وشرائعه وتكاليفه ، وإنا لكم ناصح ، أى فيما أمركم من عبادة الله تعالى ، أمين ، أى مأمون على تبليغ الرسالة وأداء النصح ، والأمين الثقة على ما أوتمن عليه ، وقال نوح : وأنصح لكم بصيغة الفعل ، وقال هود : وإنا لكم ناصح بصيغة اسم الفاعل ؛ لأن صيغة الفعل تدل على تجدده ساعة بعد ساعة ، وكان نوح يدعو قومه ليلاً ونهاراً كما أخبر الله تعالى عنه بقوله رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، ، فلما كان ذلك من عادته ذكر بصيغة الفعل فقال : وأنصح لكم ، وأما هود فلم يكن كذلك بل كان يدعوهم وقتاً دون وقت فلماذا قال «وأنا لكم ناصح أمين» ، وفعل هود ذلك لأنه

كان يجب عليه إعلام قومه بذلك ، ومقصوده الرد عليهم في قولهم « وإنا لنظنك من الكاذبين ، فوضف نفسه بالأمانة وأنه أمين في تبليغ ما أرسل به من عند الله ، وفيه دليل على جواز مدح الإنسان نفسه في موضع الضرورة إلى مدحها ، أو عجزهم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، وفي إجابة الأنبياء الكفرة عن كلماتهم الحقاء بما أجابوا والإعراض عن مقالاتهم كمال النصيح والشفقة وهضم النفس وحسن المجادلة ، وهكذا ينبغي لكل ناصح « واذكروا ، نعمة الله تعالى عليكم ، إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، أي خلقتهم في الأرض أو جعلكم ملوكا في الأرض من رمل عاج - وهو موضع بالبادية بها رمل - إلى شجر عمان عند ساحل البحر بين عمان وعدن « وزادكم في الخلق بسطة ، أي طولا وقوة ، فاذكروا آلاء الله ، أي أنعمه أي اعملوا بما يليق بذلك الإنعام ، وهو أن تؤمنوا به وتتركوا ما أتم عليه من عبادة الأصنام ، لعلمكم تفلحون ، أي تفوزون بالنعيم المقيم في الآخرة « قالوا ، أي قوم هود مجيبين له « أجتنا ، يا هود ، نعبد الله وحده ونذر ، أي ترك ، ما كان يعبد آباؤنا ، أي من الأصنام استبعدوا اختصاص الله تعالى بالعبادة والإعراض عما أشرك به آباؤهم ، ومعنى المجيء في أجتنا إما لأن هودا كان معتزلا عن قومه كما كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم بحراء قبل البعثة ، فلما أوحى الله تعالى إليه جاء قومه بدعوهم ، أو يريدون به الاستهزاء لأنهم كانوا يعتقدون أن الله تعالى لا يرسل إلا الملائكة ، فكانهم قالوا : أجتنا من السماء كما يجيء الملك .. أو أن الكلام على المجاز ، كما تقول : ذهب يشتهي - ولا يريد حقيقة الذهاب « فأتنا بما تعدنا ، أي من العذاب « إن كنت من الصادقين ، أي في قولك إني رسول الله ، قال ، هود مجيبا لهم ، قد وقع عليكم ، أي نزل عليكم ، من ربكم رجس ، أي عقاب ، وغضب ، أي سخط ، أتجادلوتني في أسماء سميتوها ، أي وصفتوها ، أقم وآباؤكم ، أي من عند أنفسكم ، والاستفهام للإيثار عليهم لأنهم سموا الأصنام بالآلهة فعبدوها من دون الله « ما نزل الله بها ، من عبادتها « من سلطان ، أي حجة وبرهان ، لأن المستحق للعبادة بالذات هو الموجد

للكل « فانتظروا ، أى نزول العذاب بسبب تكذيبكم لى « إني معكم من المنتظرين ، ذلك فأرسلت عليهم الريح العقيم «فأنجيناه ، أى هودا « والذين معه ، أى من المؤمنين « برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ، أى استأصلناهم . وما كانوا مؤمنين ، عطف على كذبوا ، روى أن قوم هود كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله تعالى هودا فكذبوا وازدادوا اعتوا فأمسك الله تعالى القطر عنهم ثلاث سنين حتى جهدوا ، وكان الناس حينئذ مسلمهم وكافرهم إذا نزل بهم بلاء توجهوا إلى البيت الحرام وطلبوا من الله الفرج فجهزوا إلى الحرم مرثد بن سعد فى سبعين من أعيانهم ، وكان بمكة إذ ذاك العالقة وسيدهم معاوية ابن بكر ، فلما قدموا عليه وهو بظاهر مكة أنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصحابه فلبثوا عنده شهرا يشربون الخمر ، فلما رأى ذهولهم باللهو عما بعثوا إليه أهمه ذلك واستحى أن يكلمهم فيه مخافة أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه ، فدىس عليهم مغنية تغنيهم بشعر فى وصف قحط قومهم ، فآزجهم ذلك ، وقال لهم معاوية : خلوا الحرم واستسقوا لقومكم ، فقال لهم مرثد بن سعد : والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله تعالى سقاكم وأظهر إسلامه ، فقالوا لمعاوية : احبس عنا مرثدا لا يقدم معنا مكة فانه قد اتبع دين هود وترك ديننا ، ثم دخلوا مكة فقال مرثد : اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم فأنشأ الله تعالى سحابات ثلاث ، بيضا وحمر وسودا ، ثم ناداه من السماء يامرثد : اختر لنفسك ولقومك ، فقال : اخترت السوداء فإنها أكثر ماء ، فخرج على عاد من واد لهم يقال له المغيث فاستبشروا به ، وقالوا : هذا عارض بمطرنا ، فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ، ونجا هود والمؤمنون معه وأتوا مكة فعبدوا الله فيها حتى ماتوا . يروى أن النبي من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إذا هلك قومهم هاجر والصالحون معه إلى مكة يعبدون الله تعالى فيها حتى يموتوا ، وروى عن على رضى الله تعالى عنه أن قبر هود بحضرموت فى كتيب أحمر ، وقال : بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيا : قبر هود وصالح وشعيب وإسماعيل فى تلك البقعة . .

٧٣ - وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ .

٧٤ - وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُوءِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ الْآءِ اللَّهُ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ .

٧٥ - قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ .

٧٦ - قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ .

٧٧ - فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِحُ آئِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ .

٧٨ - فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جُثَمِينَ .

٧٩ - فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَأَنْصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ .

في هذه الآيات الكريمة السبع ذكر لقصة صالح وقومه ثمود، وقد عاشت أمة ثمود في الشمال الأوسط من جزيرة العرب بواد يدعى وادي القرى إلى الشمال من المدينة المنورة، ويمتد شمالا من الحجاز إلى أطراف بلاد الشام، وكانوا يتخذون بيوتاً ينحتونها في الصخور والجبال، وكانوا قد اتحلوا عبادة الأوثان

كأسلافهم قوم هود. فعاب عليهم عقلاؤهم أي كفوا عن عبادة الأوثان وذكرهم بما عوقب به قوم هود من تدمير أوطانهم وما فعلت بهم الرياح العاصفة، فكانوا يعترضون بأن قوم هود لم يتخذوا بنيانهم من صميم الصخر كما ينحتون، وإنما كانوا يبنونها على الأحقاف وهي الرمال التي لا بقاء لها مع الرياح العاصفة، واجتمعوا إلى ملكهم ليتخذ لهم آلهة كما كان يعبد قوم عاد وقوم نوح من قبل، وظهر بينهم صالح وقد بعثه الله نبيا في قومه، فدعاهم إلى عبادة الله والكف عن الأوثان، وضرب لهم الأمثال بمن نزلت بهم عقوبة الله من الأمم التي سبقتهم فقالوا يا صالح: لن تؤمن لك حتى تأتينا بآية من ربك فقال: ما الذي تريدون؟ قالوا: أخرج لنا ناقة من هذه الصخرة تؤمن بك ونعلم أنك صادق ولكن يكون لبنها لنا ولا ترعى في مراعيها بل من رؤوس الجبال وبطن الوديان، ويكون الماء لنا يوما ولها يوما، فقال: إن الله يجيبكم إلى ما طلبتم ولكني أحذركم أن يرميها أحدكم بحجر أو سهم أو يمنعها من الشرب هي أو فصيلها، وأخذ عليهم الموائيق، ثم قام فصلى ودعا الله فاضطربت الصخرة وخرجت منها ناقة ومن ورائها فصيلها. ولبثت الناقة بين القوم فترة من الزمن تأكل من الوديان وتشارك القوم في مأثمهم. وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون، فبثوا في أممهم عزمهم على عقر الناقة وندبوا منهم رجلا ليعقرها، فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر وأجهز عليها الناس فذبحوها هي وفصيلها وتقاسموا لحمها، وعلم صالح بما فعل قومه فأندبهم بعذاب من الله واقع بهم لا محالة: فقالوا له: لقد أنذرتنا بالعذاب منذ بعيد وما نرى شيئا مما تزعم، فقال لهم: تمتعوا في دياركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب، وانقضت الأيام فابتلاهم الله فزلزلت بيوتهم وقصورهم حتى باتوا جائعين وأصبحوا أثرا بعد عين، ونجا صالح والذين آمنوا معه، وخرج من أرضهم ولحق بفلسطين حتى أتاه اليقين.

يقول الله تعالى في هذه الآيات الكريمة السبع «وإلى ثمود، أي وأرسلنا إلى ثمود، وهي قبيلة أخرى من العرب سموا باسم أبيهم الأكبر وهو ثمود ابن غابر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام كما يروى، وكان مسكنهم الحجر

بكسر الحاء موضع بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ، أخام صالحا ، أى
أخام في النسب لآفي الدين ، قال ، لهم صالح حين أرسله الله تعالى إليهم ، يا قوم
اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أى فلا يستحق أن يعبد سواه ، قد جاءكم
بينه من ربكم ، أى معجزة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتى وصدق ما أقول ،
وما أدعو إليه من عبادة الله تعالى ؛ ثم فسر تلك البينة بقوله ، هذه ناقة الله
لكم آية ، أى علامة على صدقى ، وأضيفت البينة إلى الله تعالى تعظيما لها وتفخيمها
لشأنها كما يقال : بيت الله ، ولأنها جاءت من عند الله تعالى بلا وسائط وأسباب
معهودة ولذلك كانت آية ، فذروها ، أى اتركوها ، تأكل فى أرض الله ، أى
العشب فليست الأرض لكم ولا ما فيها من النبات من إنباتكم ، ولا تمسوها
بسوء ، أى بشيء من أنواع الأذى لا يعقر ولا يغيره (فياخذكم عذاب أليم)
أى بسبب أذاها ، واذكروا إذ جعلكم خلفاء ، أى فى الأرض ، من بعد
عاد ، أى أن الله تعالى أهلك عادا وجعلكم تخلفونهم فى الأرض وتمسرونها
، وبوأكم ، أى أسكنكم وأنزلكم ، فى الأرض ، أى أرض الحجر ، تتخذون
من سهولها قصورا ، أى تبنون القصور من سهولة الأرض لأن القصور إنما
تبنى من اللبن والأجر المتخذ من الطين السهل اللين غالبا ، وتنحتون الجبال
بيوتا ، أى وتنقبون فى الجبال البيوت ، وكانوا فى الصيف يسكنون بيوت
الطين ، وفى الشتاء بيوت الجبل ، فاذكروا آلاء الله ، أى فاذكروا نعم الله عليكم
واشكروه عليها فإنكم منعمون مرهفون بمساكن فى الصيف ومساكن فى الشتاء
، ولا تعثروا فى الأرض مفسدين ، والعيث أشد الفساد ؛ وقال قتادة : معناه
لانسيروا فى الأرض مفسدين ، وقيل : أراد به النهى عن عقر الناقة ، قال
الملا الذين استكبروا من قومه ، أى تكبروا عن الإيمان ، للذين استضعفوا ،
أى للذين استضعفوهم واستذلوهم ، لمن آمن منهم ، بدل من الذين استضعفوا
، أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ، أى أن الله أرسله إلينا وإليكم ، قالوا
ذلك على الاستهزاء ، قالوا ، أى الضعفاء ، إنا بما أرسل به ، أى صالح من
الدين والهدى ، مؤمنون ، أى مصدقون ، قول ، الملا ، الذين استكبروا ، عن

أمر الله تعالى والإيمان به وبرسوله صالح عليه السلام ، إنا بالذي آمنتُم به
كافرون ، أي جاحدون متكبرون ، فعقروا الناقة ، أي عقروا رجل منهم اسمه
قدار بأمرهم ، فأسند العقر إليهم ، والعقر قطع عرقوب البعير ، ثم جعل النحر
عقرا فإنه قتلها بالسيف ، وناحر البعير بعقره ثم ينحره ، ووعتوا عن أمر ربهم ،
أي تكبروا عن أمر ربهم وعصوه وكذبوا فيهم صالحا عليه السلام ، وقالوا
يا صالح اتنا بما تعدنا ، أي من العذاب ، إن كنت من المرسلين ، أي إن كنت
تزعم أنك رسول الله فإن الله ينصر رسله على أعدائه ، وإنما قالوا ذلك لأنهم
كانوا مكذبين في كل ما أخبر به من العذاب ، فأخذتهم الرجفة ، أي الزلزلة
الشديدة من الأرض والسيحة من السماء ، فأصبحوا في دراهم جاثمين ، أي
باركين على الركب ميتين ، روى أن عاداً لما هلكت عمرت ثمود بلادهم
وخلفوم في الأرض وكثروا وعمروا عمارا طوالا حتى أن الرجل كان يبني
البيت المحكم فيهدم في حياته فينحتون البيوت في الجبال ، وكانوا في سعة ورخاء
من العيش ، فغشوا وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأصنام ، فبعث الله تعالى إليهم
صالحا عليه السلام من أشرفهم غلاما شابا ، فدعاهم إلى الله تعالى حتى كبر لا يتبعه
إلا القليل المستضعفون ، فلما ألح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ وأكثر عليهم
التحذير والتخويف سألوه آية ، فقال لهم : أي آية تريدون؟ فقالوا : تخرج معنا
إلى عيدنا في يوم معلوم لهم في السنة فتدعو إلهك وتدعوا آلهتنا ، فإن استجيب
لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعنا ، قال لهم صالح : نعم ، فخرجوا بأوثانهم
إلى عيدهم وخرج معهم صالح ودعوا أوثانهم وسألوها الاستجابة فلم تجيبهم ،
ثم قال سيدهم مشيرا إلى صخرة في ناحية من الجبل : أخرج لنا من هذه الصخرة
ناقة فان فعلت ذلك صدقناك ، فأخذ صالح موثقهم : لئن فعلت لتؤمنن ولتصدقن ،
فقالوا نعم ، فصلى ودعا ربه فتحركت الصخرة وانشقت وخرج منها ناقة عشراء ،
فلما خرجت الناقة قال لهم صالح : هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم
معلوم ، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء ، وكانوا يحلبون
ما شاؤوا حتى تمتلئ أوانيهم فيشربون ويدخرون ، وكانت تقيم زمن الصيف

بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم إلى بطنه وتشتو أي تقيم زمن الشتاء يبطئه
فتهرب مواشيهم إلى ظهره ، فشق ذلك عليهم وزينت عقربها لهم امرأتان منهم
فغقروها واقتسموا لحمها ودخل فصيلها صخرة فلم يقدرُوا عليه فقال لهم صالح :
تصبحون غدا وجوهكم مصفرة وبعد غد وجوهكم حمرة واليوم الثالث ،
وجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب ، فلما كان اليوم الرابع واشتد الضحا أتهم
صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وهلكوا ، ويروى أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم حين مر بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه : لا يدخلن أحد منكم
القرية ولا تشربوا من مائها ولا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا
باكين أن يصيبكم مثل الذي أصابهم ، وقال صلى الله عليه وسلم لعلي : أتدرى
من أشقى الأولين ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : عافر ناقة صالح عليه السلام
، فتولى ، أي أعرض صالح عنهم ، أي انصرف عنهم بعد هلاكهم بالعذاب ،
وقيل : إنه تولى عنهم وهم أحياء قبل هلاكهم ويدل عليه أنه خاطبهم ، وقال
يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ،
وهذا الخطاب لا يليق إلا بالأحياء ، والصحيح أنه بعد هلاكهم تقرِّباً وتوبيخاً
كما خاطب النبي صلى الله عليه وسلم الكفار من قتلى بدر حين ألقوا في القليب ،
فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يناديهم ؛ فقال عمر يا رسول الله :
تكلم أمواتا قد جيفوا ؟ فقال : ما أتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون ،
وقيل : إنما خاطبهم صالح عليه السلام بذلك ليكون عبرة لمن يأتي من بعدهم
فينزجرون عن مثل تلك الطريقة ، وروى أن عقربهم الناقة كان يوم الأربعاء
ونزل بهم العذاب يوم السبت ، وروى أنه خرج في مائة وعشرة من المسلمين
وهو يبكي فالتفت فرأى الدخان ساطعاً فعلم أنهم قد هلكوا وكانوا ألفاً
وخمسة مائة دار ، وروى أنه رجع بمن معه من المسلمين فسكنوا ديارهم ،
وتوفي صالح بمكة - على ما قيل - وهو ابن ثمان وخمسين سنة وأقام في قومه
عشرين سنة .

٨٠ - وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ
أَحَدٍ مِّنَ الْمَلَكِينَ .

٨١ - إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
مُّسْرِفُونَ .

٨٢ - وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ
إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ مُّتَطَهِّرُونَ .

٨٣ - فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ .

٨٤ - وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ .
في هذه الآيات الخمس ذكر للوط وقومه وهلاك الله لهم .

وقد جاء ذكر قصة لوط في سفر التكوين من العهد القديم ، ففي الإصحاح الثالث عشر ذكر للوط ، وأمواله الكثيرة ومخاصمته لإبراهيم ، وأنه اختار بسبب ذلك دائرة الأردن ، ولهذا دخل لوط من بيت المقدس ، واعتزل الواحد الآخر ، إبراهيم في أرض كنعان ، ولوط سكن في مدن الدائرة ، ونقل خيامه إلى سدوم ، وكان أهل سدوم أشرا وأخطاة لدى الرب جدا ، وكان لوط ابن أخى إبراهيم كما في الإصحاح الرابع عشر ، وفي الإصحاح التاسع عشر ذكر لاستضافة لوط للملائكة ، وتجمع قومه على بابه مطالبين بالرجلين ، وما أمرت به الملائكة لوطا من الخروج بأهله بعيدا عن سدوم ، وأن لا ينظر إلى ورائه ، وأن يهرب إلى الجبل لتلايهلك . . وأمطر الرب على سدوم كبريتا وفارا ، وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض ، ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح « ولوطا ، أى وأرسلنا لوطا ابن أخى إبراهيم » إذ قال لقومه ، أى وقت قوله لهم ، وقيل معناه : « واذكر لوطا ، ويبدل منه » إذ قال لقومه ، وهم أهل سدوم (١) ، وكان

(١) بالسین المفتوحة والتال في رواية الأزهرى وبالتال في رواية غيره .

لوط عليه السلام لما هاجر مع عمه إبراهيم عليه السلام إلى الشام ، نزل إبراهيم عليه السلام أرض فلسطين ، وأنزل لوطا الأردن ، فأرسله الله تعالى إلى أرض سدوم يدعوهم إلى الله تعالى وينهاهم عن فعلهم القبيح وهو قوله « أنأتون الفاحشة ، أي أتفعلون الفاحشة ، وهي إتيان الرجال من دون النساء ، ما سبقكم بها من أحد من العالمين ، أي ما فعلها أحد قبلكم ، وبختمهم أولا يأتیان الفاحشة ثم باختراعها ، فإنه أسوأ ، أنتم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم ، أيها القوم ، قوم مسرفون ، أي مجاوزون الحلال إلى الحرام ، وهذا إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح وتدعو إلى اتباع الشهوات ، وإنما ذمهم الله تعالى وغيرهم ووبخهم بهذا الفعل الخبيث ؛ لأن الله تعالى خلق الإنسان وركب فيه شهوة النكاح لبقاء النسل وعمارة الدنيا وجعل النساء محلا لتلك الشهوة وموضع النسل ، فإذا تركن ووضع الشيء في غير محله الذي خلق له فقد أسرف وجاوز الحدود واعتدى ، لأن وضع الشيء في غير محله الذي وضع له إسراف ، وقوم لوط كانت بلادهم أخصبت بالزرع والإثمار ، وكانت لهم ثمار وحصاد لم يكن في الأرض مثلها ، وما كان جواب قومه ، له حين وبخهم على فعلهم القبيح وارثكاهم ما حرم الله تعالى عليهم من العمل الخبيث ، إلا أن قالوا ، أي قال بعضهم لبعض ، أخرجوهم من قريبتكم ، أي ما جاءوا بما يكون جوابا عما تكلمهم به لوط عليه السلام من إنكار الفاحشة وتعظيم أمرها ، ولكنهم جاءوا بشيء آخر لا يتعلق بنصيحته وكلامه من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ضجرا بهم وبما يسمعون من وعظهم ونصحهم ، إنهم أناس يتطهرون ، أي يتزهون عن فعلكم وبتطهيرهم من الفواحش واقتخارا بما هم فيه من الفساد ، فأنجيناه وأهله ، أي من آمن معه ، إلا امرأته ، فإنها كانت تسركفر موالية لأهل سدوم ، كانت من الغابرين ، أي من الذين غيروا أي بقوا في ديارهم فهلكوا ، وروى أنها أصابها حجر فماتت ، وإنما قال تعالى « من الغابرين ، ولما يقل « من الغابرات ، لأنها هلكت مع الرجال فغلب الذكور على الإناث ،

« وأمطرنا عليهم مطراً ، أى نوعاً من المطر عجيباً وهو مبین بقوله تعالى
« وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ، أى قد عجنّت بالكبريت والنار ، يقال :
مطرت السماء وأمطرت ، وقال أبو عبيدة : يقال فى العذاب (أمطر) وفى
الرحمة (مطر) ، وقيل : خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم
« فانظر ، أى أيها الإنسان ، كيف كان عاقبة المجرمين ، كما قال تعالى « لجعلنا
عليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل » .

٨٥ - وَإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ
إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ
وَالْبِزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي
الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ .

٨٦ - وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُؤْنَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا
فَكَثَرْتُمْ وَاَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

٨٧ - وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ
لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ .

ثلاث آيات كريمات ، ابتدأ بها الله عز وجل قصة شعيب عليه السلام ،
وستأتى بقية القصة فى مطلع الجزء التاسع يا ذن الله تعالى ، قال الله تعالى فى
قصة شعيب « وإلى مدين ، أى وأرسلنا إلى ولد مدين بن إبراهيم خليل
الرحمن عليه السلام ، أخاهم ، فى النسب لا فى الدين ، شعيباً ، وكان يقال له

« خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعته قومه عليه السلام ، وكان قومه أهل كفر
وبخس للكيل والميزان » قال ، شعيب عليه السلام « يا قوم اعبدوا الله ما لكم
من إله غيره قد جاءكم بينة ، أى معجزة تدل على صدق ما جئت به « من ربكم ،
أوجبت به عليكم الإيمان بي والأخذ بما أمركم به ، ولم تذكر معجزة له ، فقد
وقع العلم بأنه كانت له معجزة لقوله تعالى « قد جاءكم بينة من ربكم ، ولا بد
لمدعى النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه وإلا لم تصح دعواه ، غير أن معجزته
لم تذكر في القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم فيه ،
وقيل : أراد بالبينة الموعظة وهى قوله « فأوفوا الكيل والميزان ، أى أتموها
« ولا تبخسوا ، أى تنقصوا » الناس أشياءهم ، فطففوا الكيل والوزن ، يقال
بخس فلان الكيل والوزن إذا نقصه وطففه ولم يقل المكيال والميزان كما فى
سورة هود ، لأنه أراد بالكيل آلة الكيل وهو المكيال أو سى ما يكال به
بالكيل أو أراد أوفوا كيل المكيال ووزن الميزان وإنما قال (أشياءهم) لأنهم
كانوا يبخسون الناس كل شىء فى مباحاتهم ، ولا تفسدوا فى الأرض ، أى
بالكفر والمعاصى « بعد إصلاحها ، أى بعد ما صلح أمرها وأهلها برسالات
الأنبياء ، وبتبيين الشرائع ذلكم ، أى الذى ذكرت وأمرتكم به من الإيمان
ووفاء الكيل والميزان وترك المظالم والبخس « خير لكم ، أى بما أتم عليه من
الكفر وظلم الناس « إن كنتم مؤمنين ، أى مصدقين بما أقول لكم ، ومعنى
« خير لكم ، أى فى الإنسانية وحسن ما يتحدث به وجمع المال ؛ لأن الناس
يصبحون أرغب فى متاجرتكم إذا عرفوا منكم الأمانة والعدالة « ولا تعدوا
بكل صراط ، أى طريق من طرق الدين « توعدون ، أى تمنعون الناس من
الدخول فيه وتهددونهم على ذلك ، روى أنهم كانوا يجلسون على الطرقات
فيخبرون من أتى عليهم أن شعيبا الذى تريدون كذاب فلا يفتكم عن دينكم ،
وقيل : كانوا يقطعون الطريق على الناس أو يهدون لأخذ المسكوس ، وتصدون ،
أى تصرفون الناس « عن سبيل الله ، أى دينه « من آمن به ، دليل على أن المراد
بالطريق سبيل الحق وصراط الحق واحد قال تعالى « وأن هذا صراطى مستقيما

فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، فكيف قيل ، بكل صراط ، ،
والجواب أن صراط الحق وإن كان واحداً إلا أنه يتشعب إلى معارف وحدود
وأحكام كثيرة مختلفة وكانوا إذا رأوا واحداً يشرع في شيء منها أو عدوه وصدوه
، وتبغونها ، أي تطلبون الطريق ، عوجاً ، أي تصفونها للناس بأنها سبيل
معوجة عن الحق غير مستقيمة لتصدوهم عن سلوكها والدخول فيها ، أو يكون
تمكياً بهم وأنهم يطلبون لها ما هو محال ، وأن طريق الحق لا يعوج ، واذكروا ،
نعمة الله عليكم وآمنوا به ، إذ كنتم قليلاً فكثركم ، أي أكثر عددكم بعد القلة
أو كثركم بالغنى بعد الفقر أو كثركم بالقدرة بعد الضعف ، وقيل : إن مدين بن
إبراهيم تزوج بنت لوط عليهما السلام فولدت ، فزاد الله تعالى من نسلها بالبركة
والنماء فكثروا ونموا ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ، قبلكم بتكذيبهم
رسولهم أي آخر أمرهم من الهلاك ، وأقرب الأمم إليكم قوم لوط ، فانظروا
كيف أرسل الله تعالى إليهم حجارة من السماء لما عصوه وكذبوا رسوله
، وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ، به أي وإن
اختلفتم في رسالتي فصرتم فرقتين : فرقة آمنت بي وصدقتم برسالتي وفرقة
كذبت وحبنت برسالتي ، فاصبروا ، أي فتربصوا ، حتى يحكم الله بيننا ،
أي بين الفرقتين فيعز المؤمنين أي المصدقين وينصرهم ويهلك المكذبين
الجاحدين ويعذبهم ، وفي هذا وعد للمؤمنين ووعد للكافرين ، وهو خير
الحاكمين ، أي لا حيف في حكمه ولا معقب له ، لأنه تعالى منزه عن الجور والميل
في حكمه ، وإنما قال (خير الحاكمين) لأنه قد يسمى بعض الأشخاص حاكماً على
سبيل المجاز . . وإن كان الله تعالى هو الحاكم في الحقيقة .

وبهذا ينتهي الربع الثامن من القرآن الكريم . وخلاصة ما اشتمل عليه
من معاني وحكم وأصول :

١ - ذكر رسالة نبي الله هود إلى قومه عاد ، وتكذيبهم له ، ومجادته
إياهم ، ودفاعهم عن شركهم وتقليدكم لأبائهم وأجدادهم ، وإهلاك الله إياهم ،

وقطع دابر الشرك والمشركين . ومغزى هذه القصة إنذار الله عز وجل لمشركي مكة الذين وقفوا في وجه الرسول ورسالته .

٢ - ذكر رسالة الله إلى نبيه صالح لينذر قومه ثمود ، ومعجزة صالح وهي الناقة ، وكفر قومه به ، وعنادهم وعدم خضوعهم أو امتثالهم ، ولجاجهم في الشرك والضلال ، وعقرهم الناقة وإهلاك الله إياهم ، وفي هذا وعيد للمشركين المعاندين .

٣ - ذكر رسالة لوط إلى قومه ، وتحذيره لهم من إتيان الفاحشة ، وكفرهم برسالته ، ونجاة لوط ومن آمن معه ، وهلاك قومه .

٤ - ذكر رسالة شعيب إلى مدين وتحذيره لهم من تطيف المكيال والميزان ووعيده لهم بالهلاك إن استمروا على اللجاج والكفر والطغيان .
وستكمل قصة شعيب في مطلع الجزء التاسع بإذن الله تعالى . وفي هذه القصة أيضا عبرة للمشركين الذين وقفوا في وجه الإسلام ورسوله الكريم . .
وبهذا ينتهي الجزء الثامن من القرآن الكريم .

نظرة عامة في هذا الجزء

(١)

يشمل الجزء الثامن من القرآن الكريم أواخر سورة الأنعام وأوائل سورة الأعراف ، وقد سبق أن ذكرنا أن سورة الأنعام هي كلها في حجاج المشركين بالحجة والدليل ، وفي الرد على مزاعمهم ومفترياتهم ، أما سورة الأعراف فهي كذلك تتناول دعوة المشركين إلى الإيمان برسالة محمد والإسلام ، وتتناول ذكر قصص الأنبياء والرسل وكفاحهم في أممهم في سبيل تبليغ رسالة الله إلى الناس ، لما في ذكر هذه القصص من العظة والعبرة .

وسورة الأعراف والأنعام مكيتان ، وقد سميت الأولى بالأعراف ، وهو اسم غريب غير مألوف جريا على مألوف سور القرآن في أن تسمى بأسماء غريبة غير معهودة ، وقد أطلق عليها اسم الأعراف ، وأخذ هذا الاسم مما ذكر في الآيات ٤٦ - ٤٩ - من السورة ، من حديث أهل الأعراف إلى أهل الجنة وإلى أصحاب النار في الآخرة .. أما سورة الأنعام فقد أطلق عليها هذا الاسم الغريب لما سبق أن ذكرناه في بيان ذلك في ختام الكلام على سورة الأنعام في هذا الجزء ..

(٢)

وفي هذا الجزء يذكر القرآن الكريم كثيرا من الأصول العامة التي تهتدى بها الأمم والأفراد في الحياة .. وأهم هذه الأصول هي :

١ - في الربع الأول من هذا الجزء يرد الله عز وجل على المشركين الذي أكثروا على محمد صلى الله عليه وسلم من طلب الآيات المؤكدة لنبوته ورسالته ، وينعى الله عز وجل على المشركين شركهم وأباطيلهم وظنونهم وأوهامهم ، ويتناول الله عز وجل أحكام الذبح بشيء من البيان والتفصيل ، ثم يضرب الأمثال للؤمنين والكافرين ، ويجعل الكفر موتا والإيمان حياة ،

وهو كذلك حقا ؛ ويندد الله عز وجل إثر ذلك بزعماء المشركين وسادتهم ، ويقول : « وكذلك جعلنا في كل قرية أكبر مجرميها ، ليمكروا فيها وما يمحرون إلا بأنفسهم ، وما يشعرون » .

٢ - وفي الربع الثاني يذكر الله عز وجل أن للؤمنين دار السلام عند الله في الآخرة ، وأن الله هو وليهم بسبب أعمالهم الصالحة الطيبة . ثم يذكر ما يكون بين أهل النار من حوار وجدل .. وبين الله عز وجل قاعدة إلهية جليلة ، وهي أن الله عز وجل لا يدمر أمة من الأمم إلا بظلمهم وبعكوفهم على الشرك والضلال والبهتان ، وبحريهم لرسالات السماء ، ويخاطب الله عز وجل المشركين خطابا بليغا جامعاً ، خطاباً فيه تهديد وفيه وعيد ، « قل يا قوم اعملوا على مكاتكم إني عامل ، فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون » .. ثم يذكر الله عز وجل شرك المشركين وجعلهم نصيباً من الحرث والأنعام بما خلق الله لأهلهم ، ثم ينعي عليهم ما كانوا يعملون من وأد البنات ، ومن تحريمهم بعض الأنعام والحرث على الناس ، بحيث لا يطعمها إلا من يزعمون ، ومن تحريمهم ركوب بعض الأنعام ، ومن عدم ذكر اسم الله عليها عند ذبحها افتراء على الله ، ومن جعلهم بعض ما في بطون الأنعام خالصاً لذكورهم وعمرها على أزواجهم ، والبعض الآخر للذكور والإناث ، إلى غير ذلك مما افتروه من شعائر وشرائع ، هي كلها ضلال في ضلال ، وبهتان في بهتان وإثم في إثم .

٣ - وفي الربع الثالث يذكر الله عز وجل مظاهر قدرته الباهرة في الزرع والنبات والأنعام ، وينعي عليهم تحريمهم وتحليلهم وافتراءهم الكذب على الله ، وينص الله عز وجل على أنه إنما حرم على الناس الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما ذبح مما لم يذكر اسم الله عليه ، ثم يذكر ما حرمه على اليهود من كل ذي ظفر ، ومن شحوم البقر والغنم .. ويرد بعد ذلك على المشركين في زعمهم الكاذب ، وقولهم الآثم .. لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء .. وفي هذا الربع يقول الله عز وجل : « ولا تسرفوا إنه

لا يجب المسرفين^(١) ، ، وفي سورة الأعراف يقول الله عز وجل : «كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين»^(٢) ، وهنا نجد نهيا صريحا عن الإسراف ، لما يؤدي إليه الإسراف من الفقر ومن الترف أيضا ، والإنسان لاشك أنه يذم إذا قاد لنفسه الفقر ، وإذا عاش عيشة الترف ، الترف الذي يؤدي إلى الفجور والفسق والإثم ، وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفينا ففسقوا فيها فتح عليها القول فدمرناها تدميرا^(٣) ، والترف دائما مهلكة للحضارة ، ومدمر لبناء الأمم ونهضاتها .

٤ - وفي الربع الرابع من هذا الجزء يضع الله عز وجل أصولا عامة يدعو إليها الناس كافة ، والمسلمين خاصة ، وهي من أصول الإسلام : ديننا الخالد الكريم ، وهذه الأصول العامة هي : تحريم الشرك ، وعقوق الوالدين ، ووأد البنات ، وقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق ، وقربان الفواحش ، وقربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ رشده ، وإيفاء الكيل والميزان بالقسط ، والعدل في القول والعمل ، والوفاء بالعهد .. وهي أصول عامة يبنى عليها الإسلام ، صراط الله المستقيم ، ودينه الحكيم ، الذي أمرنا الله باتباعه وبترك اتباع العقائد والمذاهب الضالة الضارة .

والآية الأولى «قل تعالوا ، جمعنا أسمى الفضائل وأسباب الطمأنينة والمعاملة : فقد بدأت بالأمر بالعدل ، وهو ما ساد في أمة إلا كان معه راحة القلوب ، وهدوء النفوس ، والأمن على الحقوق . ويتبعه اتساع العمران وسعادة بني الإنسان . ولا يأبي العدل إلا كل منحرف النفس عموت بين الناس ، بل لا يستطيع من يأبي العدل أن يجهر بأنه يأباه ، وإنما يحتمل لإظهار أن العدل في جانبه ، متحملا لذلك بما يقدر عليه من الأسباب والتمويهات . وأردفه بالأمر بالإحسان ، لأن فيه فضيلة التطول ، وجمع القلوب المتفرقة ،

(١) بعض آية ١٤١ من سورة الأنعام .

(٢) بعض آية ٣١ من سورة الأعراف .

(٣) سورة الإسراء آية ١٦ .

وسد طريق الشيطان في إفساد ذات البين . وكم للإحسان من آثار حسان :
فكم فض من مشاكل تعاصى على القضاء والقوة فضا ، وقرب قلوبا باعدت
الخصومات بينها . ولقد يعود على المحسن بإحسانه أضعاف ما كان ينتظره
بالمقاصة العادلة التي كان بنوى التمسك بها والتشدد فيها . ولكن لا تكاد نفس
المحسن تطيب بالإحسان إلا إذا شعر بأنه متفضل متبرع ، وأنه لو تمسك
بحقه لمكن منه . وفي هذه الحال يكون للإحسان أثره الصحيح ، وتجنبي ثماره
حقاً . ولقد اختص ذوى القربى بالتنصيص ، لأنهم أشد تطلعا إلى المعروف
من ذوى قرباهم ، وأقوى طماعة . وربما كان هذا التطلع مدعاة إلى الإمساك
من الطرف الآخر ، لأن الإحسان إذا صور بصورة الاستحقاق عادت
النفوس إلى الاستمسك بالعدالة ، والميل إلى المشاحة ، كما نشاهده بين الأقارب .
فكانوا جديرين بتخصيصهم ، والتنصيص على الإحسان إليهم . ويجيء بعد
هذا الأمر ، النهي عن الفحشاء والمنكر والبغى ، لأن النفوس التي تكون
قد تحلت بالعدل والإحسان والرحمة ، تكون قد استعدت للتطهر من أدران
الفحشاء والمنكر والبغى . ومن ذا الذي يهون عليه أن يضيع ثمرة إحسانه
وقد ذاق لذته ، بتدبير نفسه ثانية ، بارتكاب الفحشاء والمنكر ؟ ومن
ذا الذي يرضى لنفسه الوقوع في البغى وقد راضها على العدل والإحسان ؟
وإذا تأملت في الآية الكريمة ، وهي قوله تعالى : « قل إنما حرم ربي الفواحش
ما ظهر منها وما بطن ، وعرفت أنها جاءت بعد قوله تعالى : « قل من حرم
زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، علمت ما فيها من حسن
التربية ، وانتران النهي عن بعض ما تميل إليه النفوس من الخبائث ، بالامتنان
بما أباح لها من الطيبات . ففي ذلك أكبر العون على استبدال الطيب بالخبث .
فن ذا الذي تطيب نفسه وقد تمكن من أمرين : أحدهما طيب نافع والآخر
خبث ضار . أن يمنح للضار الخبيث ، إلا إذا كان قد فقد قوة التمييز ، أو انحرفت
إرادته فلا تميل إلا إلى الهاوية ؟ وقد فصل في تضايف الشريعة ما حرم من
الفواحش والخبائث ، فإذا هي مما يسلب المرء أعز نعم الله عليه ، فتراها ما بين

شرب خمر تذهب بعقل الرجل فتجعله شراً من البهيمة ؛ أو ميسر يضيع ماله فيجعله في أسوأ حالات الاحتياج ؛ أوزنى يضيع الأنساب ويلحق بالرجل مالا صلة له به ، فضلا عن تدنيس عرضه ، وانحطاط شرفه ؛ أو قتل عدوان يتلف الأرواح ويولد الشرور المستمرة . فلا تجد محرماً حرم الله على عباده إلا وفيه من المضار ما لا قبل للناس باحتماله . ولو كان في ظاهره شيء من الخير المزيف عاجلاً ، فلا يلبث أن يبرز منه الشر الكامن بصورة لا تحتمل . ومن أمثلة ذلك معاملة الربا التي استهان بضررها كثير من الناس ، لقصر نظرهم عما تعقبه من الخسائر الفادحة ، فتورطوا فيها ولم يعرفوا سوء مغبتها إلا بعد ما سد في وجههم طريق الخلاص من التردى في هاوية العميقة ، فيعضون على أصابع الندم ، ولات ساعة مندم !

ثم يذكر الله عز وجل رسالة موسى بعد أن بين شريعة الإسلام وفصل أصولها ، ويعود إلى ذكر القرآن الكريم وإلى وصفه بأنه مبارك ، وأنه هدى ورحمة . . . ويفيض الله عز وجل في توبيخ المشركين وقطع أعدائهم ، وفي إنذارهم بسوء المصير ، ويقرر الله عز وجل أن كل أحد سوف يجازى بعمله ، من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ويتحدث عن الرسول العظيم وصدق إيمانه وتوحيده وإخلاصه لله رب العالمين ، لا شريك له ، وينفي عنه الشرك وعقائد الضلال ويقرر الله عز وجل الجزاء على الأعمال ، وأنه لا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وإلى الله مرجع الناس جميعاً ، ومصير البشر كافة ، فينبئهم بما كانوا فيه مختلفون ، ويرفع بعضهم فوق بعض درجات . . . وهذا تنتهي سورة الأنعام .

ه - وفي الربع الخامس - وهو مطلع سورة الأعراف هذه السورة التي تخاطب المشركين ، وتذريهم بمثل مصير الأمم الماضية التي كذبت برسولها وأنبيائها ، وأخذها الله أخذ عزيز مقتدر ، وأهلكها وبطش بها - في هذا الربع يمجّد الله عز وجل شأن القرآن الكريم ، ويهدد الكافرين والمشركين ،

وينبذهم بمثل مصير الأمم البائدة وبالحساب على الأعمال ، وأولى هذه القصص التي ذكرت في هذه السورة هي قصة آدم ، خلقه الله وصوره من تراب ، وأمر الملائكة أن تسجد له ، وما كان من إبليس حين عصى أمر ربه ، فلم يسجد لآدم ، فطرده الله من رحمته ، وأخرجه من جنته ، وغضب عليه غضبا شديداً ، ثم يذكر الله عز وجل وسوسة إبليس لآدم وحواء حتى أكلا من الشجرة التي حرم الله عليهما الأكل منها ، وتوبت آدم إلى الله وخروجه من الجنة ، وهبوطه إلى الأرض ، ويذكر الله عز وجل بني آدم بفضله عليهم حين هداهم إلى صنع الثياب وإلى وسائل الزينة المختلفة التي أرشدهم إليها . ويطلبهم بأن يلبسوا لباس التقوى فذلك خير لو يعلمون ، ومعنى أن الله عز وجل أنزل على بني آدم لباسا يوارى سواهم أنه أنزل الماء ، ومن الماء نبت النباتات ، وأخذ منه القطن وسواه ، مما يصنع منه الثياب ، ويصح أن يكون معنى إنزال الثياب أو اللباس من عند الله أنه هدى الناس إلى صنعه ، وأرشدهم إلى اتخاذه .. ثم يحذر الله عز وجل بني آدم من إغواء الشيطان حتى لا يقعوا في حباله ، كما وقع في شركه آدم أبو البشر لحكمة يعلمها الله عز وجل ، وهي عمارة الأرض وسكناها ، ويأمر الله عز وجل بالتزام العدل ، وبإداء الصلاة وبالإخلاص لله ، حتى يسعد المؤمن بإيمانه في الآخرة ، ويشقى الكافر بكفره وشركه .

٦ - وأما الربع السادس ففيه يأمر الله عز وجل بني آدم بقصد المساجد وأخذ الزينة لها لأداء الصلاة ويأمرهم بترك الإسراف في الأكل والشرب ؛ ويبيح لهم زينة الله ، والطيبات من الرزق ، ويقرر أن الله عز وجل إنما حرم عليهم الفواحش والإثم والبغى بغير الحق والشرك بالله وإفتراء الكذب على الله .. ويأمرهم باتباع رسالات الرسل ، ويحذرهم من نهاية الأمم الضالة ومن مثل مصيرهم ، ويذكر أحاديث أهل النار في النار بعضهم مع بعض ، ويقرر النار عقابا للكافرين والجنة ثوابا للمؤمنين ، ثم يتحدث عن حوار أهل الجنة مع أهل النار .

٧ - وفي الربع السابع يذكر الله عز وجل حوار أهل الأعراف مع كل من أصحاب النار وأصحاب الجنة ، ويذكر فضل الله على الإنسانية وعلى العرب بإنزال القرآن الكريم هاديا وبشيرا ونذيرا ، ويذكر مظاهر قدرته في السماء والأرض والهواء ، ثم يذكر رسالة نوح إلى قومه وكفرهم بها وإهلاك الله لهم بالطوفان .. وهذه ثانی قصة من قصص هذه السورة الكريمة .

٨ - وفي الربع الثامن يذكر الله عز وجل رسالات هود وصالح ولوط وشعيب إلى أقوامهم ، وكفر الناس بهذه الرسالات ، وعقاب الله عز وجل لهم بإهلاكهم وإبادتهم دون رسلهم عقابا لهم ، وجزاء على ما قدموا من الشرك والكفر والبهتان وسوء القول والعمل .

(٣)

هذا هو الجزء الثامن من القرآن الكريم وهو كله حافل بالدعوة إلى الله ، وبالرد على مزاعم المشركين واقتراءتهم الباطلة ، وبالدعوة إلى الله وإلى توحيدهِ وطاعته على هدى وبصيرة من الأمر .

وهذا الجزء يحتوي على قصص الأنبياء وكفاحهم من أجل رسالاتهم : آدم أبي البشر ، ثم نوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ثم لوط ، ثم شعيب عليهم السلام .

ويحتوي كذلك على تذكير المشركين من العرب بمصارع أمم هؤلاء الأنبياء ، جزاء عادلا لكفرهم وشركهم وضلالهم ومقاومتهم لنور السماء ، وآدم أبو البشر هو البذرة الأولى لرسالات السماء ، وهو بدء الخلق ، وتذكره الكتب المقدسة ، ومنها العهد القديم كما في سفر التكوين ، وقد أراد الله أن يعمر الأرض بالنوع الإنساني فخلق آدم أبا البشر ، وتناست منه ذريته ، وعمرت بهم الحياة والأرض ، وفي التعبير عن إرادة الله عز وجل خلق آدم يقول القرآن الكريم في سورة البقرة : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح

بمحمدك ونقدس لك ؟ قال : إني أعلم ما لا تعلمون ، ، وهذه هي إرادة الله عز وجل ، إرادته لخلق البشر ، ولعمران الأرض ، ولنشأة الحياة ، ولبعثة الرسل والرسالات ، هذه مشيئته تعالى أن يخلق الإنسان ويسكنه الدنيا ليعمر الأرض ويمشي في مناكبها وينتشر نسله في أرجائها ويستخرج خيراتها . . فلما خلق آدم أمر الله الملائكة أن يسجدوا له فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . فقال له ربه يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ، استكبرت أم كنت من العالين ، قال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين فقال الله : اخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين . فسأل ربه أن يستبقه في الدنيا إلى يوم القيامة . فقال له ربه : إياك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ، فقال إبليس : إني سأبذل جهدي في إضلال آدم وذريته ، فقال الله له : إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين .

وعلم الله آدم علوم السموات والأرض وما بينهما من الكائنات ثم عرضهم على الملائكة وقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين : قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال الله : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم قال الله لهم : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبذرون وما كنتم تكتمون . وخلق الله حواء من جنب آدم الأيسر من ضلعه وقال له : اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فقبل آدم وزوجه ما أمر الله به من تجنب تلك الشجرة ، فلما سمع إبليس أن الله أباح لآدم أن يأكل من ثمار الجنة وحذره من أن يقرب من شجرة واحدة فرح إبليس وقال : سأعمل على طرده هو وزوجته من الجنة . واختلس إبليس دخول الجنة والتقى بآدم وزوجه فجعل يستميلهما ويزين لهما القول بالباطل ، وقال لهما : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وما زال يقسم لهما على صدقه حتى استجابا له وتناولوا من ثمر تلك الشجرة وأكلا من سنابلها ، فلما ذاقا من حب الشجرة كشفت لهما سوءاتهما ، وسقط عن آدم لباسه الذي ألبسه الله إياه من (١١ - تفسير القرآن لخواجی ٨)

مطارف الجنة وعريت حواء من زينتها وطقفا يخلصان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكا الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . أما إبليس فقد ولى هاربا واستخفى بعد أن فعل فعلته ، وأما آدم فقد أخرج هو وزوجته من الجنة ، واستترت حواء بورق من شجر الجنة وحجبت عن آدم فأصبح وحيدا حزينا عارى الجسد ، وقد جعل يده اليمنى على رأسه واليسرى على سوائه وتحدرت دموعه على خديه والتف به الملائكة وجعلوا يلومونه على نتمض ما عاهد الله عليه ، فقال لهم : يا ملائكة ربى لابلو موذى على ما حدث منى فانه كان بقضاء الله ، فقد قال لكم إنه سيجعل فى الأرض خليفة قبل أن يخافنى وأمر الله آدم وزوجه حواء وإبليس أن يهبوا إلى الدنيا ، وقال لهم اهبوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، وقيل إن آدم هبط على جبل ببلاد الهند ، ولعل ذلك كان بجزيرة سيلان فى جنوب الهند فان بها قمة جبل تدعى قمة آدم . أما حواء فقد قيل : إنها هبطت بأرض الحجاز ، وفرق الله بينهما طويلا فلم ير أحدهما الآخر ، وكان على آدم حين هبط بعض أوراق من الجنة فذرتها الرياح فى بلاد الهند ، فقيل : إنها صارت معدنا للطيب بتلك البقاع ، وخلا آدم بنفسه يبكى على ما ابتلى به من محنة الطرد من جنة ربه ، والقرار بهذه الدنيا العريضة بغير أنيس ، فأقبلت عليه الوحوش والطيور وظل آدم محزوننا لا يتخف له عبرة ولا يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله حتى هبط عليه جبريل وبشره بأن الله قد غفر له وتاب عليه . ومهد الله الوسيلة ليلتقى آدم بزوجه حواء . فلما اجتمعا هدأت نفس آدم وتبدلت وحدته أنسا وهناء وغبطة ، فكان أول متاع لأول زوجين على وجه الأرض ، وهدهاء تفكيره ورغبته الملحة إلى بناء بيت ليظله هو وأهله ، ثم تدرجت به الحاجة إلى حرث الأرض وحفر الآبار ، وحملت إليه من الجنة خبة القمح ليزرعها فصاح وقال : مالى ولهذا الحب الذى أخرجنى من الجنة ؟ فقيل له : هذا رزقك فى الدنيا وأنت الذى اخترته فى الجنة وسيكون غذاء لك ولذريتك . وحملت حواء ثم وضعت توأمين ذكرا وأثى ، وكان بكرها هايل وأخته ، ثم حملت

للمرة الثانية فوضعت قاييل وتوأمة ، وتوالى الحمل والوضع ، وفي كل مرة كانت حواء تلد توأمين حتى كثروا وتناسلوا فكان الذكر الأول يتزوج من الأثني من البطن الذي يليه ، فلما كثرت الذراري وانتشروا في أنحاء البلاد اختار الله آدم رسولا لنزول نذريته في الأرض .

وقصة آدم في سورة البقرة وردت بجميع خيوطها وألوانها وطبوغها ، ذكر فيها خلق آدم وتصويره ، ثم تعليمه الأسماء كلها ، ثم أمر الملائكة بالسجود له ، ثم عصيان إبليس وكفره ، ثم سكنى آدم الجنة ، ووسوسة الشيطان له ، وأكله من الشجرة وخروجه من الجنة ، وهبوطه إلى الأرض ، وتوبة الله عليه .. أما قصة آدم في سورة الأعراف فقد ذكر فيها خلقه وتصويره ، وأمر الملائكة بالسجود له ، وطاعتهم لأمر الله ما عدا إبليس الذي غضب الله عليه وطرده من رحمته ، ثم ذكر فيها كذلك سكنى آدم الجنة ، ونهيه عن الأكل من الشجرة المحرمة ، ووسوسة الشيطان له ولحواء ، وأكلهما من الشجرة ، وتوبتهما إلى الله... ولنوارن بين الأسلوبين في قصة آدم : أسلوب سورة الأعراف (الآيات ١١ - ٢٧) ، وأسلوب سورة البقرة (الآيات ٣٠ - ٢٨) وذلك في المعاني المشتركة بينهما :

١ - في خلق آدم تقول سورة الأعراف في إجمال شديد : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، والحطاب لآدم وحده ، أو لذرية آدم باعتبار النظر إلى خلق آدم .. أما سورة البقرة فتقول في تصوير تفصيلي عجيب : « وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا : أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إني أعلم ما لا تعلمون . »

٢ - تنفرد سورة البقرة بذكر تعليم آدم الأسماء كلها ، وعجز الملائكة عن معرفتها .

٣ - وفي سجود الملائكة لآدم تقول سورة البقرة : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ، ، أما

سورة الاعراف فتقول : « ثم قلنا لللائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ، قال : ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين ، قال : فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين ، قال : أنظرني إلى يوم يبعثون ، قال : إنك من المنظرين ، قال : فما أغويتني لأقعدن لك صراطك المستقيم ، ثم لا آتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ، قال : اخرج منها مذموماً مدحوراً ، لمن تبعك منهم لا ملأن جهنم منك أجمعين . »

٤ - وفي سكنى آدم الجنة تقول سورة البقرة : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغداً حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا : اهبطوا ، بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم .

وتقول سورة الاعراف : « ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة ، فتكونا من الظالمين ، فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سواتهما ، وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما ، وطفقا ، ينخسفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلك الشجرة ، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ، قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإلا نتغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ، قال : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، قال : فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون . »

وتقول سورة طه : قلنا : يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى ، وإنك لا تطعم فيها ولا تضحى ، فوسوس إليه الشيطان ، قال . يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟

فأكل منها فبدت لهما سوءاتهما ، وطفقا يَخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ؛ قال : اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم مني هدى ؛ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ؛ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ، (١) . . ولو أردنا أن نوازن بين هذه الأساليب المختلفة في تناول قصة خلق آدم لما وسعنا الكثير من الوقت والبيان ، فلنكتف بهذا القدر من العرض والشرح والإبانة . . وجميع هذه السور تذكر قصة أكل آدم من الشجرة ، واختلف المفسرون في الشجرة هذه : أهى الخنطة أم التين أم غيرهما؟ وينفرد الشيخ عبد الحميد الخطيب صاحب التفسير المكي في تفسيره بأن الشجرة المراد بها الجماع ، فيكون الأكل من الشجرة كناية عن العملية الجنسية ، نهي الله عز وجل آدم وحواء ، عن أن يمس أحدهما الآخر ، فوسوس لهما الشيطان ، ومس أحدهما الآخر لحكمة أرادها الله ، وهى عمران الكون ، غيبت لهما سوءاتهما ، وأخذا يستران عورتيهما من ورق الشجرة إلى أن هداهما الله إلى صنع الثياب ولبسها . . وهذا قد يكون أمرا معقولا قريبا إلى الفهم وإلى بلاغة القرآن الكريم .

وفى هذا الجزء ذكر لرسالة محمد عليه السلام فى مواضع عديدة :

- ١ - قال الله تعالى : وهذا صراط ربك مستقيما ، قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون - سورة الأنعام .
- ٢ - وقال : وأن هذا صراطى مستقيما ، فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون - سورة الأنعام .
- ٣ - قل إننى هدانى ربهى إلى صراط مستقيم ، دينا قويا ، ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين (٢) .

(١) الآيات ١١٧ - ١٢٤ من سورة طه .

(٢) ١٦١ - ١٦٣ سورة الأنعام .

٤ - قل : أمر ربي بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد (١) .
٥ - قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون (٢) .

وفي هذا الجزء إشارات كثيرة إلى القرآن الكريم :

١ - يقول الله تعالى : وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحموا ، أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين ، أو تقولوا : لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة (٣) .

٢ - كتاب أنزلناه إليك فلا يكن في صدرك حرج منه ، لتذربه ، وذكرى للمؤمنين ، اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون .

٣ - ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ، هدى ورحمة لقوم يؤمنون (٤) .

(٤)

والموضوع الأول على أية حال من الأحوال لهذا الجزء هو الدعوة إلى التوحيد ، ومحاربة الشرك ، والرد على المشركين ، وتخويفهم من سوء المصير ، ومن مثل عاقبة الأمم الماضية .

ولقد كان المشركون قوة طاغية في عصر نزول الرسالة المحمدية ، وكان الشرك في كل مكان في العالم ، حتى الديانات السماوية استحالت شرائعها الطاهرة إلى عقائد وثنية ، لذلك حارب القرآن الشرك والمشركين وقاوم ما شابهه

(٢) الآية ٣٣ من سورة الأعراف .

(١) سورة الأعراف

(٤) الآية ٥٢ من سورة الأعراف .

(٣) ١٥٥ - ١٥٧ سورة الأنعام .

الشرك من دعوات باطلة ، ورد على الذين لا يؤمنون بالغيب ، وعلى الذين ينكرون البحث في قوة وشدة ووضوح حجة ، ورد على الذين ينكرون وجود الله كذلك . والعجب العجيب ، والأمر الغريب أن يكون هناك من الناس من يتخيلون أن مظهر استقلال الرأي وحرية التفكير إنما هو في جحود الإنسان كل ما لا يقع تحت حسه ، ولو صح ما يقولونه لوجب أن ينكروا كثيراً من الحقائق العلية التي لا يمارى فيها إلا الجاهلون . ويكفي في الرد على مثل هؤلاء ما قاله كاميل فلا مريون في كتابه « الموت وغامضته » ، قال : « الإنسانية تعيش في جهالة بعيدة الغور ، وهي لا تدري أن تركيبنا الجثمانى الطبيعى لا يعرفنا بحقيقة الواقع من الحوادث الوجودية ، فإن حواسنا تخدعنا عنها ، والتحليل العلى وحده هو الذى يأتى عقولنا عنها يبصيص من النور . من أمثلة ذلك أننا لا نشعر بشيء من الحركات الهائلة للكوكب الذى نعيش عليه ، فإنه يظهر لنا ساكناً إذا أوضاع محدودة بالنسبة إلى فوق وتحت ويمنة ويسرة الخ ، ومع هذا فإنه يسبح في الفضاء بسرعة أكثر من مائة ألف كيلومتر في الساعة في تطوافه السنوى حول الشمس ، وهي نفسها تنتقل في خلال اللانهاية السماوية بحيث إن خط سير الأرض لهذا السبب لا يكون خطاً منحنياً مقفلاً قط ، ولكن حلزونياً مفتوحاً دائماً . وإن كررنا الهائلة على وجهها في الفضاء لم تمر من نقطة واحدة دفعتين منذ وجدت إلى اليوم . وفي الوقت نفسه تدور هذه الكرة على نفسها دورة في كل أربع وعشرين ساعة ، بحيث إن ما نسميه « فوق » ، في ساعة من الساعات يكون « تحت » ، بعد اثنتى عشرة ساعة ، وإتنا نجرى في هذه الحركة النهارية بمعدل ٣٠٥ أمتار في الثانية في خط عرض باريس ، و ٤٦٥ متراً في خط الاستواء . هذا وكوكبنا الأرضى تلعب به أربع عشرة حركة مختلفة ، فلا نشعر بواحدة منها حتى تمسنا من قرب ، كالمند والجزر للقشرة الأرضية ، وهي ظاهرة طبيعية ترتفع معها القشرة الأرضية دفعتين في اليوم تحت أرجلنا إلى علو ٣٠ سنتيمتراً ، ولا توجد أية علامة ثابتة تجعلنا نلاحظ هذا الأمر مباشرة . ولولا وجود الشواطىء

لما أدركنا وجود المد والجزر في الأقيانوس كذلك . وهل نشعر بالهواء الذي نستنشقه أو ندرك له ثقلا ؟ إن سطح جسم الإنسان يحمل منه ما وزنه ستة عشر ألف كيلو جرام معادلا بمثله من الضغط الداخلي ، وما كان أحد يتخيل أن الهواء ثقيل قبل غاليليه ، وباسكال ، وتورسلي ، هذا ما يشهدنا إياه العلم ، ولكن الطبيعة لا تشعرنا به . وهذا الهواء مخترق بتيارات مختلفة نجعلها كل الجهل . فالكهرباء تلعب فيه دورا لا ينقطع ، ولكننا لا نشعر بها إلا وقت الأعاصير ، أى وقت اختلال التوازن بشدة . والشمس تبعث لنا على وجه الدوام بإشعاعات مغناطيسية تؤثر على بعد ١٥٠ مليون كيلو متر على الأبرة الممغنطة مما لا تشعر به مشاعرنا ، ولكن توجد أجساد حساسة لطيفة تشعر بوجود هذه التيارات . وأعيننا لا تدرك ما نسميه نورا إلا بوساطة ذبذبات الأثير المحصورة بين ٣٨٠ ترليون ذبذبة في الثانية لونها أحمر متطرف ، وبين ٧٦٠ ترليون ذبذبة لونها بنفسجي متطرف ، والذبذبات البطيئة للأشعة الحرارية الحمراء المعتمة فيما دون ٣٨٠ ترليون موجودة ، وعاملة في الطبيعة كما تعمل الذبذبات السريعة فيما فوق ٧٦٠ ترليون ذبذبة للأشعة الحرارية البنفسجية المعتمة ، ومع ذلك فهي غير مرئية لشبكية أعيننا . وأذتنا لا تدرك ما نسميه (أصواتا) إلا ابتداء من الذبذبة الثانية والثلاثين من الأثير في الثانية للأصوات التي نسميها شديدة ، حتى تصل إلى ستة وثلاثين ألف ذبذبة في الثانية للنفحات الحادة ، وأنفنا لا يشعر بما نسميه (روائح) إلا عن قرب شديد ، وفي عدد محصور منها فقط ، ويختلف شم الحيوانات عن شم الإنسان . وغير هذا فإن الواقع أنه لا يوجد في الطبيعة خارج حواسنا لانور ولاصوت ولا رائحة . فنحن الذين وضعنا هذه الكلمات لنعبر عما نحسه من تأثراتنا ، فالنور شكل من أشكال الحركة كالحرارة ، ويوجد في الفضاء في وسط الليل من النور بقدر ما يوجد منه في وقت الظهيرة . أعني بهذا أنه توجد فيهما أعداد متساوية من الذبذبات الأثرية تخترق هذه اللانهاية السماوية ، ولكننا لانأثر بها ، فلا نراها لعدم انعكاسها علينا . والصوت شكل آخر من أشكال الحركة

وليس هو بذى جلبة إلا بالنسبة لعصبتنا السمعى . والروائح تحدث من جزئيات
سابحة في الهواء تؤثر على عصبتنا الشمى . فهذا مبلغ ما تصل إليه قدرة حواسنا
الثلاث التى تصلنا بالعالم الخارجى . وأما الحاستان الأخرى : الذوق واللبس
فلا تتأثران إلا باللامسة . وهذا شىء قليل ، وهو فى كل الأحوال لا يؤتينا
بشئ من العلم بحقيقة الواقع ، فإنه يوجد حولنا من الذبذبات والحركات
الآثرية أو الهوائية ، ومن القوى والأشياء غير المرئية ما لا نراه ولا نحس .
به . هذه حقيقة علمية مطلقة ، وبدئية عقلية لا يمكن النزاع فيها . فيمكن أن
يوجد حولنا أشياء بل كائنات حية لا ترى ولا تلمس ولا تستطيع حواسنا
أن تصلنا بها .. فإذا تقرر وثبت بالدليل أن أعضاءنا الإدراكية لا تكشف
لنا كل ما هو موجود ، وأنها قد تعطينا إدراكات كاذبة أو ضالة عن الكون
المحيط بنا ، فضلا عن حركات الأرض وثقل الهواء والإشعاعات والكهرباء
والمغناطيس ، قلنا إذا تقرر ما ذكرناه ، فلسنا نكون على شئ من الثبوت إن ظننا
أن ما نراه هو كل الحقيقة ، بل نحن مضطرون للتسليم بصد ذلك ، فليس هناك
ما يمنع من أن كائنات حية يجوز أن تكون موجودة حولنا ، فمن الذى كان يحلم
بوجود الميكروبات قبل اكتشافها ؟ فما هى ذى تتكاثر حولنا بالمليارات ، والدور
الذى تلعبه فى حياة جميع الأجسام من الخطورة بمكان ، فالمظاهر لا تكشف لنا
الواقع ، ولا يوجد إلا حقيقة واحدة نستطيع تقديرها مباشرة هى فكرنا ،
والموجود الذى لا يمكن النزاع فيه فى الإنسان هو عقله . ونحن نقول : ضع
هذا الكلام الصادر من صميم العلم أمامك ، ثم تأمل فى أقوال الحقم الذين
يتوهمون أنهم نالوا الدرجات العلى من الثقافة لمجرد قولهم : نحن إنما نتبع
ما تقدمه لنا الطبيعة ، فلا نعتقد إلا بما نحس بوجوده يا حدى مشاعرنا . وإذا
صح لهم ما يدعون كان عليهم أن ينكروا غالب مقررات العلوم الطبيعية التى
يشيدون بذكرها ، ويفخرون بالاتباء إليها . فأين هم من هذه الموجودات
التى ثبت وجودها لأهل العلم ولا يمكن الاهتداء إليها بحاسة من الحواس
الخمس ؟ . إن ما ظهر إلى الآن من حوادث الكون لا يمكن أن يقارن بما

خفي منها وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، ، وفيما ثبت وجوده اليوم بالدلائل القاطعة ما لا يمكن رؤيته مطلقا ، لقصور حواسنا عن التأثر به ، وقد اهتدى إليه العلماء اتفاقا ، فمكتشف أكبر القوى العالمية وهي الكهرباء التي ننعم اليوم بآثارها في أهم مراقبتنا . لم يوفق إلى اكتشافها إلا عرضا وبغير قصد . وذلك أن أحد مساعدي العالم جالفاني ، الإيطالي المتوفى سنة ١٧٦٨م شاهد اضطرابا في عضلات ضفدعة قتلت حديثا ، فأخبر بذلك أستاذه ، فأتى بصفادع وقتلها ثم علقها على قضبان من النحاس ، فشاهد حدوث اضطرابات في أعضائها كلما مست بقطع من الحديد ، فكان ذلك سببا في اكتشافه الكهرباء الكاثودية في الأجساد . فلما نبغ العالم الطبيعي « فولتا » تابع أبحاث أستاذه في الكهرباء فتوصل إلى اكتشاف العمود الكهربي الذي أمكن به توليد القوة الكهربية واستخدمها في المنافع الإنسانية على الوجه المشاهد اليوم . أعلنت كيف قابل الناس مباحث جالفاني في العصر الذي كان يعيش فيه ؛ لقد قابلوها بالاستهزاء والسخرية وسموه بسبب تجاربه في الصفادع بمرقص الصفادع . فكان جوابه لهم أن قال : استخروا مني ما شئتم فهذا لا يمنع أني على وشك اكتشاف أكبر القوى الطبيعية . ولو أصر الإنسان على القول بأنه لا يسلم إلا بما يرى لظل إلى اليوم يقول بأن الشمس هي التي تدور حول الأرض ؛ فانه يرى ذلك رأى العين ، والواقع أن الأرض هي التي تدور حول الشمس . فانظر إلى أي حد يخطيء الحس في تقدير أكبر الحركات المرئية وأشيعها ؟ وإذا صدق هذا في المرئيات أفلا يكون أولى أن يصدق فيما دونها من الحقائق الكونية ؟ قبل أن يكتشف العلم ظاهرة الانكسار في الأشعة الضوئية عندما تمر في مناطق مختلفة الكثافة ، كان الناس يعتقدون أنهم متى رأوا قرن الشمس بارزا من الأفق ، حكموا حكما قاطعا بأنها قد ظهرت لنا ، والحقيقة أننا نرى الشمس قبل أن تبرز من وراء حجابها بسبب انكسار أشعتها في الهواء وهي تخترق طبقاته المحيطة بالأرض ، فإن شعاعها لهذه العلة يصل إلى أبصارنا قبل أن تبرز الشمس للعيان بدقائق معدودة . وظاهرة الانكسار الشعاعي هذه نستطيع أن نثبتها

لكل إنسان بتجربة بسيطة ، وذلك بأن يضع ملعقة في كوب مملوء بالماء ، فيرى أن الملعقة التي عهده بها مستقيمة قد ظهرت معوجة . والسبب في ذلك هو ما ذكرناه من أن الأشعة التي برزت من أجزائها المغموسة في الماء قد كابتت انكساراً بدخولها في الهواء لاختلاف كثافتهما ، فتظهر الملعقة معوجة على خلاف حقيقتها . ثم إن حواسنا هذه التي نعول على أحكامها كل التعويل تضلنا في أكثر ما اتصلنا به من المحسوسات . فقوة الإبصار ، وهي أكبر القوى التي نعتمد عليها ، ترىنا الشمس وهي أكبر من الأرض بنحو مليون وأربعمائة ألف مرة قرصاً صغيراً سابحاً في الفضاء ، وترىنا النجوم وهي أكبر من الشمس بملايين المرات نقلاً لامعة في الفضاء ... وقال « كاميل فلامريون ، الفلكي في كتابه » الاعتقاد بالله من النظر في الطبيعة ، : إذا أعلننا أن جميع أنواع النباتات والحيوانات لم تخلق خلقاً مستقلاً على صورة مقدرة لكل منها ، وذهبنا إلى أن هذا التنوع في الصور فعل قوة متحدة بالمادة ، فهل يمنعنا ذلك من الاعتقاد بوجود عقل خالق ، وبظهور غرضه وقصده في الخليفة ؟ ألسنا نكون متعمدين عدم التدبر بعين البصيرة إذا رفضنا اعتبار هذه القوة الملازمة للمادة نتيجة عقل مدبر لها ؟ ألسنا نكون عمياً إذا رفضنا الاعتراف بهذه الدلائل الناطقة على وجود عامل قادر أزلي في الكون ؟ وقال « ادوارد ملن ، : يجب أن يدهش الإنسان لما يرى حيال هذه المشاهدات الناطقة المتكررة .. ومن عجب أن ترى رجالاً يدعون لك أن كل هذه العجائب الكونية ليست إلا نتائج الاتفاق والخط ، أو بعبارة أخرى : نتائج الخواص العامة للمادة ، وأثر لتلك الطبيعة التي تكون مادة الخشب ومادة الأحجار . وأن إلهامات النمل وأسرى مدركات القوة العقلية الإنسانية ليست إلا نتيجة عمل القوى الطبيعية أو الكيميائية التي بها تجمد الماء واحتراق الفحم ، وسقوط الأجسام . ان هذه الافتراضات الباطلة ، بل هذه الأضاليل العقلية التي يسترونها باسم « العلم الحسى ، قد دحضها العلم الصحيح دحضاً ، فإن العالم الطبيعي لا يستطيع أن يقول بها أصلاً . وإذا أطل الإنسان على وكر من أوكار بعض الحشرات الضعيفة ، يسمع بغاية

الجللاء والوضوح صوت العناية الإلهية ، ترشد مخلوقاتنا إلى أصول أعمالها اليومية ، .

إنه ليجب على الإنسان إذا لم يكن مؤمناً بالله أن يؤمن به وبوجوده وبقدرته وبحكيمته ، يقول د أوجست ساباتيه ، :

لماذا أنا متدين ؟ إنى ما أثرت هذه المسألة إلا تأديت لأن أجيب عليها جواباً واحداً وهو : أنا متدين لأنى لا أستطيع أن أكون غير ذلك . فإن التدين حاجة من حاجات وجودى . يقولون لى : هذا من تأثير الوراثة أو التربية أو المزاج . وقد اعترضت بذلك على نفسى . ولكن تعليل المسألة على هذا الوجه يقهرها ولا يحلها . إن الحاجة إلى التدين التى أشاهدها فى حياتى الشخصية ، أشاهدها فى الحياة الاجتماعية للإنسانية أكثر قوة . فإن الإنسانية ليست بأقل منى تعلقاً بالعاطفة الدينية . فعبثاً يعترض عليها بأن الديانات التى أخذت بها وتركتها ، قد خدعتها الواحدة بعد الأخرى ، وسدى يهدم لها نقد الفلاسفة والعلماء خرافاتها وأصولها الاعتقادية ، وباطلا يصور لها ما تركته الأديان فى تاريخ البشرية من آثار فظيعة للدماء والنيران ؛ فإن الدين لا يزال باقياً وماثلاً فى جميع أدوار الثقافة العلمية ، وجميع الانقلابات الثورية ، مثله كمثل نبات شديد الحيوية اجتث ألف مرة من سطح الأرض ، ولكن جذوره العتيقة أعادته إلى ما كان عليه قوياً ، فمن أين أنت الدين هذه الحيوية التى لا ينضب معينها ، وما هى علة خلود الدين وعموميته ؟ إن كلمة الدين نفسها لا تعين الظاهرة النفسية المراد دراستها إلا تعييناً سيئاً جداً ، لأنها تحيط هذه الظاهرة بآراء تبعية ، وأحياناً غريبة عنها ، تضلل الذين هم من الثقافة العلمية فى درجة متوسطة . وقد أتتنا هذه الكلمة من شعب هو أقل شعوب الأرض تدنياً . وليس لها مرادف لافى لغة العبرانيين القدماء ، ولا فى لغات اليونانيين والجرمانيين والسليتين والهنديين ، وأعنى بهؤلاء الأسر الإنسانية التى ثبت أنها من الناحية الدينية أعرق الشعوب وأكثرها تجديداً

فيها . إن روما هي التي فرضت هذا اللفظ علينا ، كما فرضت علينا لغتها وعقليتها ونظمتها . فالمسيحيون الأولون لم يكونوا يعرفونه ، وليس له وجود في كتب العهد الجديد . ولما دخل القرن الثالث شاهد العالم ضروبا من التنصير ، قد تنفق وروح الإنجيل . فعرف لاكتانس الدين . بقوله : هو العلاقة التي تجمع بين الإنسان وربه ولكن هذا اللفظ عند كتاب روما القدامى لم يكن له هذا المعنى الباطني العميق . فبدلا من أن يعين لاكتانس الناحية الصحيحة الشخصية لكلمة دين ، ويشير إلا أنها تعنى ظاهرة نفسية منزلة من الروح ، حدها من ناحيتها الظاهرية ، معتبرا إياها مجموعة تقاليد ونظم اجتماعية موروثه عن الأقدمين . وتنصير هذا اللفظ لدى المسيحيين لم يمح منه هذا المعنى ذا الأصل الروماني . والدين لدى السواد الأعظم من الناس إلى اليوم لا يعنى إلا مجموعة طقوس تقليدية ، واعتقادات فيما فوق الشئون الطبيعية ، ونظما سياسية . فهو كنيسة تملك الأسرار الإلهية . وتقوم على نظام من الرتب الكهنوتية ، لتهديب الأرواح الآدمية . هذا هو الشكل الذي أدركت العقلية الرومانية الديانة المسيحية عليه ، وحققت وجودها في العالم الغربي . والسلطان الذي تتمتع به كلمة الدين من الناحية السياسية والاجتماعية على أكثر العقول استنارة ، تفر ما ذهب إليه المسيو بروتير حينما أراد التنبيه على سمو الكاثوليكية على البروتستانتية حيث اكتفى ، متابعا في ذلك بوسويت ، ، بقوله : إنها أكمل شكل لحكم الشعوب . . وفي العصور والبلاد التي تغلب فيها هذا الوصف السياسي للدين ، ظهر بضرب من ضروب الضرورة المنطقية تعليل من قبيله لتولد الدين في الجماعات الإنسانية . فقد قالوا : لما كان الدين يصالح لحكم الشعوب على حالة توجب الإعجاب ، فقد اخترع إذا للوصول إلى هذه الغاية . فهو عمل القساوسة والأباطرة الذين أرادوا بهذه الوسيلة تثبيت سلطانهم ، وضمان استمراره . على هذه العقيدة كان الرومانيون على عهد شيشرون والفلاسفة في القرن الثامن عشر . ولم تعوز المدافعين عن هذا الرأي الأدلة

عليه . فن المحتق أن الدين كثيرا ما سخر لخدمة السياسة ، وأنه قد ثبت أنه أداة عجيبة للحكم . وقد فضحت تدليسات لابسة لبوس التقوى في تواريخ جميع الأديان . ولكن ماذا تثبت هذه الحوادث مهما بلغ عددها ؟ إنه ليست التدليسات اللابسة لبوس التقوى هي التي أوجدت الدين ، لأنه لولاه لما راجت تدليسات من هذا النوع . فإذا قيل : إن القساوسة هم الذين أوجدوا الدين ، فأنا أسألم بدوري : وما الذي أوجب وجود القساوسة ؟ أليس لأجل أن توجد الفسيسية ، ولأجل أن يجد هذا الاختراع في الشعوب كلها مشاركة عامة في اعتباره ، يجب أن يكون ثابرا في سويداء القلوب عاطفة دينية . نحلث هذا الاختراع صبغة مقدسة ؟ نعم ، يجب قلب وضع العبارتين ، والقول بأنه ليست القسيسية هي التي تفسر وجود الدين ، ولكن الدين هو الذي يعلل وجود القسيسية . والنظرية التي وضعها الفلسفة الوضعية أعمق معنى ، وأكثر تماسكا . قالوا إن الدين الذي كان موجوداً في أول وجود العالم لم يكن إلا تفسيراً ساذجا للظواهر الطبيعية العجيبة التي كانت تدهش الإنسان الجاهل وتزعجه . فهو بداية العلم وصورته الطفلية . وهذه الصورة يجب أن تترك مكانها على توالي الأحقاب لصور أخرى أرقى منها وأكثر إتقانا . ولقد عهدنا الأطفال والمتوحشين بمنحون حياة روحية لكل ما يحيط بهم . فهم بتخيلون وجود ارادات فعالة خلف جميع الظواهر التي تثير عندهم الخوف أو الرجاء . وبناء على هذا عمدت نخلة الأناسى الأولين الى ملء الوجود بعدد لا يحصى من الأرواح الخيرة والشريرة ، وتوهموا أنهم يتأثرون بأعمالهم الحقية في كل صغيرة وكبيرة بما يصيبهم . وقد رأينا الساعة كيف عللوا وجود الدين بوجود القسيسية ؛ وأمامنا الآن تفسير لوجود الدين بسبب وجود الأساطير الخرافية . ولكن يغيب عنهم أن هذا يلزم منه الدور والتسلسل نفسه الذي تقع فيه ببيكولوجيا ناقصة تخلط بين العلة ومعلولها . والقول بأن الدين ضرب من العلم ، يعتبر خطأ لا يقل في خطورته عن القول بأنه نوع من النظم السياسية . نعم ، مما لا مشاحة فيه أن العقيدة الدينية

تكون مصاحبة دائماً لشيء من العلم ، ولكن هذا العنصر العقلي مهما ظهر أنه ضروري للحقيدة ، فهو ليس في شيء من مادتها ولا من جوهرها ، وأنه يتخير على الدوام في أدوار الانتقالات الدينية . والصيغ المذهبية ، والعبارات الأصولية ، هي وسائل للتعبير والتربية يستخدمها الدين لأغراضه ، ولكن يمكن أن يحل بعضها محل البعض الآخر في أعقاب كل أزمة فلسفية . فالشعائر والمعتقدات قد تضعف أو تزول ، ولكن الدين يبقى على ما هو عليه من القوة بحيث لا يتأق لآية صورة خارجية أو فكرة اعتقادية أن تستنفد مادته الجوهرية .

يعرف الناس نظرية الأدوار الثلاثة التي مر بها الفكر الإنساني فيما ذهب إليه أجوست كومت ، وتلاميذه ، وهي : الدور اللاهوتي في العصور الأولية . ودور ما وراء الطبيعة في القرون الوسطى ، والدور العلمي في العهد الراهن ، فإذا كان الدين في جوهره علماً ، لكان سرى عليه ما تقتضيه هذه القاعدة المنطقية من أدوار التطور ، وهو زوال الصورة الساذجة من العلم ليحل محلها صورة أرقى منها ؛ والدليل على أن أمر الدين ليس من هذا في شيء هو بقاء الدين وظهوره في جميع العهود ، وفي درجات من الثقافة متباينة كل التباين ، والذي يجب أن يتنبه له أن هذه الأدوار الثلاثة المذكورة آنفا ليست متعاقبة ولكنها توجد كلها في وقت واحد ؛ فهي لا تقابل ثلاثة عهود من التاريخ . ولكنها تقابل ثلاث حالات مستمرة للروح الإنسانية . فإنك تجدتها مجتمعة على درجات متخالفة في العهد القديم لدى سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وتجدتها في العهد الحديث لدى ديكارت وباسكال واينتز وكنت وكلود برنار وباستور . وبقدر ما يترقى العلم ويدرك أسلوبه الصحيح وحدوده ، يتميز عن الفلسفة وعن الدين . فليس من الدين البحث العلمي الذي لا يرمى إلا إلى تحديد الظواهر وشروط حدوثها في الزمان والمكان ؛ وليس من الدين كذلك الحاجة الفلسفية لفهم الوجود باعتبار أنه مجموعة كونية يمكن فهمها ، وتفسير كل ما هو موجود على أساس من التعليل الصحيح ، وليس من الدين أيضاً الحاجة الاعتقادية التي إذا فهمت على حقيقتها لم تكن إلا مظهر أديا للغريزة التي تحمل كل كائن على

النشبت بالخلود . فكيف لاتظهر هذه الميول المختلفة للنفس في آن واحد ، وعلى سموت متوازية ، وهي موجودة معا في الجبلية الإنسانية وفي كل زمان ؟ فهل لنا أن نذهب للبحث عن أمثلة وأدلة لاستمرار العاطفة الدينية عند من هم أجدر بذلك من أشباع الفلسفة الوضعية أنفسهم ؟ .

إن أجوست كومت وهربرت سبنسر وليتريه سيكونون شهودنا العدول على صدق ما نقول . فزعيم الفلسفة الوضعية ، أجوست كومت ، الذي كان قد أنبا بالانطفاء المحتم للعاطفة الدينية في النفس الإنسانية ، توج مذهبه وختم حياته العلمية بتأسيس ديانة جديدة ، نسجها بقلة مهارة على النظام الكهنوتي ، وطقوس الكاثوليكية الرومانية . نعم ، قد تأسست كنيسة للفلسفة الوضعية تؤدى فيها العبادة لقسيسين ، ولها مخلفات مقدسة وأعياد سنوية ، وكتاب تعاليم دينية ، على رأسها قس ليس بأقل عصاة من الحبر القائم في روما ، الأمر الذى هاج على أجوست كومت بعض تلاميذه من جراء محاولته هذه ، وأرادوا الاعتذار عنه باتهامه بالجنون . ولكن هذا الاتهام يكذبه الواقع . والحقيقة هي أن أجوست كومت بعد ما فرغ من بناء مذهبه الاجتماعى ، أدرك الدور الذى تقوم به العاطفة والغريزة الدينية في حياة الشعوب ، فرأى أنه لا يستطيع تدعيم بناء الجماعة المستقبلية إلا بالدين ، فأتاها به على أسلوبه إنه ليقال إن بعض المتورين يحسون بحكة شديدة في مكان أعضائهم المقطوعة ، ويظهر أن أجوست كومت وتلاميذه الذين اتبعوه قد شعروا بما يشبه هذه الحكة ، فأحدثوا ما أحدثوه ، فتكون الطبيعة في سخريتها بالمستخفين بها قد انتقمت منهم على ما ارتكبوه ضدها من العنف العظيم . ولسنا بحاجة لإطالة الكلام في هربرت سبنسر ، فالناس يعلمون ما آل إليه مذهبه من قوله ، بالموجود الذى لا يمكن إدراكه ، ومن اعتباره قوة غير محدودة ، ولا واعية ، تند عن مأخذ التفكير ، ولكنها مع ذلك - في نظره - العلة المفسرة لكل تطور ، والينبوع العد الذى يستمد منه كل شيء وجوده . فبصرف النظر عن اختلاف الأشياء ، ألسنا نرى في هذا القول المذهب القديم في وجوب وجود علة

أولية للوجود، وصورة غير واضحة للإله الذى يقول به المؤمنون؟ فهل ندهش من أن يصل المفكر الإنجليزى على هذا النحو إلى إعلان الدين الخالد وإلى حصر الحياة العقلية للإنسان فى جهدين أصليين أوليين: أولهما الجهد العلمى الذى يتعقب الظواهر الطبيعية واستحالاتها، وثانيهما الجهد الدينى الذى يعمل على التأمل الباطنى والعبادة الصامتة للوجود العام؟ أما إيتريه فأمره أشد تأثيراً على النفس. فبعد أن طاف الأرض الثابتة للمعارف المحسوسة، ووصل إلى نهايتها القصوى، جلس على قمة مرتفعة لقطعة من الأرض ممتدة إلى البحر، وهناك وجد نفسه محاطاً بالمسائير من كل مكان كأنها محيط لا ساحل له، وليس لديه لأجل أن يكشف حقيقته سفينة ولا شراع ولا بوصلة، فوقف يتأمله، فاعتراه خشوع أمام هذا المجهول، واستسلم لحركة من العبادة والثقة جددت لفكره قواه، وأنزلت على قلبه السكينة والسلام. فسألت نفسى عند ذلك: ما معنى هذا التأمل فى هذا المستور الكبير إن لم يكن انفجاراً فجائياً للعاطفة الدينية التى زادها العلم المحسوس قوة بدل أن يطفىء جذوتها؟ وبما أننا هنا حيال ديانة الوجود الذى لا يمكن إدراكه، أفلا يعتبر هذا المذهب من الأدلة على أن الدين ليس بعلم ولكنه غريزة؟. ويقول شاعر لاتينى:

«إن الخوف هو الذى ولد الآلهة»، وهذا التعليل إذا فهم على بعض الوجوه فهو صحيح. ذلك أنه بما لا مشاحة فيه أن عاطفة التدين تنهت فى قلب الإنسان تحت تأثير الخوف الذى سببته له القوى الطبيعية الأولية المضطربة حوله. فإنه وقد قذف به عارى الجسم، وبجرداً من السلاح على كوكب قريب العهد بالبرودة بعد أن كان ناراً تتلظى، كان يمشى وهو يرجف على أرض لا تزال تضطرب تحت قدميه، واقعاً فى حالة من الفاقة والبؤس تملأ فؤاده بذعر. نعم ولكن يجب إتمام هذا التعليل، فإن الخوف وحده ليس فى ذاته فى شيء من الدين، إذا أنه يشل القوى، ويطمس العقل، ويسحق الإنسان. فلأجل أن يكون الخوف خصباً من الناحية الدينية، يجب أن يلابسه من لدن وجوده شعور مضاد له، أى بصيص من الأمل. يجب

(١٢) - تفسير القرآن لخباجى (٨)

أن يشعر الإنسان وهو بين برائن الوجل بإمكان التغلب عليه ، أعنى أن يؤمل أن يجد فوقه عوناً يدفع عنه ما يتوقعه من خطر . وبناء على هذا فالخوف لا يولد الدين عند الإنسان إلا لأنه يوقظ فيه الأمل ، ويلهمه الدعاء الذى يفتح لنوازله منسرباً . هذا هو الصحيح من هذا الافتراض القديم . وهو يقربنا من الينبوع الذى نبحث عنه بوضعنا فى المجال العملى للحياة ، لافى دائرة النظريات العلمية . فالأمر الذى يعنى الإنسان من الدين هو نجاة من العطب ، فإذا ظهر أحياناً أنه يحاول بواسطته أن يدرك سر الوجود ، فليس ذلك إلا ليحل بهذه الوسيلة سر حياته الشخصية . ونحن بعد أن وصلنا إلى هذه النقطة يجب علينا أن نزيد هذه المسألة محاولة . فيتعين علينا أن نرى كيف ينبع الشعور الدينى من خلال المتناقضات الأساسية .

أليس قول الله عز وجل : « فاقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، هو الإعجاز الأكبر ، لأن هذه القضية القرآنية قد سبقت بحوث العلماء والفلاسفة بأكثر من ألف سنة ؟

إن الدين هو الكوة التى ينبثق منها النور للإنسان من خلال الصخور المطبقة عليه ، والظلمات المحيطة به ، يقول أوجست سبانيه : لم يكن الدين . هو الكوة التى ينبع منها النور للإنسان وهو على أشد ما يكون من الشعور بالخرج وبالتضاد فى حياته الباطنة ، لأنه يحمل إليه حلاً نظرياً لتلك المسألة . لا ، ولكن المخرج الذى يؤقتنا به الدين من تلك الحيرة ، ويقترحه علينا ، هو من القليل العملى ، لا من طريق معلومات جديدة . أى باعادتنا إلى الأصل نفسه الذى اتصل به ذاتنا ، وذلك بواسطة عمل أدبى ، هو من إحياء الثقة فى نفوسنا بذلك الأصل الذى نشأت منه الحياة ، وبالغاية التى تنتهى إليها . ومع ذلك فإن هذا العمل المنجى لا يفرضه الدين علينا من طريق الإلزام ، ولكنه ينشأ فينا من ناحية الضرورة . فإن التمسك بالحياة ليس بشيء غير غريزة حفظ

الذات في العالم الطبيعي ، وهو يؤثر في العالم العقلي على الأسلوب نفسه . فهو صورة سامية لتلك الغريزة : ذلك أنها عمياء وجبرية في الكائنات الحية ، ولكنها تصطبغ بالوعي والإرادة في الحياة الأدبية . وهي باستحالتها هذه تظهر على صورة الدين في النوع البشري . هذا الاندفاع وراء حفظ الحياة لا يحدث في الفراغ ، ولا هو مجرد من غاية . لأنه يستند على إحساس ملازم للوعي الشخصي ، وهو الشعور بتبعية الإنسان للكائن العام . فمن الذي في وسعه أن يهرب من الشعور بهذه التبعية المطلقة ؟ ليس ما قدر علينا قد بث فينا خارجا عنا وفي غيبتنا فحسب ، بواسطة النواميس العامة لحركة التطور الوجودية ، فظهرنا في ناحية من الأرض في زمان ما موقرين بموروثات وقوى لم نستشر فيها ولم نخترها ؛ ليس هذا فحسب ، ولكننا لعدم وجداننا علة وجودنا في أنفسنا ، وفي أي مجموعة من الكائنات الأرضية ، اضطررنا للبحث عن السبب الأول لوجودنا ، وعن الغاية الصميمة لذاتنا وحياتنا ، خارج أنفسنا في الكائن الأول نفسه . فلاجل أن يكون الإنسان متدينا يجب عليه قبل كل شيء أن يعترف وأن يرضى ، في ثقة وبساطة وخضوع ، بتبعية وجودنا الشخصي للأصل الأبدى الذي نشأ منه وبارتباطه به ، وأن يريد أن يكون ضمن نظام الحياة ومتكافلا معه . فهذا الشعور بتبعيةنا يهبنا القاعدة العملية التي لا تقبل التلاشي للعقيدة بوجود الخالق . وهذه العقيدة يمكن أن تبقى في عقولنا غير محدودة ، وقد تلبث غير بالغة حدها الأقصى من الكمال ، ولكن موضوعها لا يزال ضميرنا فقط . وقد لقيت هذه العقيدة في روعنا ، بل فرضت علينا فرضا قبل إجابة أي فكر أو نظر في أي تحديد معقول . وعلى هذا فيمكن وضع هذه المعادلة الفلسفية بدون تهيب وهي : أن الشعور بتبعيةنا هو الشعور بوجود الله فينا هذا هو ينبوع العميق الذي تفجرت منه عقيدة وجود الله عندنا بقوة لا يمكن دفعها ، ولكنها نبعت منها هي والدين في آن واحد ، وبآثار الدين نفسه . ومع هذا يجب أن نقدر بأى ثمن قبل فكر الإنسان هذه التبعية

خيال الأصل العام للحياة . فقد رأينا أن هذا الفكر قد ثار على الأشياء الخارجية وتازعها ، لأن هذه الأشياء من طبيعة مغايرة لطبيعته ، ولأن الصفة الخاصة للفكر هي أن يفهم وأن يتسلط وأن يقود الأشياء لأن يخضع لها . فمن الذى لا يذكر فى هذه المناسبة عبارة باسكال : ليس الإنسان إلا قصة واهية ، فهو أضعف شيء فى الوجود ، ولكنه قصة مفكرة . فإذا كان الوجود يستطيع تحطيمها ، فاتها مع ذلك اسمى منه ، لأنها تعرف أنها تتحطم ، وتعلم أن الوجود أقوى منها ، والوجود فى غفلة عن هذا كله ؟ فمن أجل هذا ليس فى الوجود المادى أصل للسيادة يمكن أن يخضع له الإنسان . إن العظمة السامية للعقل خيال بمجموع الأشياء لا يمكن الاحتفاظ بها للنهاية فى شخصيتنا المؤقتة ، إلا بعامل من الثقة والاتحاد الصميم بروح الوجود . فإن ضميرى لا يستطيع أن يحكم بتبعيتى أنا والوجود فى حالة وفاق ، إلا بقوة روحية أدركت أن لها فى الكائن العام 'صلا مشتركا وغاية واحدة . وديكارت لم يندفع فيما قرره ، فإن محاولة الفكر الإنسانى أن يثبت لنفسه قيمته وعظمته هى عمل دينى فى حقيقته . ودائرة حياتى العقلية التى انفصلت من المنازعة بين شعورى الذاتى والحوادث العالمية ، عادت فالتأمت بواسطة حدث ثالث اندمج فيه الإثنان الآخريان ، وهذا الحد الثالث هو إحساسى بتبعيتها جميعا لله . أليس هذا الاستنتاج من تحليل عناصر الدين فى روع الإنسان . بعيد المدى فى الفلسفة والتجريد ، بحيث لا يمكن أن يصح على الناس عامة ؟ فإذا أمكن به تفسير وجود الشعور الدينى فى عهود الثقافة العلية العالية ، فهل استطاع أن يفسر لنا به ظهور الدين فيما قبل التاريخ من عصور السذاجة الإنسانية ؟ إن الذين بدلون بهذا الاعتراض يثبتون على أنفسهم أنهم لم يروا جيدا استمرار التضاد بين عقل الإنسان وحوادث الوجود فى أول عهد الإنسان بالظهور كما هو فى آخره ، وهو التضاد الذى جعل حياته غير مستقرة وفى غاية الشقاء وغاب عنهم أن هذا التضاد ليس بثمره من ثمرات المنطق ، حتى إن الإنسان لأجل أن يراه ويتألم منه يحتاج أن ينتظر حتى يكون فيلسوفا . ولكنه يتجلى فى الأحوال التى تساور

المتوحش ، وفي الانقلابات الطبيعية التي تحدث بين يديه ، وفي أخطار الغابات
وبوائقها ، كما تتجلى لنا نحن في ارتباكات أفكارنا أمام مساتير الوجود
وغوامض الموت . نعم إن مظاهر الكوارث والشعور بها تختلف بين الناس ،
ولكن الهزة الدينية التي ترج الإنسان وتزلزله ، هي في حقيقتها واحدة
لا تختلف . وبأسكال على ما كان عليه من علم لم يكن شعوره بالخرج أقل من
شعور إنسان العصور الأولى به . ألم يقل : إن الصمت الأبدي لهذا الفضاء
الذي لا نهاية له يرعبنى . و (كنت) وهو محصور في اليأس داخل الحدود
التي لا يمكن اجتيازها لعلم الظواهر الطبيعية ، أو شوبنهاور الذي تأدى إلى
إدراك استحالة الاتفاق بين العقل والإرادة ، ألم يكونا مهظين تحت آصار
الشعور بالعجز الأشد إيلا ما للنفس ؟ وعند ما كانا يقلعان عن النظر لأجل
أن يستطيعا العيش ، ألم يكونا يشعران على الرغم منهما وقلبيهما يطفح بالمرارة
والآلم ، تكوهن تهيدة على شفاههما هي مقدمة للدعاء ؟ وعلى هذا فالدين غير
قابل للزوال ، لأن ينبوعه الذي يتفجر هو منه ، فضلا عن أنه ينضب في صميم
الروح ، فإنه على تقيض ذلك يتسع ويعمق وتغزر مادته تحت التأثير المزدوج
من النظر الفلسفي والتجارب الحيوية المؤلمة والذين يتوقعون نضوبه يحسبون
من الدين ما ليس منه من المظاهر الخارجية الموقوتة .

(٥)

والإسلام ديننا الكريم ، وهو دين الإنسانية الخالد ، قد عي ضلال
الشرك والوثنية محوآ تاما ، وأزال شوائب الجحود والكفر والضلال ،
وأدران إنكار وجود الله واليوم الآخر ، بما ليس بعده بيان ولا برهان ،
ولا غرو فهو دين الإنسانية عامة ، ودين النهضة البشرية والإصلاح والسلام
كافة ، وإذا كانت الإنسانية تتدرج نحو السكال بقدم ثابتة ، وخطى متزنة .
والجماعات البشرية كلها وإن تناحرت وظهر أن بعضها يهدم بعضا ، فإنها في الواقع
مسخرة لقوى تمخضها مخضاً لتستخرج منها خلاصة ما أودعته فطرتها من

خصائص كريمة وخلال عالية . وقد تزول أمم وتقوم أمم ، وتبيد طوائف وتنشأ طوائف ، وتزلزل الأرض تحت أقدام الجماعات حتى ليظن الناظر إليها أن العالم مدفوع لدمار محقق ، وخراب لا مرد له . والحقيقة أن أجزاءه تتفاعل تفاعل المواد الكيماوية ، لتخرج مركبا جديداً أجمع منها جميعاً للزوايا المتفرقة فيها ، ليؤدي عملاً جديداً لا يستطيع أن يضطلع به من كان قبله ، ويكون مقدمة لغيره من الترقيات الصورية والمعنوية التي يأخذ بعضها بأيدي بعض ، متكافلة على تحقيق وعد الله في الأرض . ولقد عاش الناس آماداً طويلة متفرقين شيعاً ، ومتخالفين أصولاً ومبادئ ، وكان العقل الإنساني ملتاثاً ببقايا السذاجة الأولى ، يتخذ من هذا التشيع والتخالف عاملين قوين على توسيع شقة الانقسام البشري . وقد اتخذوا الأديان بواعث للضى في هذا التناحر إلى أقصى حد . وما زالوا جارين على هذا السمت حتى تمهدت سبل الاتصال بين الشعوب ، وتسهلت وسائل التعارف بينها ، ونجمت حاجات حيوية تدعوها لتبادل الثمرات ، وتداول المنافع ، فنشأ للأمم شعور لم يكن من قبل ، وهو وجوب قيام صلة بينها تسمح لها بالتكافل في الحياة ليكمل بعضها نقص البعض الآخر في أعم الحاجات وأبسطها ، فنشأت التجارة العالمية ، فكانت وسيلة للتفاهم ، والتفاهم يدفع إلى التسالم ، فكان هذا عهداً جديداً في حياة الأمم ما زال تدفع عوامله بالشعوب بعضها نحو بعض ، بمهداً لأكبر عهد من عهود البشرية ، ألا وهو القيام على أصل جامع يؤلف بين الكافة في حظيرة واحدة ، إخواناً على سرر متقابلين ، ليقطعوا مراحل هذه الحياة ، مجردين قواهم كلها للتكامل في العلم والعمل ، لا متناحرين يبغى كل فريق لخصمه الفشل ، ويبيت له الويل والخيل . ولد هذا الشعور في العالم ، ولكنه ولد خيالا يطوف ببعض الرؤوس ولا يستقر فيها ، إلا أنه كان يزداد على مر الأيام قوة ، إلى عهد خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم . في هذا العهد أراد قيوم الوجود سبحانه وتعالى أن يجعل من هذا الشعور الخيالي حقيقة واقعة ، فشرع للناس الإسلام ، وأمر بإشاعته في جميع أكناف الأرض ، وافتتح به

عهدا نهائيا للبشرية لم تكن تتخيله من ناحية الدين قط ، لأن كل أمة لقنت أن الأديان كلها مزورة إلا الدين الذي هي عليه ، فمن أية جهة تأتي مجموعها الوحدة المرغوبة من قبله ؟ ذلك كان من المحالات العقلية ، فكان بعض الفلاسفة يتخيل هذه الوحدة من ناحية التخلي عن جميع الأديان . وكيف كان يعقل ذلك في أمم اختلط حب الدين بدمها وأثرته على نفسها وولدها ؟

فكيف حل الإسلام هذه المعضلة الخطيرة في حدود العقل ومنطق الأشياء ، وسوغها للأذهان إلى حد أن صار ليس بين خصم الإسلام وقبوله والتحمس له إلا أن يسمعها بينة من الداعي إليه ، وأن يفهمها حق الفهم ؟ حقا إن هذه المعجزة لدين يعلن أنه آخر الأديان الإلهية ، وأنه الدين العام لمجموع البشرية ، وسيصبح دين الكافة غير منازع ، بعد أن تتجلى للناس آياته في الآفاق والأنفس الإنسانية . أعلن الإسلام أنه في أصوله الاعتقادية ليس بدين جديد ولكنه الدين الأول الذي أوحاه الله إلى نوح ، ثم تابع وحيه إلى جميع المرسلين من بعده ، فإذا كان الناس يرون أمام أعينهم أديانا مختلفة في هذه الأصول ، فإنما حدث ذلك من تحريف قاداتها لها ، وتحميلها ما لا تحتمله من أهوائهم وأوهامهم بغيا بينهم وقد أرسل الله به نبيه محمدا في آخر الزمان ، خالصا من كل ما أدخل إليه عما ليس منه ، ليقوم الناس على أصل جامع ، فينعموا بمزايا الوحدة ، ويتوجهوا بحملتهم لتحصيل الكمال الذي وعدت به البشرية . ولا أدل على ذلك من قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب . لذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، أى لا حاجة

ولا خصومة ، الله يجمع بيننا وإليه المصير ، . وقال تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب . فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن . وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين: أسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ، . إذا ألقيت هذا البيان إلى كائن من كان ، أساغه عقله ، واطمأن إليه قلبه ، وحن له شعوره ، وإلا فهل يعقل أن الله يوحى أديانا متخالفة في أصول العقائد لأمم تتشابه في عقولها وقابلياتها ووجهاتها ، على حين أن الحق لا يتعدد ، ونواميس الكون لا تتغير ؟ فإذا لم يكن هذا التخالف في الأديان من جنائيات قادة الأديان ، فجناية من هو؟ وهل يعقل أن يتوحد العلم الكوني في كل مكان ، حتى تكون أصوله في أية بقعة من بقاع الأرض هي أصوله في سائر بقاع العالم ، ويكون الدين في أصوله ذا وجوه مختلفة ينقض بعضها بعضاً ، ويعنى بعضها على بعض؟ والذي ضمن للدين الإسلامي الخلود أمران : الفطرة الإنسانية ، وسلطان العقل الكامل . والناس جميعاً يتفقون في مقتضيات الفطرة ، فما يراه إنسان بفطرته حسناً يراه كل الناس حسناً ، وما يراه قبيحاً يراه الكافة قبيحاً ، اللهم إلا إذا تعمد الآباء والمربون إفساد هذه الفطرة ، وشرط الإسلام أن تبقى الفطرة سليمة من الشوائب التي تحولها عن منهجها . وأما سلطان العقل الكامل ، فلا سبيل لأكبر قوة في الأرض أن تسلبه إياه ، فإنه قبس من نور الله ، ونفحة من حكيمته ، وقد حاول طمسه قادة الأديان السابقة أجيالاً ، وعاقبوا من يحوم حول حماه بالحديد والنار قرونًا ، فأظهره الله على جميع القوى الظلمانية التي جردت لمسكافته ، وتجلي جوهرها خالصاً لم يمسسه سوء ، وهو اليوم فيصل التفرقة بين الحق والباطل في العالم كله . اعتمد الإسلام على هذين الأمرين الطبيعيين ، اعتماد البناء على ركنيه الركينين ، فقال عن الفطرة الإنسانية : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ، فالخالق جل شأنه يبين للناس أن الدين

هو ما جبلت عليه النفوس من الفطرة الإلهية ، ولكن بشرط أن لا تشاب
بتعاليم تتحكم فيها وتوجهها غير وجهتها الطبيعية . وهذه الفطرة الخالصة من
كل شرب : من هوى ، أو وهم ، أو تقليد ، أو تعليم ، هي الإسلام نفسه ؛ إلا
أن هذا الموقف يحتاج لمقوم يقوم به ، فإن الناس يتخالفون في الغرائز الطبيعية ،
وفي الصفات الوراثية : فمنهم المثبت والمتسرع ، والبعيد النظر والقصير ،
والكثير العلم والقليل ، فكان لا بد من حكم يرضى الناس جميعا حكومته ، ولا
يشذ عنها إلا مفترون أو متعنت . هذا الحكم هو العقل . ولما كان هذا العقل
مناطق التكليف ، ويفصل التفرقة بين الحق والباطل ، وجب أن يكون بحيث
يصلح لهذه المهمة الخطيرة . فلذلك حث الحق سبحانه وتعالى على تكميله ،
بالنظر في الأعلام التي نصبها في الكون لتكميله ، والمنار التي أقامها لهدايته ،
ليقوى على ما هو بصده ، ويأمن العثار في حكمه ، ولا يلتبس عليه الباطل
في تلونه . فهذا الجمع بين حكم الفطرة المعدلة بحكم العقل الكامل ، هو الأساس
الديني الذي بعث الله خاتم أنبيائه لوضعه وإعلانه بين الأمم ، لتوحد في أديانها
وعقائدها ، كما هي متوحدة في إنسانيتها وفطرها وعقولها . لقد نصح الفيلسوف
الإنجليزي (باكون) واضع الدستور العلي قبل نحو ثلاثة قرون في توحيد
العلم في كل بقاع الأرض ، ببنائه على المشاهدة والتجربة ، وعلى التحليل
والتركيب ، وياخرأجه جميع الآراء والظنون من مادته ، فإذا كان (باكون)
قد استحق إعجاب العالم كله به لتوفقه إلى هذا العمل العظيم ، فإن الإسلام
يستحق أكبر ما يتصور من الإجلال والإكبار لا يحائنه إلى خاتم أنبيائه محمد
صلى الله عليه وسلم هذا الدستور الديني الذي نحن بسيله ، فجمع به بين أمر
لا تغرب عن بلادها الشمس ، وسيجتمع عليه سائرهما ، متى وفق الله المسلمين
لإعلانه للناس في هذه الصورة الباهرة ، ومتى أراد الله أن يتم هذا الإصلاح
الكبير في الأرض .

ولفظ الإسلام يدل بمعناه على الخضوع والتسليم لله عز وجل ، ويدل كذلك
على الدين الواحد الحق الذي أوحى به الله إلى البشر كافة . ويدل كذلك على

أداء العبادات المطلوب أدائها من المسلم : كالصلاة والصيام والزكاة . ويدل كذلك على شريعة محمد عليه السلام كلها .

فبالاعتبار الأول لا يكون للإسلام ميزة على الأديان ، ولا لإنزاله من موجب في نظر الإنسان . ولكنه بالاعتبار الثاني تكون له مهمة عالمية عالية ، وهي إعادة الوحي الإلهي الأول إلى صورته الصحيحة ، خالصا من كل ما ألحق به من الأوهام البشرية ، والآراء الخيالية ، ليلجأ إليه من حار بين المتناقضات المذهبية ، فلم يهتد إلى الصواب منها ، ومن أمضته الخزعبلات الاعتقادية فلم يثلج صدره على كونها إلهية ، فبقى مترددا بين أن يكفر بها جملة ، وبين أن يؤمن ببعضها تاركا ما يترجع عنده أنه من الموضوعات البشرية . فالإسلام بهذا الاعتبار يعد إصلاحا عاما للأديان . وموحدا لها ، ليصبح للإنسانية دين واحد يسيغه عقلها ، والمسلمات المنطقية لاتتعدد لدى جميع أفرادها والذي يقرره الإسلام في هذا الأمر الجلل : هو أن الدين عند الله الإسلام ، أي الاستسلام لله ، والخضوع له ، والتخلي عن جميع الأهواء والأوهام ، واتباع ما يأمره به الله ، وهو لا يأمر إلا بما يسيغه العقل ، وتستقيم عليه الحياة . ويصلح به أمر المجتمع ، ويمكن الاستدلال على صحته بكل ذرائع الاستدلال ، قال تعالى « إن الدين عند الله الإسلام » ، ثم بين الله تعالى أن هذا الدين هو دين الله القويم ، وهو العروة الوثقى لا انفصام لها ، وهو الذي تجتمع عليه الإنسانية في وحدة عامة . ولا معدى عنه للعالمين جميعا : « أفغير دين الله يبغون ؟ وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ، قل آمننا بالله وما أنزل علينا ، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى ، لاتفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » ، وذكر القرآن الكريم أن من الناس من يحاول نصم عرى الإنسانية ، فيؤمن ببعض المرسلين ، ويكفر ببعض ، تعصبا لقوميته ، أو مشايعة لنزعة مذهبية منها أن هؤلاء يعتبرون كافرين حقا ، « إن الذين يكفرون بالله ورسوله ، ويريدون

أن يفرقوا بين الله ورسوله ، ويقولون : تؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعدنا للكافرين عذابا مهينا .

إن الإسلام ليس هو مجرد ناحية من نواحي الحياة كما يفهمه الغربيون ، ولكنه نظام شامل لمصالح الحياة كافة . وهو من هذه الناحية يدبر اتجاهات وأعمال أتباعه ، ولذلك لم يخطيء الذين وصفوا الإسلام بأنه الجامع . وطبقا لهذا الوصف يمكن تعريف الإسلام بأنه عبارة عن نظام الحياة كما وضعه محمد ، لأن محمدا مع علاقته بالله - جعل للدين السيطرة الكاملة على كل مصالحه الشخصية ، سواء أكانت دينية أم خاصة أم عامة . فأول ما تلقاه من الوحي جعله رسولا ونبيا وداعيا من الله إلى عباده ، لا يشاركه أحد في قياد زمام الناس وتعليمهم وإرشادهم إلى ما فيه صلاح شؤونهم الدنيوية والديوية . وقد غير قبلة الصلاة طبقا للوحي ، فحوّلها من بيت المقدس إلى مكة . وكثيرا ما كان يتلمس الوحي والإلهام في إدارة شئونه المنزلية الداخلية المحضنة ، وقد نزلت الآيات تحض المسلمين على إطاعة الله والرسول ليوطد بها علاقاته العامة والسياسية . ولقد آمن الكثيرون بمحمد فأصبحوا « محمديين ، أو مسلمين ، وشابعه تلاميذه وأصحابه ومن قلدهم وتابعهم في كل ناحية من النواحي الاجتماعية والسياسية ، وتمسكوا بمبادئه وقلده في كل أعماله ، وكان تقليدهم له مبني على القرآن . وإن المسلمين باعتبار كونهم أمة وسطا بتسمية القرآن ، يلوح لي أنهم معدون جغرافيا وروحيا لأن يكونوا جماعة اتصال بين الغرب والشرق الأقصى ، وبين شعوب شمال البحر المتوسط وأفريقيا . فهذا الارتباط الذي لا بد منه دون شك لحفظ التوازن الروحي للعالم ، وهذا الموضع من قلب الكوكب الأرضي من جاوة والهند إلى المغرب ، يظهر أنه اختص هذه الكتلة المؤلفة من ثلاثمائة مليون من البشر أن يكونوا مركز الثقل للعالم القديم . ولهذا السبب نجدها محل عناية العناصر المختلفة .. وقد صار ذلك أشد وضوحا

اليوم - في أوروبا التي يمزق بعضها بعضا أمام نظرها الآن . وإن الضمير الإسلامي يستنكر ، جريا على مبدئه وغريزته ، كل مذهب يدعو إلى العنصرية وإلى الفلسفة المادية لتاريخ البشرية ، وإلى أية حكومة استبدادية ، ذهابا إلى أن الله قدس الشخصية الإنسانية والهيئة الاجتماعية معا . فالخضوع الإسلامي المرموز إليه بكلمة (عبد) لمولاه الحق ، يعتبر ضمانا لكرامة المسلم الذاتية . وعند المسلمين أن كل الكائنات المستمدة وجودها من واجب الوجود المطلق ، التي يطلق عليها عالم الشهادة وتكلم عنها الأنبياء ، تتساوى كلها في قيمتها وفي تلاشيا أمام رب العالمين ، ولكن ما أوقته من الإلهام الإلهي لا ينسخ . وقد وجه الإسلام دعوته لجميع الشعوب دون اعتداد منه بالجنسيات والأصول . وجميع الذين اتبعوه يأتون من أربعة آفاق الأرض كل سنة محررين بالحج . معتقدين أن الناس أجمعين سيلتقون يوم الحساب عراة الأجسام يتصيبون عرقا ، ويطفحون عذابا .

(٦)

وسورة الأنعام لها قدم صدق في الرد على الشرك والمشركين ، وكذلك سورة الأعراف ، هذه السورة الجليلة ، إحدى السور الطوال ، التي نزلت مقررة لكل ما ذكر في السور التي نزلت قبلها ، والتي كثر فيها خطاب الله عز وجل لبني آدم : يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان . يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم . يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد . يا بني آدم إنا يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . وقد كانت الأعراف كذلك أطول سورة نزلت في ذلك العهد ، وأكثر ما نزل قبلها كان من سور الجزئين الأخيرين من سور القرآن الكريم .

وقد نزلت هذه السورة في العهد الأول للدعوة المحمدية ، يوم كان الرسول صلى الله عليه وسلم يضع الحجر الأساس لصرح الإسلام ، ويدعو إلى توحيد

الله ، بالتبشير والإنذار ، والتذكير بالمثلثات التي خلت من قبل ؛ فلم يكن عهد نزولها عهد تشريع ، أو تفصيل الأحكام ، إذ لم يكن هناك أمة أو جماعة تنضوي تحت لواء واحد فتحتاج إلى تشريع أو تفصيل لأحكام ؛ وإنما كان هناك صوت عال بالحق ، جرىء فيما أمره الله ، يرن في أجواء مكة وما حولها ، ويدوي في آذان قوم عاكفين على أصنام لهم ، ينحتونها بأيديهم ثم يعبدونها من دون الله قانتين ، ويتوجهون إليها مخلصين . كان هناك ذلك الصوت العالی الجريء يدعو إلى توحيد الله ، وإلى التحرر من ربة الأوهام ، وإلى السمو بالكرامة الإنسانية والعقل البشري عن وهدة الشرك التي ارتكس فيها الإنسان فعبد الحجر ، وعبد الشمس والقمر .

والسورة الخطاب فيها لأبناء آدم ، للناس جميعا ، للعرب ولا للمسلمين وحدهم ؛ حتى وهي تتحدث عن الشرك وتصف الشركاء لا تريد خصوص شرك العرب ، ولا خصوص شركائهم ، وإنما تريد الشرك في أقدم عهوده ، يوم طغى الوهم على الناس فأنساهم خلقهم وكفروا بخالقهم ، يوم خلق الله البشر من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها : « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به ، فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين . فلما آتاها صالحا جملا له شركاء فيما آتاها ، فتعالى الله عما يشركون ، . وكذلك لا نجد فيها أحكاما ولا نظما ، ولا تفصيلا لعبادة من العبادات ، وإنما تجدها تتحدث عن المبادئ العامة ، والأخلاق الفاضلة ، تدعو إليها الناس جميعا ، لافرق بين جنس ودين ، ولا دين ودين ؛ تتحدث عن المبادئ التي لو آمن الناس بها ونزلوا على حكمها لساد العالم السلم ، وشملت الطمأنينة . اقرأ : « قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله مالا تعلمون . قل أمر ربي بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تهودون ، « ركلوا واشرفوا ولا تسرفوا ، ، « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، ، « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ،

والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ، ، ، «ولسلك أمة أجل ، ، ، «لانكلف نفسا إلا وسعها ، ، ، «ولاتفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، ، «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ، ، «والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، ، «والذى خبث لا يخرج إلا نكدا ، ، ، «أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، ، ، «سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيلا الرشدا لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيلا الغي يتخذوه سبيلا ، ، ، «فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفسقون ، ، ، «وخذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ، وسورة الأعراف بعد ذلك تقص علينا قصة الإنسانية من يوم نشأتها ، فتذكر خلق الإنسان وتصويره ، وتمكينه في الأرض ، وما أخذ الله عليه من عهد فطرى بمنحه العقل ، وتوضيح الدلائل : «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم؟ قالوا بلى ، . وتذكر آدم وزوجه ، وتأثرهما بقوة الشر ، ووسوسة الشيطان لهما حتى أخرجتهما مما كانا فيه ، وتضع العلاج الذى يقى الإنسان شر التأثر بالهوى والشيطان : «إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ، . والسورة أيضا تتلو علينا كتاب الدين العام ، دين الله الحق فى فصوله المتعاقبة من عهد آدم ونوح ، وتذكر فى ثانيا ذلك ما نزل بالأمم التى عنت عن أمر ربها ، وكذبت رسلها ، وأن منهم من أهلكت بالصيحة ، ومنهم من أخذتهم الرجفة ، ومنهم من أغرقهم الله ، ومنهم من ابتلاهم بأنواع من العذاب «فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات ، . ثم هى تقفى على ذلك بآخر فصل من فصول هذا الكتاب الإلهى الخالد ، فصل النبوة المحمدية : «قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا ، الذى له ملك السموات والأرض ، لا إله

إلا هو يحيى ويميت ، فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ،
واتبعوه لعلمكم تهتدون ، . هذا تعريف مختصر بسورة الأعراف . وفي سورة
الأعراف تنويه بالقرآن ما بعده من تنويه ، وتفخيم لقدره ، وتقرير لنزوله
على محمد صلوات الله عليه وسلامه لغاية نبيلة ، وهدف سام ، هو هداية البشر
وإخراجهم به من الظلمات إلى النور . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من
الظلمات إلى النور ياذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، وقد كان الرسول صلى
الله عليه وسلم يقدر مشقة الرسالة من جهات : من جهة الوحي الذي ينزل عليه :
« إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا ، ، ومن جهة إيمان قومه به . ومقدار حرصه
على ذلك ؛ ومن جهة تكذيبهم إياه ، وما يلاقى من إعنات ومشقة . كل هذه
الجهات كانت مبعث حرج وضيق ؛ وكان شأن الله معه - وقد تولى أمره ، وكفل
له العصمة من الناس ، والإقذار على تبليغ الرسالة - أن يخفف عنه آلام ذلك
الموقف ، ويتعهده الفينة بعد الفينة بالنصح والإرشاد والتسليية ، وحمل ما يلقى
في سبيله : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرآنه
فانبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه ، ، فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا
بهذا الحديث أسفا ، ، « قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون ، فإنهم لا يكذبونك
ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، ، « واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن
عليهم ، ولا تك في ضيق مما يمكرون ، . ومن هذا القليل قوله جللت حكمته :
« فلا يكن في صدرك حرج منه ، ، أي إذا كان الواقع الذي تعلمه من قرارة
نفسك أن هذا الكتاب منزل عليك من الله ، فسكن عند ثقتك بنفسك ،
ولا تدع لتكذيبهم أثرا في قلبك ، ولا لعدم إيمانهم سلطانا على نفسك ، ولا
لثقل الوحي اضطرابا في قواك ، فالله قد تولاك ، وبفضله رباك ، « ألم نشرح
لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذي أقتض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك ،
فلا يضق صدرك عن تحمل أعباء الرسالة ، وعليك بالصبر وقوة الاحتمال
لتقوم بوظيفتك التي اصطفاك لها الله .

(٧)

هذا وكل الدلائل تدل على وجود الله وقدرته، وعلى كذب الماديين والملحدين فيما يذهبون إليه من نفي وجود الله، ومن السخرية بالغيبيات؛ ومتى كان الله موجوداً كانت الرسالة والنبوات والبعث أموراً بديهية ظاهرة واضحة لا تحتاج إلى برهان. وفي هذا الجزء، أو على وجه التحديد في الربع السابع منه إشارة إلى مظاهر القدرة الباهرة العظيمة التي تدل على وجود الله وإرادته، يقول الله تعالى: «إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، يغشى الليل النهار، يطلبه حثيثاً، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، أإله الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين» (١). نعم تبارك الله رب العالمين، تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. . . إن الفلك يتحدث بعظمة الله، وإن في حقائق السماء تتجلى عظمة القرآن السماء، عظمة الله الكبير المتعال، الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خالق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير، . . سبع سموات تعلو بعضها بعضاً، ومن الأرض سبع مثلن: والله الذي خلق سبع سموات، ومن الأرض مثلن، يتنزل الأمر بينهن، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً، (٢)، هناك في كل سما كوكب معمر يشبه الأرض، أو بمعنى آخر هناك عوالم أخرى يتنزل بينها أمر الله كما يتنزل بيننا؛ ولم يقتصر خلق الله على هذه السموات، بل خلق من فوقها شيئاً عظيماً آخر وهو عرش الله كما تدلنا هذه الآية المذكورة سابقاً من سورة الأعراف، وآيات أخرى، مثل «قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم؟»، ولكي نعلم مقدار عظمة هذا العرش يجب أن نرجع إلى مقاله رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد جاء أن

(١) آية ٥٤ سورة الأعراف.

(٢) آية ١٢ من سورة الطلاق.

أباذر الغفارى سأل الرسول صلوات الله عليه عن الكرسي فقال له الرسول :
والذى نفس محمد بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي
إلا حلقة ملقاة بأرض في فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة
على تلك الحلقة ، . أى أن السموات السبع والأرضين السبع إذا بسطن ثم
وصلن بعضهم إلى بعض ما كن في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة الملقاة في صحراء
كبيرة ، وكذلك قبة الكرسي إلى العرش كحلقة في صحراء واسعة . إذن
فسمواتنا السبع هذه وما فيها ما هي إلا جزء صغير لا يكاد يذكر من هذا العالم
الذى لا يعلم مداه إلا خالقه . وهذا ما قاله القرآن ، فلننظر إلى ما قاله علم الملك
الحديث لرى إلى أى حد يتفكان .. إن علم الفلك مازال بعيدا عن إدراك بعض
ما أدلى به القرآن . لقد خلق الله سبع سموات وكرسيا أكبر منهن على الأقل
ملايين المرات ، وخلق عرشا عظيما حجمه أكبر من حجم الكرسي على الأقل
ملايين المرات كذلك ، وخلق في كل سماء كوكبا سيارا مثل أرضنا
ماهولا ينزل عليه أمر الله . هذا ما قاله القرآن - أما ما يقول
الفلك فيدلنا عليه قول بروس بلفن^(١) من أن سماواتنا ذات النجوم ما هي إلا
واحدة على الأقل من ملايين من أمثالها من المجموعات الشمسية المنتشرة
في الفضاء في جميع الأنحاء ، وفي السماء تسعة آلاف نجم يمكن رؤيتها
بالعين المجردة وتشمل مجموعتنا على مائة بليون من النجوم بعضها أصغر من
شمسنا وبعضها أكبر منها أضعافا مضاعفة ومن وراء المجرة التي نحن فيها وعلى
بعد أعظم مما يستطيع العقل البشرى أن يتصوره مجرات أخرى وهي ليست
بعيدة عنا فحسب بل بعضها بعيد أيضا عن البعض الآخر أعظم البعد ، وقد
أصبح معروفا على وجه التحقيق وجود مائة ألف أو أكثر من هذه المجرات
وهناك ... هـ الف مجرة أخرى تحت المراقبة . وليت الأمر قاصرا على هذا
العظيم الذى يحير الأفهام ، بل إن حجم الكون أخذ في الزيادة شيئا فشيئا ، وكلما

(١) مجلة المختار عدد ديسمبر ١٩٤٣ .

ازداد حجمه ازدادت المسافة بين أجرامه . وهذا ما يقوله عالم ثان مطابقا لما
قاله القرآن الكريم : ، والسماء بيناها بأيد وإنا لموسعون^(١) ، إذن فسماءنا
هذه التي تعتبر المجرة سقفها ما هي إلا واحدة من سموات لا يكاد يحصيها العد ،
فتبارك الله أحسن الخالقين ، ، أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا ترجعون .
فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ،^(٢) ولقد برهن العلم
أيضا على وجود كواكب سيارة تدور حول كثير من النجوم ، ولكن ما بقي
أمام العلم أن يبرهنه ولا يزال عاجزا عن أن يصل إليه إلى الآن هو سكنى
هذه الكواكب ، وقد بدأ عهد الصواريخ والفضاء الكوني لذلك ، ولا يزال
العلماء يبحثون في سكنى المريخ فبعض العلماء يؤيده وبعضهم ينفيه ،
والمريخ اقرب كوكب سيار يلينا في مجموعتنا الشمسية ، فكيف يكون الحال
إذن مع كواكب النجوم الأخرى والتي في السموات الأخرى ؟ ولكن عهد
الانطلاق الكوني قد يأتي بالدليل على كل ذلك .. وينص القرآن على عدم
وجود اختلاف فيما خلق الله من نجوم وكواكب إذ يقول الله تبارك وتعالى :
هل ترى في خلق الرحمن من تفاوت؟ ، هل ترى في خلقه من اختلاف ، وهذا
ما يتأخى فيه الفلك والقرآن . فالنجوم في شكلها وجركتها متشابهة فهي جميعها
كروية وجميعها تدور حول نفسها وجميعها تجرى في الفضاء بسرعة مخيفة كأنها
شظايا قنبلة متفجرة وكأما بعثها انفجار هائل ، وهذا ما عناه القرآن
الكريم : ، فلا أقسم بالحنس ، الجوار الكنس ،^(٣) أى أن الله تعالى
يقسم بالنجوم الرواجع التي تجرى في الفضاء والتي تختفي بالنهار تحت ضوء
الشمس . وترجع إلى الظهور في الليل ، ويبين القرآن عظم السموات وعجز
الإنسان عن أن يدرك عظمتها أو يسبر غورها بقوله تعالى : ، فلا أقسم
بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ، ، ويقول تبارك ذاته : ، ثم ارجع

(١) آية ٤٧ من سورة الذاريات .

(٢) آية ١١٥ و ١١٦ المؤمنون .

(٣) سورة التكويم آية ١٦ ، ١٧

البصر كرتين. ينقلب إليك البصر غاسقا وهو حسير ، أى أنك إذا نظرت إلى السماء ارتد إليك طرفك خائبا كليلًا وشعرت بالعظمة التي تبهرك ، وهل هناك عظمة تتقطع دونها الأقسام وتبهر لها الأبصار كتلك العظمة التي لا يمكن أن يتصورها الخيال مهما اتسع ؟ ولكي تعلم بعض الشيء عن الكون وعن النجوم ومواقعها والعظمة التي يحتويها القسم بها اقرأ ما كتبه الأستاذ سمون نيوكوم ، إذ يقول : لو أننا أردنا أن نصنع نموذجا صغيرا جدا للعالم وتصورنا الأرض التي نقطنها ممثلة عليه بحبة من الخردل فإن القمر سيكون على هذا النموذج ذرة قطرها حوالى ربع قطر حبة خردل هذه ، وعلى مسافة بوصة منها ، وتكون الشمس تفاحة كبيرة مضيئة على مسافة أربعين قدما ، أما الكواكب السيارة الأخرى فإنها تتراوح فى الحجم من الذرة التي لا ترى إلى حجم البسلة ، وتقع على مسافات من التفاحة المضيئة الشمس تختلف من عشرة أقدام إلى ربع ميل ويتحرك كل منها حول الشمس وتتم دوراتها المختلفة حولها فى أزمان تتراوح بين ثلاثة أشهر ، و ١٦٠ سنة ، وبما أن حبة الخردل الأرض تتم دورتها فى سنة فيجب أن تصور القمر مصطحبا إياها مع دورانه حولها كل شهر مرة وتشغل المجموعة الشمسية كلها على هذا النموذج مساحة نصف ميل ، وبعد ذلك لا بد لنا أن تقطع فضاء مساحة أعرض من قارة أمريكا دون أن نرى جرما سماويا واحدا غير ما تصادفه من مذنبات مبعثرة حول الحافة وعلى بعد كبير من حدود هذه القارة نعثر بأقرب نجم إلينا ويمكن أن نمثله كشمسنا فى حجم تفاحة كبيرة ، ويبعد عنا بمقدار ٢٥ مليون مليون ميل ، أى قدر بعد الشمس بنحو ٢٧٠ مرة ، وعلى مساحة كبيرة أعظم من هذه فى جميع الاتجاهات توجد نجوم أخرى ولكنها فى المتوسط تبعد عن بعضها البعض كما تبعد النجمة الأولى عن الشمس . وعلى ذلك فإن جزءا من هذا النموذج الصغير تبلغ مساحته مساحة الأرض لن يتسع لأكثر من موقع

نجمين أو ثلاثة فقط . وإنا لرى من ذلك أنا لو طرنا خلال هذا الكون
مثلا في هذا الأنموذج الصغير الذى تصورناه فأقنا حتما نمر على هذا الشيء الصغير
الحقير كارضنا دون أن نراه حتى لو قشنا عليه دقيقا تفتيشاً ونكون مثل شخص
على متن طائرة خلال وادى المسيسى يبحث عن حبة خردل يعرف أنها كانت
مخبأة فى مكان ما على القارة الأمريكية ؛ وحتى تلك التفاحة المضبوطة التى تمثل
الشمس ربما لاترى إن لم نمر بالصدفة قريبا جدا منها .

خاتمة هذا الجزء

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله محمد الأمين ، المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .
وبعد : فهذه هي نهاية هذا الجزء الكريم ، من أجزاء القرآن الحكيم ، وقد فصلنا الحديث فيه ، وتكلمنا على ما احتوى عليه من فرائض وشرائع ، وفواميس وقوانين ، وتنظيم لشئون المجتمع والأمة ، وتحديد لعلاقة الناس بربهم ، وشرحنا ما اشتمل عليه من دعوات إلهية كريمة للتوحيد ومحاربة الشرك والمشركين ، ومن قصص الأنبياء مع أممهم لتحذير المشركين من مثل مصارع هذه الأمم ، ويوصل القرآن الكريم إلى الذروة في كل ذلك بيانا وبلاغة وشرحا وحجة وتفصيلا لكل شيء .

وهذا الجزء يحتوي على تلخيص واضح لرسالات كثير من الرسل ، ولرسالة محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

ونحن في هذا التفسير نحاول الوصول إلى أعماق الحقيقة ، وبلوغ الغاية في إدراك روح القرآن الكريم وجوهره ، ونجتهد في تفصيل الحقائق ، وتحديد مواضع الحجج : وتبيين مرامي القرآن ، وشرح أصوله وأسراره وحكمته ، وتقريب بعيد مغزاه ، وعميق معناه . وتيسير وسائل فهمه للمتفهمين .

ومن الله نستمد التوفيق والسداد ، ونسأله الهدى والرشاد ، إنه أكرم مأمول ، وأفضل مستول ، وما توفيق إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ؟

محمد عبد المنعم خفاجي

للمؤلف

- قصة الأدب في مصر - ٥ أجزاء
- ٥ - الأندلس
- ٤ - المعاصر
- ٣ - الأزهر في ألف عام
- ٤ - صور من الأدب الحديث
- رائد الشعر الحديث - جزءان
- ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان - طبعة ثانية ٨٠٠ صفحة
- الحياة الأدبية في العصر الجاهلي - طبعة ثانية ٥١٠ •
- دراسات في الأدب والنقد
- مع الشعراء المعاصرين
- الذكر الحكيم
- الشعر والتجديد
- مواكب الحرية في مصر الإسلامية
- في خلال الإسلام - بالاشتراك
- التراث الروحي للتصوف الإسلامي في مصر
- تفسير القرآن الحكيم - ٣٠ جزءاً

فهرست الجزء الثامن

من القرآن الكريم

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٥٠	رسالة موسى ومحمد عليهما السلام ونزول القرآن	٤	تصدير
٥٤	إنذار لأهل الكتاب والمشركين	٥	تمهيد
٥٦	تمجيد دعوة الإسلام ومبادئه	١٠	تمة سورة الأنعام
٦٧	مغزى الربع الرابع	١١	الربع الأول
٧٠	الأصول التي تضمنتها سورة الأنعام	١١	موقف اليهود والنصارى من الإسلام
٧٤	سورة الأعراف	١٣	إنكار على المشركين
٧٥	تمهيد	١٦	ما يحل وما لا يحل أكله من الذبائح
٧٦	الربع الخامس	١٩	تمجيد رسالة الإسلام
٧٦	القرآن والرسالة	٢٣	مغزى الربع الأول
٨٥	إنذار المشركين بمثل مصارع الأمم الماضية	٢٤	الربع الثاني
٨٦	قصة معصية إبليس وتمرده على أمر الله بالسجود لآدم	٢٤	المؤمنون والكافرون
٩٧	معصية آدم وخروجه من الجنة	٢٩	إبطال شعائر المشركين
١٠٢	توجيهات إلهية لبنى آدم	٣٢	مغزى الربع الثاني
١٠٥	تكذيب المشركين في افتراءات باطلة افترضوها	٣٨	الربع الثالث
١٠٧	مغزى الربع الخامس	٣٨	براهين على وجود الله ووحدانيته
١٠٨	الربع السادس	٤٤	تهكم بالمشركين ورد عليهم
		٤٦	مغزى الربع الثالث
		٤٧	الربع الرابع
		٤٧	شعائر الإسلام وشرائعها

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٠٨	أوامر إلهية	١٣١	مثل المؤمن والكافر
١١٠	بين المتقين والمكذبين	١٣٢	قصة نوح عليه السلام وقومه
١١٢	شدة ظلم الذين يفترون على الله بالكذب	١٣٦	مغزى الربع السابع
١١٤	جزاء المؤمنين والكافرين عند الله	١٣٧	الربع الثامن
١١٧	حوار بين أهل الجنة والنار والأعراف	١٣٧	قصة هود عليه السلام مع قومه
١٢٠	مغزى الربع السادس	١٤٢	قصة صالح عليه السلام مع قومه
١٢١	الربع السابع	١٤٨	قصة لوط عليه السلام مع قومه
١٢١	عود إلى الحوار بين أهل الجنة والنار والأعراف	١٥٠	قصة شعيب عليه السلام مع قومه
١٢٤	القرآن والمشركون	١٥٢	مغزى الربع الثامن
١٢٥	عظمة الله في السماء والأرض	١٥٤	نظرة عامة في هذا الجزء
		١٩٧	خاتمة هذا الجزء

توزيع مؤسسة المطبوعات الحديثة
٣ شارع ماسير بالقاهرة

22

Bibliotheca Alexandrina
مكتبة الإسكندرية



0205998

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح - تيليفون : ٥٧٨٥٢

٣٥